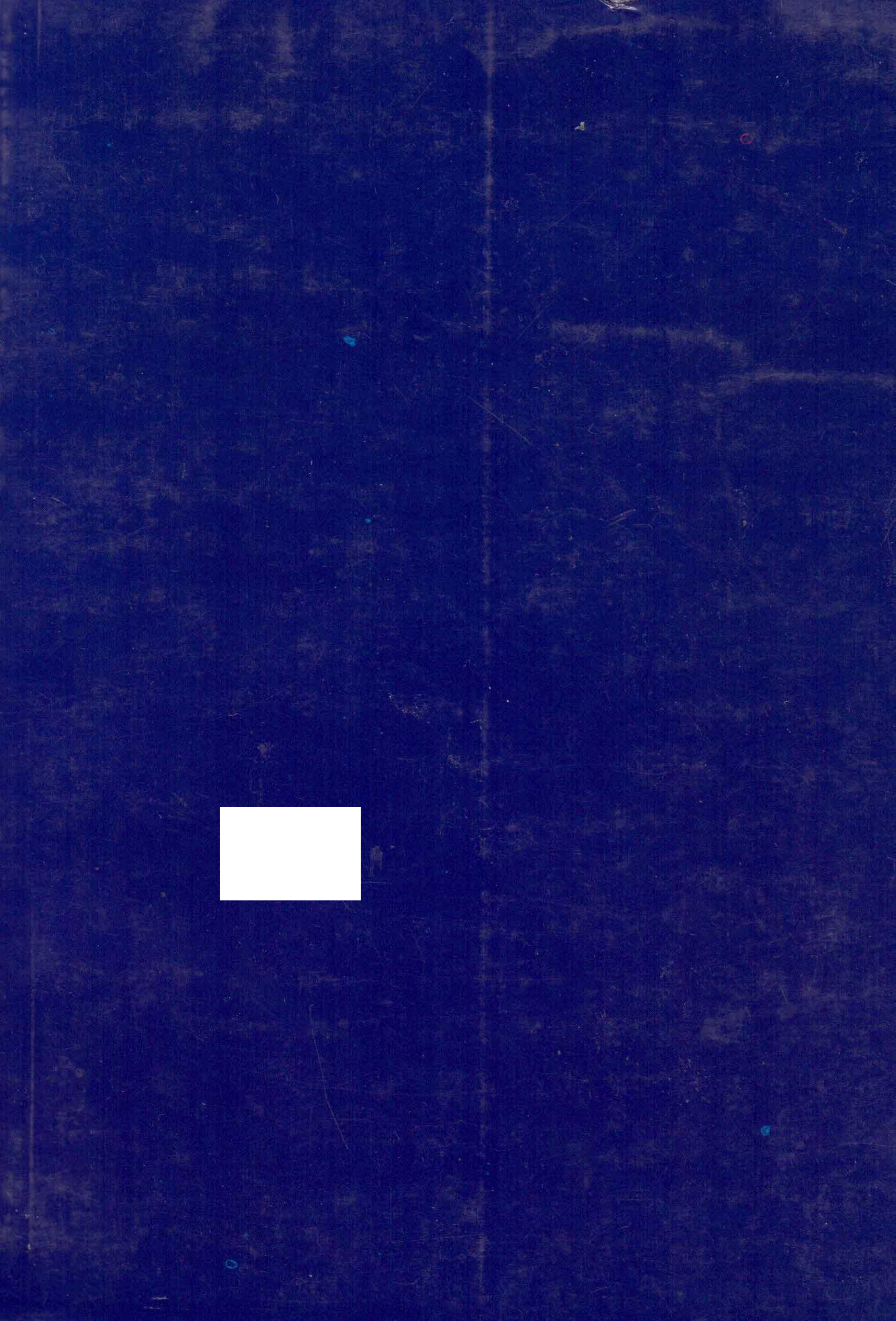
أسامة يوسف شهاب

نحو أدب إسلامي معاصر

دار البشير
عمان



نحو أدب إسلامي معاصر

إعداد

أسامة يوسف شهاب

دار البشير

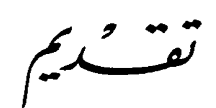
عمّان


بسم الله الرحمن الرحيم

نحو أدب إسلامي معاصر

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار البشير
للنشر والتوزيع
هاتف ٦٦٤٤٢١ - ٦٧٠٢٣٠ - ص ب ٦٢٤١ - العبدلي - بناية المدو - مقابل البنك العربي - عمّان - الأردن



تقديم

(ان الذين لبسوا قبعات المستشرقين أخطر من المستشرقين أنفسهم).

الأستاذ زكي مبارك

المقــدّمة

دأبت الـدراسـات الأدبية المستحـدثـة وأبحاث تاريخ الأدب المتـأثـرة بمنـاهج الغربيين ومدارس الاستشراق على تقسيم حياة الأدب العــربي إلى عصــور منفصلة: العصر الجـاهـلي، صدر الإســلام، العصر الأمــوي، العصر العبــاسي الأول، العصر العباسي الثاني.. الخ، ثم يقسمون الفن العربي الواحد المتميز إلى مذاهب في الشعر والنثر!!

كما دأبت الجامعات العربية وكليات الآداب والعلوم الإنسانية على ترسيخ هذا الفهم وتثبيته في أذهان الناشئة، كيف لا ويقرأ في خطط هذه الجــامعــات الـدراسية لكليات الآداب: نصــوص جاهلية، نصــوص من صدر الاســلام، نصوص أموية، العصر العبــاسي (شعــر)، العصر العبـاسي (نثـر)، الأدب الأنـدلسي والمغــربي، أدب مصر والشـام، الأدب الحديث... الخ، وهم ينسون أو يتناسون وحدة العصر ووحدة الأدب ووحدة الرسالة!

وسرت هذه العـدوى إلى منـاهـج التربية والتعليم الاعدادية والثـانـوية، ومـا الفصـل بين ضروب اللغة العربية ـ هذه اللغة الشريفة حاملة الرسالة ـ إلا بعض هذه العدوى التي أشرت اليها

قبلا. . واستفحل المرض وعمَّ البلاء حين نشر أساتذة الأدب الكبار بعض دراساتهم المنفصلة المفصلة دون إشارة إلى وحدة الأدب العربي، . . وقد روينا عن أساتذة من هؤلاء. . يعمدون هذا الفصل، بل ويدعون إلى العامية ونبذ اللغة الفصحى، والغريب في الأمر أنهم يدعون إلى العامية بلغة فصيحة، وعلى حسن نية بعضهم إلا أن كتب العربية تعاني من أزمة جفاف واضمحلال، بل تعاني من أزمة تشويه مقصود!!

وخلال دراستي الجامعية الأولى، ومتابعتي الدراسة العليا لمحت هذا الفهم ورسخ في ذهني بصورة سالبة قاتمة مؤلمة!!

وفي ضوء هذه التجارب، وهذه الخطط وهذه الحرب المدروسة المبرمجة ـ وقد نشرت ما تيسر لي في الصحف والمجلات حول أمرنا هذا ـ أقول في ضوء هذه التجارب، هل وجد الأديب والكاتب العربي المسلم؟. . . وهل له موقف وموقع وزاوية رؤية؟ وهل انطلق الكاتب المسلم من أدق خصوصياته الى أوسع شمولياته؟

★ ★ ★

إن الأدب الإسلامي يفتقد إلى الحداثة في عصرنا الراهن لضعف كتّابه لا لضعفه،والأدب الإسلامي أدب ثائر لا يهادن، والأدب الاسلامي واضح محدد القوافي بارز المعالم وهو يتهم أهله وحصاته!!

يقول الدكتور أحمد مطلوب في مقالة له بعنوان «أدب إسلامي كيف؟»: ينبغي أن يكون الأدب الاسلامي ثوريا لا يهادن أحدا ولا يرضخ إلا لسلطان الله الذي خلق هذا الكون ـ وهذه ميزة فريدة على سائر الآداب الأخرى ـ وأن يكون حرا لا يخشى في الحق لومة

لائم ولا يرهبه جبروت ليكشف الزيف ويرسم الطريق، وينير الحياة وأن يكون حركيا يعبر عن الواقع الحي ويستشرف الآفاق البعيدة لينير دروب الملايين المجاهدة في سبيل الله، وتحرير الأمة والوطن من الاستعباد وقيم الجاهلية ـ وطن الأمة الاسلامية ـ وينبغي بعد ذلك كله أن يخضع نقد الأدب لمقياسين: مقياس إسلامي يأخذ أصوله من التصور الشامل للكون والحياة والانسان وينطلق من كتاب الله وسنة رسوله. ومقياس فني يستقي أصوله من اللغة العربية وبلاغتها وسحرها الأخاذ، . . . بل وتميزها، وبغير هذين المقياسين يفقد الأدب هويته، ويصبح أفكارا تصور العقيدة كما ترسمه الدراسات العلمية، أو اظهارا للقدرات الفنية من غير محتوى أصيل! . . . وفي هذا العصر الضال فقد الأدب الإسلامي هويته وأصالته؟! (مجلة العربي، العدد ٢٦١، رمضان ١٤٠٠هـ. بتصرف).



إنني أختلف مع مطارحة أستاذي الدكتور محمود السمرة حول فصل الدين عن الأدب ـ مع تقديري واحترامي ـ وما جاء به في كتابه «القاضي الجرجاني الأديب الناقد»، وذلك في محاضرة القاها على طلبة الدراسات العليا بتاريخ ٩/٥/١٩٨٣.

حيث يقول: (وإنه ليدهشنا أن يجهر قاضي القضاه بالرأي بأن الأدب غير الدين، وأنه إذا ورد في الأدب ما يعارض الدين، فإن هذا لايضير الأدب ولا يحط من قيمته الفنية. ومثل هذا الرأي يدل على أن الرجل كان جريئا يقول ما يعتقد، وهو رأي يجبن كثيرون عن المجاهرة به حتى في أيامنا هذه).

ونص القاضي العادل والشاعر المطبوع الجرجاني يقول: (فلو كانت الديانة عارا على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر، لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عدّت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعري وأضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعاب من أصحابه بكما خرسا وبكاء - من قل كلامه خلقة - مفحمين. ولكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر) . . .

وقد أعلن هذا الموقف الجرجاني على أن يرد على خصوم المتنبي الذين رفضوا شعره لأنهم وجدوا عنده أبياتا تدل على وهن العقيدة. . . (انظر تفصيل ذلك في كتاب الدكتور السمرة / القاضي الجرجاني الأديب الناقد، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ط ١، ١٩٦٦).

حتى أن الأخطل يقول: (الشعر لا دين له). وأحسب أن أهل الجاهلية لديهم من الخلق والصفات النبيلة ما يفوق أخلاقيات عصر الجرجاني - من نقاد القرن الرابع وشعرائه - بل عصرنا!! والاسلام لم يرفض الشعر الجاهلي رفضا قاطعا، وانما وجّه الشعر وجهة أخلاقية انسانية عالمية!

والشعر الاسلامي ليس هو شعر حماد عجرد ومطيع بن إياس، وصالح بن عبدالقدوس، والمهلبي، وابن المعذل، وليس هو شعر الحسين بن الضحاك والبرجمي - من شعراء اللهو والمجون، وليس هو شعر الصيمري والحمدوني وابن بسام من شعراء الهجاء. . . أقول ليس الشعر الاسلامي شعر هؤلاء. . وهل

يصلح هؤلاء لاعتبارهم مدخلا لدراسة العصر العباسي؟!.. ولا نعني نسخ هذا الشعر، بل هو ضوء يمكن الاستنارة به في دراسة أدب العصر، ولكن علينا أن لا نعمم القول من دراسة هذا الشاعر أو ذاك.. فليس العصر العباسي حماد عجرد!! كما أنه ليس الحلاج وعبدالله بن المبارك... ونحن نعلم أن من دخل مداخل السوء اتهم!!

وعندي - إن كانت لي عندكما يقول الجاحظ - أن الديانة عيار الشعر وميزانه، وقد طرد أفلاطون الشعراء من جمهوريته لما ينشرون من أخلاق سيئة. وجاء أرسطو وأفاض في تحليل الشعر والتراجيديا، ولم ير رأي أستاذه وجاء بنظرية التطهير (Catharsis) أي أن الفن بطبيعته يطُهّر النفس الإنسانية من العواطف الشريرة والخبيثة (المرجع السابق القاضي الجرجاني الأديب الناقد).

وتعليقا على فصل الدين عن الأدب كما يذهب القاضي الجرجاني يقول الأستاذ أحمد مطلوب: إذا كان هذا صحيحا من الناحية الفنية فإنه غير مقبول من الوجهة العقيدية التي تحتم الالتزام بالقيم الرفيعة، والاخذ بأسباب تقدم الانسان... لا تصوير نوازعه وشهواته وعزله عن الحياة العامة وعن مجتمعه وكان على الأدب العربي أن يلتزم بذلك ليقدم للعالم صورة مشرقة بناءة، ولكن نص الجرجاني ظل بعيدا عن القرآن الكريم والنظرة الشاملة إلى الكون، ولم يستند مما جاء من تصوير بارع لمشاهد القيامة والطبيعة والقصة والعواطف الإنسانية الرفيعة، ويبدو أن العناية بالأسلوب واللغة... صرفتهم عن الاهداف السامية فلم يأخذوا

من كتاب الله الا بلاغته التي صاغوها قواعد فقدت ظلها بعد جيل أو جيلين وأصبحت لاتوحي بالحياة والحركة التي كانت في كتاب الله ، ولو اتخذوا الكتاب العزيز لهم شرعة ومنهاجا في التعبير عن الحياة لكان لهم أدب انساني رفيع كما كان لهم في سالف عهدهم!

وإزاء هذا الفهم وهذا الالتزام فإن الكاتب المسلم غير محتاج للرقابة ـ الرقابة البشرية ـ وغير محتاج لدوائر المطبوعات والنشر، لأنه يحاسب نفسه قبل أن يحاسب، ويراقب كلماته قبل أن تراقب!!

وخلال دراستي تاريخ الأدب العربي الاسلامي في عصر ازدهاره ما قرأت عن رقابة المؤلفين إلا في عصور متأخرة، وكان يقوم بهذه المهمة ديوان الحسبة؛ فكان الكتاب الإسلامي يجاز من أئمة العلم والأدب بعد مراجعته ومدارسته والتعليق عليه وربما تقديمه.. ويختم في صحن المسجد وحلقات العلم، وغالبا ما كان الكتاب المؤلف يُراجع من قبل أكثر من عالم ودارس. وكثيرا ما كان الإمام المعلم يقرأ من هذا الكتاب على تلامذته ويرى رأيهم ويحاورهم فيما سمعوا!!

★★★

لقد واجه الأدب العربي عددا من النظريات الوافدة في مجال النقد الأدبي، قدّمها الأدباء في نطاق الدعوة إلى تجديد الأدب العربي، وقد خالفت هذه النظريات منطلق الأدب العربي وجذوره، وتعارضت مع ذاتيته الاسلامية العربية الخالصة، وتصادمت مع مزاجه النفسي والعقلي ـ كما يقول الأستاذ أنور الجندي ـ ومعظم أصحاب هذه النظريات النقدية الوافدة درسوا في الغرب وكانوا امعّات لأساتذتهم ومدرسيهم ومستشرقيهم، وقد

نسخوا أصالتهم وفكرهم . . وما هاجروا من أجله!!

وأبرز طوابع الفكر الغربي تتمثل في تجزئة الأمور لا في تكاملها؛ فهي تفهم شيئا واحدا وترى عكسه أو ضده، وهي تفصل بين الأشياء فصل العداوة أو المخالفة أو التعارض، ولا تستطيع أن ترى إلا من وجهة واحدة ـ من ثقب ابرة ـ ولا تستطيع أن تقبل المواءمة أو المصالحة أو الالتقاء أو التكامل على النحو الذي يكاد يكون طبيعة واضحة للفكر العربي الإسلامي، فهي تقبل العلم، وترفض الدين وتراه معارضا تماما، أو تقبل المادة وترفض الروح، أو تقبل المحسوس وترفض الغيبيات، بينما يستطيع الفكر العربي الإسلامي أن يزاوج ويربط ويجمع بينهما (انظر: أحمد الجنابي/دراسة من التاريخ الإسلامي) . . . بينما يرى الغرب أن هناك ثقافتين: علمية وأدبية يرى الفكر الإسلامي أنهما شقان لثقافة واحدة: ثقافة القلب والعقل فهما يتكاملان معا حيث يجمعها الفكر الإسلامي كجناحين له. ولا شك أن أثر هذه النظرة في الأدبين العربي والغربي بعيدة المدى، ومن العسير في ظلها أن يلتقي الأدبان على قوانين واحدة أو نظرية نقد واحدة.

(أنور الجندي/خصائص الأدب العربي، ص ٤٦، ٤٧ بتصرف بسيط) .

إنه كما قال العلّامة محمد أحمد الغمراوي (سوق الأدب العربي في غير طريقه، وإلباسه ثوبا من غير نسجه) .

إن أدب الغرب الغاضب لايتفق مع خلق الإسلام وروح الإسلام وأدب الإسلام، وفي الأدب أدب وإلا لن تقدسّه الأمة وتحترمه الأجيال . . وكان من أبرز ما دعا إليه المذهب الأدبي الغربي

الذي حمل لواءه المستشرقون ودعاة التغريب والشعوبية هو تحرير الأدب من طابع الأخلاق. ودفعه إلى تصوير الغرائز والأهواء في غير ما قيد، وذلك باسم حرية الأدب التي اطلق عليها «الفن للفن» . .
وكما يرى الأستاذ أنور الجندي أن هذا الاتجاه بدأ بظواهر ثلاث:
(١) الافاضة في الحديث عن حياة بشار وأبي نواس وغيرهما من شعراء الإباحة في العصر العباسي، ونشر الجوانب الشاذة من أحاديثهم وأسمارهم على النحو الذي كتبه الدكتور طه حسين (حديث الأربعاء).
(٢) ترجمة القصة الغربية الاباحية، والكشف عن جوانب الصراع الحسي في العلاقات الشاذة بين الرجل والمرأة، وترجمة أشعار بودلير وغيره من شعراء الأدب المكشوف.
(٣) الإذاعة بمذهب حرية الأدب والدعوة إليه والدفاع عنه وفق منهج علمي زائف، بدعوى أنه منطلق إنساني أصيل!!

وقد استهدفت هذه الدعوة التي اتسع نطاقها، وقامت من أجلها المناظرات والمحاضرات فضلا عن ذلك الفيض من القصص الفرنسية المكشوفة التي جرى ترجمتها وتقديمها بأسعار زهيدة والقاؤها بين أيدي الشباب والفتيات!!؟

وأسوأ ما يواجهه الأدب العربي هو السخرية والاستهزاء بهذا التراث الحضاري الضخم، وطعن التاريخ الإسلامي وتشويهه، واعتبار قصص البطولة والشهامة والكرم في هذا التاريخ الحافل هي من قبيل المثاليات والسذاجة!!؟ . . . وأخال هذا الطعن وهذا التشويه المقصود وغير المقصود هو من علامات انهزام هذه الأمة، ولكنني على يقين بأن الخير في هذه الأمة باق إلى يوم القيامة!

. . . ذلك أنه ليس في مفهوم الأدب العربي أصلا ما قاله طه حسين: (خسرت الأخلاق وربح الأدب). !

وقد واجه الدكتور محمد حلمي رزق هذه الدعوة حين قال: (إن حرية الأدب لا جدال في أخلاقها، ولكن الخطأ في قصرها على عاطفة دون عاطفة أو وجدان دون وجدان، فضلا عن عاطفة الهوى، ووجدان الشك والمجون، وأكبر الخطأ أن يوحي إلينا طه حسين أن الأخلاق من مواصفات الحياة الجامدة كأنها وليدة الارادة العمياء التي نادى بها (شوبنهور)، فهي فرص مكررة أو لزام أعمى يقتضي الحرب والإنكار). (المرجع السابق، ص ٨٥، ٨٦ بتصرف كبير).

وهذا دوماس يقول: (كل أدب لا يستهدف الكمال والفضيلة والمثالية والفائدة العامة هو أدب عاجز مريض لم يكتب له البقاء . . . أروني كاتبا واحدا قدسته الأجيال لم يكن قصده نبيلا).
(للمزيد انظر: النقد الجمالي وأثره في النقد العربي/روز غريب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٢).

. . لا فصل بين الدين والأدب، ولذا نقرأ: «أباطيل وأسمار» للأستاذ محمود محمد شاكر، «أعلام وأصحاب أقلام» للأستاذ أنور الجندي، اضافة إلى طه حسين في ميزان الاسلام، وكتابات الأستاذ أنور الجندي بعامة، و «الاقطاع الفكري وآثاره»/ للدكتور عبدالحي دياب، «تحت راية القرآن» للاستاذ مصطفى صادق الرافعي، «الإسلام وثقافة الانسان» للأستاذ سميح عاطف الزين.

. . . وهـذه مجرد أمثلة أقرع بها باب الأدب الإسلامي، بل أقـــرع بها باب النقـــد الإســـلامي . . انـــظر نجيب الكيلاني: (الإسلامية والمذاهب الأدبية)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١.

★ ★ ★

لقد عشت مع الأدب الاسلامي غير مرة، ونشرت ذلك في غير موضــع، والاســلامية التي نطرحهــا هنا هي وجهة النظر الدينية للانسان والطبيعة.

فيما يتعلق بالمفاهيم الأدبية، ونحن لا نعتبر الإسلامية مذهباً كالواقعية والرومانسية والوجودية والبرناسية . . فالأدب أوسع من أن يحيط به مذهب محدود، وأرحب من أن نحصره في قيود من القواعد المحلية أو الـطارئة. والاسلام دين انساني شامل لا يعرف حدود الزمان والمكان وان تلائم معهما، وتمشى مع منطقهما المتطور المتجدد الاشكال الثابت الجوهر، وتبعا لذلك تكون الاسلامية من الوجهة الادبية الفنية أرحب من هذه المذاهب وأسمى من القيود . .

(انظر الإسلامية والأدب في المرجع السابق ص ٤٧-٧٤).

ونحن نعيش في عصر الإعـلام - إن صح التعبير - والإسلام يدعو إلى استعمال كل وسيلة ممكنة تتفق وتنبثق من الدعوة وطبيعة الرسالة الإسلامية والواقع المادي والنفسي وتكوين هذه الأمة حاملة الـرسالة. وقد بدأ الاسلام غريبا وعاد غريبا، ولاستئناف الحياة الإسلامية من جديد ينبغي أن نستعمل كل وسيلة إعلامية ممكنة في عصرنا الراهن، والأدب الإسلامي هو أحد هذه الوسائل، ومن الوسائل الأخرى:

١ـ الاذاعة الإسلامية .
٢ـ الصحافة الإسلامية .
٣ـ التلفزيون الإسلامي .
٤ـ المسرح الإسلامي .
٥ـ السينما الإسلامية .
٦ـ الاشرطة الإسلاميـة .
٧ـ الكتاب الإسلامـــي .
٨ـ المعارض الإسلامية .
٩ـ المكتبة الإسلامية المتنقلة .
١٠ـ دور النشر المسلمة .
١١ـ المخيمات الشبابية الإسلامية .
١٢ـ المحاضرات الإسلامية .
١٣ـ لقاءات الشباب الإسلامية .
١٤ـ معاهد البحث والترجمة الإسلامية .
١٥ـ الوكالة الإسلامية للتوزيع .
١٦ـ النوادي الرياضية المسلمة .
١٧ـ الرحلات الاستطلاعية لدول العالم الإسلامي .
١٨ ـ الأناشيد الإسلامية .
١٩ـ الوكالة الإسلامية للأنباء .
٢٠ـ المعاهد والكليات الإسلامية في المجالات الاعلامية المختلفة .
٢١ـ الأدب الإســلامي ويشمــل : الشعـر الإســلامي ، النثـر الإسلامي ، القصة الإسلامية ، الرواية الإسلامية ، أدب الأطفال الإسلامي وأخيرا أدب المقال الإسلامي .

. . . لذا فإننا نستطيع السير في عدة قنوات إعلامية مثل : قصص من القرآن والسنة، قصص التاريخ الإسلامي، المحاضرات الهادفة، الندوات الثقافية، اللقاءات المفتوحة، الوعظ والارشاد، التمثيليات الإسلامية، الفن الإسلامي . . الخ .

وهذه القنوات الإعلامية المختلفة تخدم في غايتها النهائية الدعوة الإسلامية، وهدفها الهداية إلى الخير واخراج الناس من الظلمات إلى النور، وذلك ضمن تخصصاتها . (انظر كتابي «وسائل الاتصال الجماهيري في الإسلام» ص ١٠٥-١١٣) .

والأديب المسلم يكتب متأثرا بطبيعة التصور الإسلامي للحياة وبطبيعة الإسلام ذاته في تطوير الحياة وترقيتها وعدم الاكتفاء بواقعها في لحظة أو فترة . . يقول سيد قطب في كتابه «في التاريخ فكرة ومنهج» :

إن الأدب والفن المنبثق من التصور الإسلامي لا يهتف للكائن البشري بضعفه ونقصه وهبوطه، ولا يملأ فراغ مشاعره وحياته بأطياف اللذائذ الحسية أو بالتشهي الذي لا يخلق إلا القلق والحيرة والحسد والسلبية . . . إنما يهتف لهذا الكائن بأشواق الاستعلاء والطلاقة - كما سبق وان أشرت - ويملأ فراغ حياته ومشاعره بالأهداف البشرية التي تطور الحياة وترقيها، سواء في ضمير الفرد أو في واقع الجماعة . . . كذلك ليست وظيفة هذا الأدب أو الفن تزوير الشخصية الإنسانية أو الواقع الحيوي، وابراز الحياة البشرية في صورة مثالية لا وجود لها . . إنما هو الصدق في تصوير المقدرات الكامنة أو الظاهرة في الإنسان، والصدق كذلك في تصوير أهداف الحياة اللائقة بعالم من البشر، لا بقطيع من الذئاب! .

ويستطرد الأستاذ قطب قائلا: (المهم أن نقرر هنا أن الأدب أو الفن الإسلامي أدب أو فن موجه، موجه بطبيعة التصور الإسلامي للحياة وارتباطات الكائن البشري فيها. وموجه بطبيعة الفكرة الإسلامية ذاتها، وهي طبيعة حركية دافعة للانشاء والابداع والترقي.. وللأدب والفن الإسلامي إذن منهج، منهج محدد يلتزمه في كل مجالاته. وهذه الكلمة هي الخط الأول في تصوير هذا المنهج، وبها نفتح المجال لدراسته تقريرا وشرحا، ومعارضة، ونقدا لجميع الاقلام، ولجميع الاتجاهات..).

★★★

ونحن نعلم أن بدايات التدوين وكتابة التاريخ الإسلامي كانت في عهد الخلافة العباسية.. فكان أمرا متوقعا أن تعكس هذه الكتابات ميول العباسيين الدينية والسياسية وما تطمح إليه نفوسهم؛ ففي هذه المصادر موقف متحيز ظاهر للعيان ضد الأمويين!

فبينما يعتبر المؤرخون العباسيون أسرة حاكمة باركها الله سبحانه نراهم يرون في الأمويين حكاما دنيويين أو ملوكا يتمسكون بمأثور الجاهلية وأوسع هذه المعلومات نجدها في تاريخ الطبري، وفي كتاب البلاذري «فتوح البلدان» و «أنساب الاشراف». - وقد فقدت الجزازة التي توثق هذه المقولة - هذا اذا آمنا بوجود العصور الاسلامية المنفصلة انطلاقا من مقولتنا الأولى!!

وقد أعطيت هذا الضوء للدارسين المحدثين ومن يود الغوص في بحار الأدب العربي.. أدب الإسلام، أدب الرسالة، ورسالة الأدب.. أزعم هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا

ذلَّ العرب ذلّ الإسلام» . . أمة العرب، أمة الرسالة، أمة الوسط، أمة الشهداء!

والدعوة الإسلامية في واقعها الراهن هي بحاجة إلى الكتاب والباحثين المسلمين . . بل هي محتاجة إلى كل وسيلة عصرية لنشر الإسلام، في كل الأصقاع، وفي شتى انحاء المعمورة، والرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه لم يتوان لحظة عن نشر الدعوة قولا وعملا سرا وعلانية، داخل الجزيرة العربية وخارجها.

والدعوة إلى الإسلام تعني: الدعوة قولا وعملا لامالة الناس إلى الإسلام بكل وسيلة ممكنة لا تتنافى والشرع الحنيف، وعلى هذا يقول الدكتور أحمد غلوش في كتابه «الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها»: (إن الدعوة بمعنى النشر والبلاغ تحتم توضيح الإسلام، وترى ضرورة فهم مزاياه وخصائصه، وتنادي بوجوب الاحاطة بكافة الوسائل التي يتم النشر بها، ومن هنا فإننا نرى وجوب العناية بعلم الدعوة ضمن هذا المفهوم حتى يمكنه أن يساير التطور العلمي لوسائل الاتصال والإعلام والدعاية).

ومن المبادىء الأساسية التي وضعها النبي ﷺ لنشر دين الله أنه لم يقصر الوسائل على نوع محدد، وإنما استعمل عدة وسائل: القرآن الكريم والسنة النبوية والرسائل والخطب، ومع هذا دعا أصحابه إلى تطبيق وسائل كثيرة كالخطبة وتبليغ الشاهد الغائب، وحمل الرسائل، وقيادة الجيش، والجهاد في سبيل الله.

وكل هذا يعطينا مندوحة في استغلال كافة الوسائل الحديثة، مستفيدين من طريقة القرآن في الدعوة، كتاب الله سبحانه، كتاب أدب الإسلام الأول!

★ ★ ★

والعالم العربي والإسلامي يفتقد إلى ما يسمى «أدب الطفل». . وأعني أدب الطفل المسلم، وقامت بعض دور النشر اللبنانية والمصرية بنشر سلسلة من حياة ابطال الإسلام وهي مقبولة ـ على علاتها وإن كانت تجارية الهدف ـ ولكن ينقصها التوجيه والتثقيف النفسي، وما يناسب المراحل العمرية المختلفة.

وسررت لبعض اهداءات مجلة الوعي الاسلامي، ومجلة العربي، ومجلة الكويت. . إلى الطفل العربي المسلم!

ولست اخالني مخطئا إن قلت: ان مستقبل الأمة يتوقف على مستقبل أطفالها. . . رجال الغد الذي نتمنى أن يكون مشرقا!!

وكتب اطفالنا المدرسية تفتقد إلى النصوص التراثية الجيدة ـ وما أكثرها ـ والناشئة منفصلون عن تراثهم، ولا يعرفون منه إلا النزر اليسير، ولا أرى داعيا لتركيز كتب اللغة العربية على أدب المهجر بهذه الصورة اللافتة للنظر، يكفي أن يدرس الطلاب نصا واحدا أو نصين. . . أما أن نملأ كتب ابنائنا بما يوافق هوى مؤلف بعينه فهذا أمر غير مُتَّقبل، وهو ليس من الموضوعية بمكان دني!! (راجع ما كتبه أنور الجندي عن الأدب المهجري).

والأولون كتبهم غنية ثرة بالتجارب الحياتية والعواطف النبيلة والمشاعر الصادقة، فلم لا نحاور مصادر عصر ازدهار الإسلام وانتشاره. . . يوم كان «برج ايفل» مربط خيل المسلمين!!؟

لم لا نقدم لابنائنا دراسات الجاحظ الأدبية وكتبه ـ مثلا ـ وهذه التراجم والسير والقصص والحكايات والروايات الهادفة؟

ولا يفهم من هذا أن الأدب الإسلامي أدب جامد ثابت لا يتزعزع. . بل هو أدب متطور غني سائر يراعي التطور والجدة

والـرقي، ولكن شريطة أن يخدم هذا الأدب هدفـا ساميا وغـاية نبيلة. . لا أن يكون أدبا تدميريا هابطا مثبطا. . كما تفعل اجهزة الإعلام والتلفزة في عصرنا الراهن الضال!!. .

وكـما قال عادل صلاحي في حديثه عن الأدب الإسـلامي: (عنـدما نتحدث عن الأدب الإسلامي يتصور الكثيرون اننا إنما نتحـدث عن أغـراض محددة يتناولهـا الأديب، لا تخرج عن المـوضوعات الدينية المحددة ويتصورون كذلك أن حصيلة هذا النوع من الأدب لا يصلح لها مكان في المكتبة إلا إلى جانب كتب العقيدة والفقه. . وهذا تصور خاطىء، وفهم بعيد عن الصواب لطبيعـة الأدب الإسـلامي، ولا بد لإعـطاء المفهـوم والتصـور الصحيحين من أن نبدأ بالنفي لنقدم من بعده الاثبات. والنفي هو أنه ليس كل ما يكتب في الموضوعات الإسلامية يمكن أن يسمى أدبا اسلاميا أو فكرا إسلاميا. وليس كل ما تحدّث به الناس عن الإسـلام وسجلوه من خواطـر أو انفعـالات أو أفكار ودونوه من مؤلفات يمكن أن يُضم إلى المكتبة الإسلامية أو يعتبر من «التراث الإسلامي». . إن كل ما يصدر عن الأديب المسلم الملتزم ـ أيا كان موضوعه ـ يعتبر أدبا إسلاميا، طالما أن الروح التي كتب بها روح إسـلامية، وطالما أن الأديب ظل في عمله ملتزما حدود الإسلام متقيدا بشرائعـه وقـواعده). (مجلة المجلة، السنة الرابعة، العدد ١٧٣، ٤ـ١٠ حزيران، ١٩٨٣م).

فالأدب الإسلامي ليس موضوعات دينية فحسب، بل يشمل كل نشاط إنسانٍ نبيل، وكل أدب يخدم الأمة. . . وهل نتوقع من الإسـلام أن يُحرِّم أدب الطفل. .؟ كلا، بل هو يشجعه ويحض

عليه، والعلة هي علّة الأدباء والكتّاب الذين اتجهوا إلى الكتابة لأجيالهم ولطبقتهم المثقفة وللكبار بصورة عامة. . . وتركوا عالم الطفل المسلم وأدب الطفل المسلم. . وهذه قضية بحاجة للبحث والدراسة المستفيضة؟!!

ولعل وجهة أدب الطفل نحو القصص القصيرة، أو الاقاصيص والحكايا غير مبررة، حيث يمكن نظم قصائد مبسطة للطفل تراعي مستواه العمري ومرحلته الدراسية، ولم أقرأ بهذا الصدد غير ما كتبه الأستاذ محمد موفق سلمية، وبعض المحاولات في الصحف الأردنية.

ومن السوء أنْ يقرأ طفلنا العربي قصصا وقصائد مترجمة أو معربة دون توجيه وخطط مدروسة لصالح هذا الطفل!

والقرآن الكريم كما التاريخ الإسلامي يحوي قصصا رائعا جميلا، فلم لا يأخذ موقعه ضمن هذا الأدب الوافد؟. . وهي قصص خلوقة مهذبة ناصحة مرشدة ممتعة مفيدة مسلية. . . وتقوي النزعة الدينية الفطرية عند ابنائنا، وهي بالاضافة الى هذا كله تنمي الذوق الأدبي والاحساس بالروح الجماعية ومثالية الإنسان. وسيرة الصحابة والتابعين فيها نماذج متميزة لما نرمي إليه من هذا القصص الخالد.

واعتقد اعتقادا جازما ان قصص هذا السلف الصالح أفضل من قصص «توم وجيري» وتلك القصص التي نلقيها بين أيدي اكبادنا التي تمشي على الأرض!!

وقصص التراث الإسلامي هذه متقبلة عنده أكثر من روايات «عبير» و «ميكي ماوس» و «سوبرمان» و «غراندايزر» و

«الـوطـواط» . . تلك التي اجهضت بها مكتبـة الـطفل المسلم، واجهضت بها الاكشـاك والأرصفـة والمكتبـات العامة! : ؟؟ ألف علامة تعجب واستفهام!؟

والغزالي عنده أن الطفل المسلم أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، وإن عوّد الشر واهمل اهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيّم عليه والوالي له.

ولسوء الحظ أن كليات التربية ومناهج التربية المستحدثة تربي أبنـاء المسلمين كما يريدهم علماء الغرب . . . كما يريدهم (جون ديوي)الامريكي، و (كانت) الالماني، و (بستالوزي) السويسري، و (بـافلوف) الـروسي، و (بياجيه) الفـرنسي، . . . كما يريدهم (سكنر، وكارل روجرز، وهيلدا تابا، وفريدريك هربرت) وغيرهم وغيرهم . . ونسى علماء المسلمين وتربية الإسلام، ونقبل أن يكون اطفـالنا فئران تجارب ومختبرات، ونقبل أن نطبق نظرية الاشراط ولعاب الكلب على ابنائنا!!

وننسى تربية اخـوان الصفـاء في رسائلهم، والجاحظ في بيانه وتبيينه، والقابسي في «الرسالة ـ المفصلة لاحوال المعلمين وأحكام المعلمـين والمتعلمـين» و الغـزالي في «احياء علوم الـدين»، وابن سحنـون في «آداب المعلمـين»، وابن سينا في «السياسة»، وابن خلدون في مقدمته، وننسى تربية ابن القيم والفارابي . . هؤلاء الأفذاذ!!

هذه دعـوة ارجـو أن تجد آذانا صاغية، وأدب الطفل المسلم بحـاجـة إلى أبحـاث وابحـاث، بحـاجـة إلى التوجيه والتثقيف

والتوعية، بحاجة إلى إعادة النظر في مناهج التربية والتعليم وفلسفة التربية ـ إن وجدت ـ بحاجة إلى التوجه الخالص لأجل هذا الطفل المظلوم. . . يا اطفال العالم الإسلامي اتحدوا، انكم رمز المستقبل وأمل الغد والخير فيكم إلى يوم القيامة!!

★ ★ ★

إن نتاج الفكر الإسلامي مسألة هامة، وهذا النتاج الفكري والأدبي بحاجة للحوار والمقابسة والنقاش الهادف البناء، وهو بحاجة للدراسة والبحث وعقد الندوات الفعالة لا الورقية!!

والكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وعندي أن القلم كاللسان، وحصاد اللسان هو ثمار الأقلام المؤمنة؛ فلنحفظ علينا أقلامنا!!

ويجب علينا معاشر الكُتّاب أن نكتب بصدق وأمانة والتزام، ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾، وقال سبحانه في سورة ابراهيم: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق للأرض ما لها من قرار، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾.

وانطلق أدب الإسلام وإسلام الأدب، . . . انطلق أدب محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان خلقه القرآن، وأدب الإسلام ليس في السلم فقط، وليس في الكتابة والتأليف والدرس فقط، . . . بل في الحرب كذلك!

والاديب المسلم عندما يكتب في أي منحى أدبي أو فكري أو تاريخي أو ديني . . فإنـه ينبغي أن يتمثل أدب الإسلام . . وروح الإسلام، وخلق الإسلام، وأنه مراقب ومحاسب على كل صغيرة وكبيرة . . . فهو أديب وكاتب ملتزم بالضرورة، وقضية الالتزام في الأدب الإسلامي ـ وقد أشرنا إليها آنفا ـ لم أقرأها فيما وصل إلـيَّ من الكتب والمجـلات المتخصصـة إلا ما كتبـه الـدكتور نجيب الكيلاني بعنـوان «بـين الحـرية والالتـزام» في كتـابه «الإسلامية والمذاهب الأدبية» ص ٢٨ـ٣٣، والدكتور عماد الدين خليل بعنوان «شيء عن الالتزام في شعر جلال الدين الرومي» في كتابه «محاولات جديدة في النقد الإسلامي» ص ١٠١ـ١٨٠ .

ويضرب الأستـاذ عادل صلاحي مثـلا في الأدب الإسـلامي فيقـول: (إن المرحوم مصطفى صادق الرافعي يعتبر أحد أعمدة الأدب الإسلامي، في العصر الحديث، بل هو من رواد الدعوة إلى الإسـلام ـ وهو أحق من طه حسين في أن يكون عميدا للأدب العربي ـ ولعل الرافعي لم يكتب كلمة واحدة يمكن أن نستثنيها من كونها أدبا إسلاميا، ومع ذلك فان الرافعي كتب في موضوعات كثيرة لا يمكن أن نقول عنها إنها موضوعات دينية)!

وفي مؤلفات الرافعي كتب وأشعار لا تتحدث إلا عن المجال العـاطفي، ظل في أحـاديثـه هذه كلهـا بعيدا عن الابتـذال والاسفاف، ملتزما حدود الإسلام . . حتى انه يصور عاطفته ببيته الجميل:

قلبي يحب وإنما   أخلاقه فيه ودينه

ومن ثم فإن مؤلفات الرافعي كلها من الأدب الإسلامي، ولا

يمكن أن نُصنِّف كتبه في صنفين نعتبر أحدهما أدبا اسلاميا مثل «تحت راية القرآن» و «وحي القلم»، ونعتبر الثاني أدبا دنيويا ونضع فيه مثلا «رسائل الأحزان» و «أوراق الورد» و «السحاب الأحمر» بل كل ذلك أدب إسلامي لأنه صادر عن أحاسيس أديب مسلم ملتزم . . (مجلة المجلة، العدد **١٧٣**، حزيران، **١٩٨٣**م ، بتصرف).



لقد أصبح للأدب الإسلامي مفهوم جديد بعد ظهور الإسلام وسطوع شمسه على جزيرة العرب . . إذ صار ينطلق لخدمة الرسالة ونشر الدعوة، وإلا فان الإسلام يطرد من جمهوريته كل أديب فاحش غير ملتزم بالإسلام وأدب الإسلام!

والكتاب المسلمون مغمورون، وهم معدودون على الأصابع، والمجلات الإسلامية معدودة كذلك، وعلى جهودها المباركة إلا أن زاوية الأدب الإسلامي في هذه المجلات فقيرة قياسا إلى زواياها الأخرى الرحبة العريضة. . . وتقف مجلة الأمة ـ على حداثة عهدها ـ في طليعة المجلات الاسلامية، وتليها مجلة الوعي الإسلامي، ومنار الاسلام، والفكر الاسلامي، وهدي الاسلام، والمجتمع، ومجلة حضارة الاسلام ـ وعلى ما يبدو أنها متوقفة ـ ومجلة الأزهر، ومنبر الاسلام، ومجلة الرائد، وهناك مقالات اسلامية لطيفة تنشرها مجلة «العربي». . خاصة ما يكتبه الأستاذ فهمي هويدي وقضايا مناقشته. وكذا الأمر في مجلة الدوحة، والمجلة العربية، والفيصل، وعالم الفكر. . الخ، كما أن جريدة الشهاب اللبنانية، ومجلة الدعوة المصرية . . من الصحف والمجلات الجيدة . .

الكتاب وجه الأمة الحضاري ومستودع فكرها وتراثها ونتاجها وأدبها، . . ومن هنا فإن الكتاب الإسلامي مهم جدا في نشر الإسلام، سيما وأن الكتاب الجيد يفرض ذاته على الساحة العربية والإسلامية وربما الساحة العالمية. . . إذا وجد التوزيع المخلص لوجه الله لا من اجل مطمع دنيوي مادي زائل!

وكذا الكاتب المسلم مهم، ولا كتاب بدون كاتب، فالكتاب له جمهور عريض ـ أو هكذا ينبغي أن يكون ـ ولكن في خضم هذه القضية الإعلامية الهامة، في خضم أمواج التيارات الوافدة إلى عالمنا العربي والإسلامي، . . في خضم الغزوات الفكرية المتتابعة، في خضم الهجمات المسعورة من قبل أعداء الإسلام. . . أقول: لماذا نرى ارتفاع أسعار الكتاب الإسلامي. . هذا الكتاب الغالي دون غيره!؟

انظر مقالنا (الكتاب الإسلامي لم هو غال وغال) في مجلة الشريعة، عمان، العدد ٢١٨، محرم ١٤٠٤ هـ).

والأدب الإسلامي ـ في شعره ونثره ومسرحه ودراساته وأبحاثه وقنواته المختلفة ـ له دور بارز في نشر الدعوة وابرازها جلية ناصعة ساطعة، وهو بحاجة إلى الرجال، رجال الدعوة والفكر، رجال الإسلام. حماة العقيدة. . . كيف لا ولنا هذا التراث العلمي والأدبي والفكري وهذه الحضارة الخالدة. . . كيف لا ونحن خير أمة اخرجت للناس، . . كيف لا ونحن قادة هذا العالم ورسل سلامه، ولكنه سلام القوة لا سلام الضعف، سلام السيد لا سلام العبد، . . إنه سلام الإسلام!!

وإن كنت في إعداد هذه المقالات والمطارحات في الأدب

الإسـلامي قد حفـزت بعض الأقـلام المخلصـة للكتابة وتشمير السواعد، فهذا جُلّ ما أريد، وإن كنت قد وضعت لبنة في بناء هذا الأدب الشامخ فهذا مغنم كبير، وما هذا الكتاب إلا خطوة في سبيل دراسة الأدب الإسلامي، ارجو أن تتبعها خطوات وخطوات.

أحمد الله أولا وآخرا ومن الله الهداية وبه التوفيق.

أسامه يوسف شهاب
عمان ـ الجامعة الأردنية

في ٥/ ١٠/ ١٩٨٤

«في ظلال أدب القرآن»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ *

[سورة فصلت ١ ـ ٨]

في ظلال أدب القرآن

يستطيع الباحث المسلم، والأديب المسلم، والمؤرخ المسلم. . اقول يستطيع هؤلاء قراءة غزوة بدر وأحد والأحزاب: ويستطيع هؤلاء - كذلـك - قراءة فتـح مكـة، وغـزوة بني النضـير، وبني قنيقـاع، . . في كتب المغـازي والسـير والفتـوح التي تركهـا لنـا الأولـون، . . . وكـذا الأمـر نستطيع قراءة حياة رسول الله عليه السلام وهجرته، وأحداث الإسلام الكبرى في صدر الإسلام في مثل هذه المؤلفات، . . وكتب الصحاح معروفة متيسرة!

ولكنني وجـدت - بحق - أن القـرآن الكريـم هو أوفى واكمل وأصدق مدوِّن وصلنا، بل هو أقواها أثرا في النفس والفؤاد، مع أن الموقعة هي الموقعة، والأحداث هي الأحداث!!

وقـد كان القـرآن الكريم كتابا إعلاميا فريدا، أغنى الرسول الكريم عن كل وسائل الإعلام والاتصال القديمة والحديثة، وظهر أثر القرآن في العالمين جميعا، وظهر أثره كذلك في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا التكرار الإعلامي الفريد الذي نألفه في القـرآن والحـديث النبـوي. . . في التسبيح، والـدعـاء، والصلوات، وقراءة القرآن، وأحاديث رسول الله، وقد كان عليه السلام يستخدمه: حيث يكرر الكلام ثلاثا لكي يفهم المخاطب، بل كان يتحدث ببطء شديد حتى كأنه ينطق الكلمة حرفا بحرف،

كما كان إذا سلم يسلم ثلاثا بل نلمح تكرار القصص والعبارات التي ينطوي عليها، وتفصيلات متباينة في طولها وعددها هو من قبيل التدعيم أو التعزيز أو التثبيت. وأشار إلى هذه النظرية الإعلامية في علم النفس التعليمي الدكتور زيدان عبدالباقي في كتابه «وسائل وأساليب الاتصال في المجالات الاجتماعية والتربوية والادارية والاعلامية» حيث لم يتوصل إلى معرفة هذه النظرية إلا حديثا!!

والتكرار التعليمي يرسخ في النفس البشرية المعنى المراد والقيم والمبادىء والاتجاهات والاوامر والنواهي التي ارادها الله لعباده.. وقد تعرضنا لهذا التكرار التعليمي المؤثر في باب «الأذان» من دراستنا الإعلامية المشار إليها.

إن القرآن الكريم رسالة اعلامية متكاملة بجوار كونه رسالة دينية وأدبية متميزة سامية، ويخطىء كل من يعتقد أن القرآن الكريم هو كتاب فلكي أو طبي أو تاريخي أو كيميائي.. الخ، وهو كذلك ليس بكتاب فلسفي، ولا فلسفة في الإسلام - حسب ما نرى - وما طروحات بعض المناطقة في فلسفة الإسلام إلا من سبيل التعسف والحشر!

فهو كتاب الله وكلام الله إلى الناس في كل زمان ومكان، وهو كتاب العامة والخاصة، الفقير والغني، المثقف والأمي، وهو من لدن عزيز حكيم، كتاب سهل يسير واضح، وعبادة الله عبادة بسيطة واضحة لا غموض فيها ولا لبس ولا صكوك غفران!

وقد استعمل القرآن الكريم أساليب إعلامية متعددة وانطلق لهداية الناس من الظلمات إلى النور، وتتجلى عظمة الخالق في قوله

الـرحيم: ﴿ومـا كنـا معـذبين حتى نبعث رسولا﴾، فضلا عن استعماله لأسلوب القصص، فذكر قصص الأمم السابقة لتكون عظة وعبرة وتثبيتا للنبي والمؤمنين، . . وذلك في اطار قصص الانبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ ويمضي القرآن الكريم في سرده مستوعبا مختلف الانشطة الانسانية وذكر القيم الاجتماعية الايجابية والسلبية بأسلوب مقارنة رفيع، بل إن الحوار القرآني المؤدب يعتبر من أرقى أساليب الحوار وذلك باعتراف علماء الغرب قبل علماء المسلمين! . . .

يقول الأستاذ زيدان عبدالباقي حول موضوع الأساليب القرآنية الاعلامية. . . وإذا كانت افضل الرسائل الاعلامية هي ما تنطوي على المشاعر الدينية وتنظيم علاقات ومعاملات الناس، فإن القرآن الكريم يعتبر نموذجا فذا للرسائل الاعلامية حيث ارسلت الينا مع تسخير من يشرحها ويوضحها ويطبقها على نفسه قبل الآخرين، وهـو المعلم الأول للبشرية عليه الصـلاة والسـلام، فقد أكدت الابحـاث والدراسات الاجتماعية والميدانية أن كل تغير اجتماعي يحدث في المجتمـع لا ينسب إلى كل وسـائل الإعلام والاتصال الجمعي وحدها، وانما تتضافر في احداثه عوامل متعددة لعل من ابرزها الاحتكاك والانتشار والتراكم الحضاري وأهم من ذلك كله قائد الأمة أو المعلم، ومن هنا تتأكد لنا أهمية الدور الذي قام به سيد الخلق عليه الصلاة والسلام في تبليغ رسالة الله إلى الناس.

فالإسـلام هو دين الحضـارة والعلم والأدب لا دين التخلف والرجعية، هو دين العمل والكفاح والايجابية، دين التقدم، دين الثـورة والسياسـة، وهـو ـ قطعـا ـ ليس بدين الـزوايا والتكـايا

والـدروشـة، وكـذا المسلم فهـو التقدمي دائما، الطليعي دائما، الثوري دائما!!

ونتفق مع مقـولـة الأستـاذ محمـد المنتصر الـريسوني في بحثه (الإعـلام الإسـلامي منطلقات وأهداف: إن القرآن الكريم هو الإعـلام الأول للدعـوة الإسـلامية بدون أدنى ريب لأنـه يمثل النمـوذج الإعـلامي المعجـز في احتـوائـه الكلمة الفذة بتناسقها الموسيقي العجيب، وفي استقطابه مضامين تؤلف منهجا في الحكم والسياسة والاقتصاد وغيره، على نسق غير مألوف لدى البشر الأمر الذي أدهش المعارضين من أرباب الفصاحة والبلاغة وأهل اللسن والكلمة الشعرية الرنانة المشعة، فاستسلموا بعد أن وقع التحدي إثر التحدي عاجزين منبهرين مندهشين من الاعجاز البياني الفريد).

قال تعالى: ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ [يونس: ٣٨].

هذه الكلمـة القـرآنية طرحت قضـايا استثارت اهتمام الناس واستأثرت باعجابهم وراحت توضح الوجهة الواقعية في الوحي الالهي.

وقد جاء في الاتقان للسيوطي، ج ١ (عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس سورة الانفال، قال: تلك سورة بدر) .(وفي سورة آل عمران اكثر من ستين آية في وصف أحد). ترى الا يؤيد هذا مطارحتنـا الأولى حول عمق وأثـر القـرآن الكـريم في سرد هذه الأحداث والمواقع؟

وكما أوضحنا فإن الاعلام الإسلامي ينطلق من كتاب الله وسنة

رسوله الكريم، ومن خلال النظرية الاعلامية الاسلامية نستطيع توضيح طبيعة الرسالة الاعلامية الخاتمة. . . تلك التي أشرنا إليها في أكثر من موضع. والعقل المسلم إزاء هذا الفهم وهذه النظرية الإعلامية بحاجة إلى اعادة تشكيل ونظم، ومن الكتب الهامة الواعية التي قالت ما قلنا وطرحت ما طرحنا كتاب الدكتور عمادالدين خليل «حول إعادة تشكيل العقل المسلم».

★ ★ ★

يقول أحد الباحثين المعاصرين: إذا تناولنا رسالة الإسلام من خلال نظريات وأدوات الإعلام الحديثة فسوف نخدم نظرية المعرفة الإسلامية، وبذلك نكون قد حققنا إضافة لكل من نظريتي المعرفة والإعلام الإسلاميتين، فكلتاهما في خدمة الأخرى ومتعاونة معها. .

والمكتبة العربية والإسلامية فقيرة في هذين الحقلين. . . الحقل المعرفي والحقل الإعلامي ـ ناهيك عن فقرها في مجالات أخرى ـ وعلى كثرة المؤتمرات الإعلامية الاستعراضية، ـ وقد عرضت ما يهمنا منها في «الأدب الإسلامي» ـ إلا أن المكتبة الإسلامية تفتقر إلى الإعلاميين الإسلاميين، وإلى الكُتّاب المتخصصين في قنوات الإعلام المختلفة، ويبقى السؤال كبيرا. . . من يتولى اجهزة الإعلام في العالم العربي والإسلامي؟ وهل ينطلق الإعلام من ايدلوجية محددة واضحة مشرقة؟. . أسئلة رحبة، والاجابة عليها أكثر رحابة!!

★ ★ ★

لقد نهض علماء الإسلام ومفكروه منافحين عن كتاب الله

واعجازه، وفي مقدمة هؤلاء علماء الاعتزال، ومنهم رئيسهم ابو اسحق ابراهيم النظام، وأبوعثمان، عمرو بن بحر الجاحظ الذي ألف في ذلك كتابه (نظم القرآن) الذي يقول فيه الخياط: (لايعرف المتكلمون احدا منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة بلغ في ذلك ما بلغه الجاحظ، ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته غير كتاب الجاحظ، . . وله في الاعجاز آراء متناثرة بين ثنايا البيان والتبيين، وفي الحيوان، وله رسالة بعنوان (حجج النبوة) - نشرها السندوبي ضمن مجموعة (رسائل الجاحظ) وتحدث في هذه الرسالة عن الاعجاز، ولم يقتصر بحث الاعجاز على المعتزلة فقط، فقد تعاوره العلماء المسلمون بالبحث، وألفوا فيه كتبا كثيرة. ففي القرن الرابع كتب عبدالله بن يزيد الواسطي، كتابا سماه (اعجاز القرآن)، وقد شرحه الجرجاني شرحا كبيرا سماه (المعتضد) - للمزيد انظر: الرافعي / اعجاز القرآن، ص ١٤٤ وما بعدها) -.

وكتب علي بن عيسى الرماني رسالة في الاعجاز سماها (النكت في اعجاز القرآن) وكتب أبوسليمان حمد بن محمد الخطابي رسالة بعنوان (بيان اعجاز القرآن).

وذهب الأستاذ الدكتور سامي مكي العاني إلى أن بحث الاعجاز وصل إلى ذروته في القرن الخامس حيث كتب أبو محمد بن الطيب الباقلاني إمام المتكلمين ومقدم الاصوليين كتابه (اعجاز القرآن)، وكتب محمد بن يحيى بن سراقة كتابا في الإعجاز لم يصل الينا، ذكره حاجي خليفة، وثمة كتاب في اعجاز القرآن للامام محمد بن الهيصم، وألف في ذلك الشريف المرتضي ولم يصل إلينا

كتابه، وكتب عبدالقاهر الجرجاني الرسالة الشافية في اعجاز القرآن، وتكلم في الاعجاز ابن حزم الاندلسي في كتابه «الفصل في الملل والنحل» وابن سنان الخفاجي في كتابه (سر الفصاحة).

(للمزيد انظر: الدكتور سامي مكي العاني/دراسات في الأدب الإسلامي، ص ٣٧ وما بعدها).

هذا القرآن العظيم الذي له تأثير السحر في نفوس سامعيه، ومجيديه، قال تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ [الزمر: ٢٣].

وكان رسول الله ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وكان يحب أن تستمتع كل حواسه بنشوة القرآن الروحية.

. . عن ابن مسعود قال: (قال رسول الله ﷺ : اقرأ عليّ، قال ابن مسعود: فافتتحت سورة النساء، فلما بلغت قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ [النساء: ٤١] قال: فرأيت عينيه تذرفان ، فقال: حسبك).

وكان ابوبكر رضى الله عنه لا يملك دموعه إذا قرأ القرآن، وصفت السيدة عائشة أباها فقالت: (كان رجلا رقيقا إذا قرأ القرآن استبكى).

وهكذا كان بقية الصحابة، يؤثر فيهم القرآن، وتهزهم آياته ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾ [الانفال: ٢].

وانبهر بهذا القرآن أئمة الفصاحة والبلاغة واللسن من العرب المشركين (للمزيد انظر المرجع السابق ص ٤٠-٤٦).

وقد سجّل القرآن حيرة هؤلاء وتخبطهم في الأقوال بأسلوب أدبي

رفيع ، قال تعالى : ﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ ، وقالوا : ﴿ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ . وتحداهم القرآن في آيات كثيرة أن يأتوا بمثله ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ [الطور: ٣٤]، ولما عجزوا عن ذلك تحداهم أن يأتوا ببعض منه ﴿أم يقولون افتراه، بل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ [هود: ١٣]، وحين عجزوا عن ذلك أيضا تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله ﴿وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة: ٢٣]، وحين بان عجزهم مع هذا التدرج في التحدي ، وعرف كل فصيح منهم أنه لا قدرة لبشر على مثله اثبت الله عجز الخلق جميعا عن الاتيان بمثله . . فقال : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ ، [الاسراء : ٨٨].

وقد صرف الله العرب عن معارضة القرآن والاتيان بمثله قبل التحدي مع قدرتهم على ذلك، والصرفة من وجوه اعجاز القرآن الهامة اضافة إلى اخباره بالغيب، وحديثه عن الماضي بالأنباء الصادقة وخلوه من التناقض واعجاز القرآن في نظمه وأسلوبه وبلاغته (انظر: ص ٥٤ـ٥٦ من المرجع السابق)، وانظر: سيد قطب في كتابيه «التصوير الفني في القرآن» و «مشاهد القيامة في القرآن» .

وللأستاذ محمد خلف الله وجهة أخرى حول أدب القرآن ذكرها في كتابه «دراسات في الأدب الإسلامي» . . حيث أفصح القول في التفاوت الهائل بين سور الجهاد وشعر الشعراء المعاصرين للرسول

صلى الله عليه وسلم في موضوع القتال، وأثر هذا اللون من الأدب في حياة الناشئين. والتمهيد للجهاد في السور المكية، والدعوة إلى الله بالحكمة، وقصص الانبياء السابقين... ص ١٣-٢٧.

كما يمكن للباحث في الأدب الإسلامي تحليل أدب أبي بكر وعمر في خطبهما، وأقوالهما، ومواقفهما النقدية والأدبية من الشعر والنثر، وقد انطلقا من الإسلام وهدي رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ويمكن للباحث كذلك دراسة خطب زياد بن أبيه، والحجاج وغيرهما وذلك في معرض دراسته لأدب الخطابة في الإسلام.

وهناك دراسات مستفيضة لأدب الزهد والتصوف الإسلاميين، وتاريخ أدب الفكاهة في الإسلام،... ناهيك عن أدب النقاد المسلمين الأوائل ومواقفهم النقدية المتقدمة التي اعتمدها النقاد الاوروبيون في القرن العشرين!!

وقد اوجز الأستاذ محمد خلف الله القول في بعض هذه الموضوعات حيث عرض كذلك للقاضي الجرجاني وتحليل الملكة الشعرية، وعبدالقاهر وسيكولوجية التأثير الأدبي، وكتاب «الأذكياء» لابن الجوزي، و «أنباء نجباء الأبناء» لابن ظفر الصقلي، و «ذكاء العرب» للألوسي.

.. وهذه بعض المسارب التي يمكن للدارسين والباحثين الإسلاميين السلوك بها بأناة وتفكير دقيق ومنهج نقدي واضح، وتصوير فني جلاه لنا القرآن الكريم، ووثقه أدب رسول الله ﷺ.

يقول الأستاذ محمد خلف الله: من الميسور والمرغوب فيه أن تجعل نصوص القرآن في هذا الموضوع محور دراسة أدبية وتاريخية

معـاً، وأن يضـاف إليهـا توجيه الناشئة إلى قراءة الكتب العربية الحـديثة التي تناولت سيرة الرسول وخلفائه وأصحابه ، ودرست نواحي العظمة والعبقرية فيهم.

وبعد، فإن القرآن وثيقة أدبية وافية لموقف الإسلام من سياسة القـوة في سبيل الـدعوة، ولما نال الرسول والمسلمين من نصر أو هزيمة في القتال في سبيل الله، ثم ما كان لله معه ومعهم من رضا وتثبيت، أو لوم وتأديب. وقد جاءت الصور التي رسمتها السور المكية في هذه النـاحية تمهيداً تاريخياً وأدبياً للملاحـم التي رسمتها السور المدنية.

فالرسول يبدو في الأولى داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنـة، مجادلاً بالتي هي أحسن [النحـل]، آخذاً العفو، آمراً بالعرف، معرضاً عن الجاهلين [الأعراف]؛ يحاول الكافرون أن يصدوه عن المضي في دعوته أو يحولوه عن شرعته، أو يصلوا وإياه إلى نوع من المصالحة، فيؤمر أن يجيب: ﴿لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبـد، لكم دينكم ولي دين﴾ [الكـافرون]. وتستمر قريش في عمايتها وكفرها، فيحزن الرسول ويرثي لقومه فيجيئه الأمر الإلهي: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون . . . إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور، إن أنت إلا نذير﴾ [فاطر].

ويجهـد الرسول نفسه في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا غيّاً؛ فيعزيه مولاه بقوله ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبـين. فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون، أو نرينك

الـذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون. فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم﴾ [الزخرف].

قلنا في موقع سابق: إننا نستطيع قراءة تاريخ الإسلام الأول من كتاب الله، وكل آية كريمة لها موقع خاص وصدى لمناسبة معينة. وهي تجمع بين العفو والعافية والطمأنينة وبين التحذير الشديد، ووعيد الله سبحانه؛ فالآيات الكريمة تجمع بين الترغيب والترهيب، إن الله غفور رحيم.. كما ان الله شديد العقاب.. وهي تبرز خلق الرسول الكريم وصحابته رضوان الله عليهم، وإن أحدق الخطر ودقت الساعة فإنها لا شك تكشف زيف المنافقين وخداعهم، ووضع المسلمين الأمثل في المرحلة القادمة!

ونضرب لذلك مثلاً من كتاب الله كنموذج تطبيقي لهذا الذي قلناه.

قال تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾. ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾... ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم﴾... ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾... ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾... ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾. ﴿قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾.

... أرأيت كيف تجيء العبارة أسلوباً ولفظاً وموسيقى وجرساً على قدر الموقف ووفق مقتضياته، أرأيت إلى العزاء المطمئن للنفوس المثير لروح العزة في قوله سبحانه ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾، ثم إلى تقرير ناموس الحياة في ﴿إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾.

* * *

وإلى النقد الساخر في قوله عز وجل ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وانتم تنظرون﴾ وإلى تعليم المسلمين كيف ينظرون إلى الرسالة وصاحبها في نظام الوجود الأكبر ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾.

وتعليقاً على هذه الآيات الكريمة يقول الأستاذ محمد خلف الله : (هذا التصوير الأدبي . . تصوير شامل يتناول خفايا النفوس، كما يتناول ظواهر الأمور، ويصف المسلمين ثابتين ومنهزمين، كما يصف المنافقين قاعدين ومعوّقين، يؤنب ويصفح، ويعتب ويؤدب، كل ذلك في صياغة فريدة لا نهاية لنواحي الروعة والجمال فيها، تمتع العقل والحس معاً، وتشبع الذوق أيما اشباع).

هذا هو أدب القرآن. . . أدب الرسالة. . أدب الإسلام، وما أجمل أن نضع بجانب هذا التصوير قصص السيرة وشعرها في مثل هذه الموضوعات لنرى مقدار التفاوت البّين بين أدب القرآن وغيره من فنون الأدب، وإن كتابا يقوم على هذه النواحي، ويحاول مع ذلك ان يتناول بالتحقيق والنقد ما أوردت كتب السيرة من شعر لخليق أن يضيف ناحية طريفة إلى دراسات السيرة وباباً جديداً من أبواب البحث القرآني، تتصل فيه سلسلة الدراسات التي قام بها العلماء في مختلف العصور الإسلامية على أمثال القرآن وأقسامه، وجدله، ومبهماته، وقصصه، وما إلى ذلك من جهاته التي لا ينضب معينها. (للمزيد انظر: المرجع السابق، ص ١٦-٢٦).

إن صلة القرآن الكريم بالأدب العربي جدُّ وطيدة، ولولا هذا القرآن لما حفظ الأدب. . كيف لا وقد ترعرع ونما بين دفتي هذا

الذكر المجيد؟! ويتفق الأستاذ أنور الجندي مع الأستاذ محمد خلف الله في تحليله الآنف، ويبرز دور القرآن بصورة جلية حين يقول، لا ريب أن القرآن هو الأساس الأول للأدب العربي، وهو النموذج المحتذى (أسلوبا ومضمونا) ومن قبل القرآن لم يكن يملك العرب إلا نماذج من الشعر وسجع الكهان والخطب والرسائل تمثل المستوى العام الذي وصلت إليه اللغة العربية والأدب العربي، فلما نزل القرآن أعطى أرقى مستوى من مستويات البيان والمضمون معاً. وقد شهد بلغاء العرب الذين عاشوا قبل الإسلام، وحضروا بعد ذلك نزول القرآن، شهدوا مدى الاضافة الضخمة والخطيرة التي أضافها القرآن إلى البيان العربي واللغة والأدب وسائر اطارات الفكر من اجتماعية وسياسية واقتصادية وقانونية.

وتأتي هذه الشهادة من خصوم الإسلام أنفسهم، ولكنها لا تستطيع أن تنكر مدى عظمة هذا الأثر الذي أحدثه القرآن في النفس والعقل والوجدان العربي، ومما يروى عن الوليد بن المغيرة قوله: (إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما هو بقول بشر).. وقد ذكرت تفصيلاً عن مقولة الوليد بن المغيرة في غير هذا الموضع.

ومن هنا فإن أعظم نتاج الأدب العربي إنما جاء من خلال تلك الاضافة القرآنية الضخمة وما تبعها من فنون وعلوم وآداب.

وما هذه الموسوعات والمعجمات والمؤلفات ودواوين الشعر، . . . وهذه الترجمات اليونانية والهندية والفارسية، وغيرها وغيرها مما تزخر به المكتبة العربية والإسلامية - من العصر العباسي خاصة - إلا نتاج هذه الحضارة الخالدة، وهذه الرسالة الخالدة، وهذا القرآن الخالد!!

يقول أحد النقاد الفرنسيين في معرض تعريفه للأدب الأصيل المسمى بالفرنسية Classique : إن روائع الأدب الأصيل في أمة هي تلك التي تجلى فيها ـ في فترة من فترات تاريخ أدبها ـ الأصيل من خصائصها، والنقي الصافي من صفاتها، والخالد الباقي من روحها، والرفيع من مزاياها، فلا تزال في تأريخ أدب تلك الأمة منهلاً يرتاده القاصدون ومرتعاً ينتجعه الرواد النابغون.

والقرآن الكريم هو أصدق ما ينطبق عليه هذا القول في تاريخ الأدب العربي. ففي أرض العرب نزل من معارج القدس، وعلى واحد من اوسطهم نسباً، وازكاهم روحاً، وأفصحهم بياناً وانبلهم خلقاً، وبلغتهم فصِّلت آياته، وإياهم خاطب أول ما خاطب: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾.

.. هذا ما طرحه أستاذنا المفكر المرحوم محمد المبارك في مقاله: «عناصر الفكر والفن في الكتاب العربي المبين» وهو مأخوذ من كتابه «دراسة أدبية لنصوص من القرآن».. من سلسلة «منهل الأدب الخالد».

وقد عرفت الأستاذ محمد المبارك أستاذاً زائراً في الجامعة الأردنية، وعرفته على مقعد الدرس، وعرفته في غير محاضرة، وكان رحمه الله واسع الأفق، ذكي الفؤاد، مجتهداً، موضوعياً، مجدداً، متواضعاً.. وهذه صفات العالم المسلم، العالم الحق، العالم التقي الورع.. وكان هو كذلك.

عرض أستاذنا إلى تلازم الحقيقة والجمال في القرآن،.. والتقاء الفكر والفن فيه،.. والطبيعة والكون وجماليات هذا الكون وتعابير القرآن المعجزة إزاء هذا الفهم، والانسان والانسانية، وهو غاية

الاعجـاز والخلق، كما أشـار إلى الصـور الاجتماعية التي عرضها القرآن، وقد وردت في معرض الاعتبار والعظة وبيان عواقب الظلم والفساد، والاسترسال في الترف والنعيم.

★★★

أما وقد طفت في ظلال أدب القرآن ضمن هذا التوجه النظري وهـذه المعـارف الجديدة في الأدب الإسلامي، . . . فقد ارتأيت تناول نماذج تطبيقية لهذه النظرية المعرفية في الأدب الإسلامي، . . وكان كتاب الأستاذ محمد المبارك «دراسة أدبية لنصوص من القرآن» إجابة على هذا الطرح!

إن البحث في القرآن يمكن أن يتناول الناحية الفكرية فيدرس ما أثار القرآن من موضوعات ومسائل، وما بث من عقائد واختلط من خطط، ويمكن أن يجمع من ذلك ما تفرق في سورة مختلف المنـاسبات والحوادث وتصنف بحسب أنواعها وأصنافها، فيخرج الباحث من ذلك بفكرة عامة عن نظرة القرآن واتجاهه في كل ميدان من ميادين الحياة.

ويمكن أن ينظر إلى القرآن من ناحية فنه وطرائق تعبيره ـ فقد عرف القـرآن بفن خاص انفـرد به ـ فتدرس الوسائل الفنية التي كانت فيه مظهراً للمعاني والأفكار، والفنون الادبية التي تفرقت في سوره وآياته، وطرائق القرآن في صوغ الكلام وتركيبه، وفي نظمه وتـرتيبـه، ومـا يتكون من ذلك من نغمات موسيقية تتجاوب مع الموضوع، وما يتألف منه القرآن من مفردات لغوية لم تكن فيه على انها وحدات فكرية فحسب بل وحدات فنية أيضاً لها خصائصها الفنية كما ان لها خصائصها الفكرية والمنطقية.

ان كلا من البحثين الفكري والفني، يحتاج إلى أكثر من بحث لجمع أطرافه وتقديمه خالصاً سائغاً للناظرين، ولست لأدعي اني أفعل ذلك في بحث واحد، بل اني أرى سلوك هذه الطريقة نفسها، أي تقسيم البحث إلى فكري وفني، يضيع الكثير من روعة الأثر القرآني. فإن التحليل إلى الأجزاء يضيع دوماً خواص التركيب، (وان إعمال المبضع في الحقيقة الحياة يفقدها الحية نفسها التي هي أخص خواصها، وان كان لا غنى للعلم عن التحليل والتشريح لمعرفة الحقيقة).

وليس القرآن في واقعه التاريخي وعند أهله وأصحابه الذين نزلت آياته بينهم نظريات فيلسوف أو خيال شاعر، (ولكنه كتاب حياة)، فلا ينفصل فيه الفكر عن الفن ولا الفن عن الفكر. لقد فهمه العرب ودخل في وعيهم على أنه كل لا أجزاء، وتأثروا في آن واحد بكفره وفنه مجتمعين غير منفصلين. فالفكر يسجل الحقيقة ويعبر عنها، وقد ينشئها ويدفع إلى تحقيقها؛ والفن يصور الجمال ويعبر عنه وقد ينشىء الجمال ويبدعه. والحقيقة والجمال في الحياة والطبيعة ملتقيان، فالشجرة والنهر والزهرة والشوكة والجبل والسهل والشمس والقمر والنجوم والفراشة كلها حقائق من حقائق الكون ولكل منها جماله.

والقرآن كالطبيعة تلتقي فيه الحقيقة والجمال ويتلازمان، ويقابل ذلك التقاء الفكر والفن المعبرين عن الحقيقة والخيال. وليعذرني القارىء إذا عنيت بدراسة هذا اللقاء أكثر من عنايتي بدراسة الفكر القرآني والفن القرآني منفصلين ومن تفصيل القول فيهما وتقديم دراسة شاملة لكل منهما.

لقد تضمن القرآن دعوة إلى تصور معين للوجود وإلى سلوك طريق يتناسب مع هذا التصور، ولذلك تجلى الفكر القرآني في تصوير حقائق الوجود أولاً كما هي في واقعها وفقاً لنظرته الجديدة ثم في الحقائق التي دعا إلى إيجادها وإنشائها وصورها ليطلب إلى الناس أن ينتقلوا إليها وهي الحقائق الأخلاقية والسلوكية، وهذه نماذج من تلك الحقائق كما عرضها القرآن:

الطبيعة والكون

إن مشاهد الطبيعة في القرآن كثيرة جداً، وهي إذا جمعت وجدت شاملة لجميع أجزائها وأجرامها، وإن الإنسان ليدهش حين ينتقل من أطلال امرىء القيس ورسوم عمرو بن كلثوم ووحوش الصحراء إلى هذه الطبيعة الواسعة الآفاق التي يعرضها القرآن ويصفها. وأكتفي بعرض مشاهد منها، فهذه مثلاً بعض مناظر البحر. ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ [النحل] صورة تعج بالحركة وتفيض بالحياة، فيها الانتفاع والاستثمار ﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾، وفيها اللذة والجمال ﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾، وفيها الحركة التجارية ﴿وترى الفلك مواخر فيه﴾ وفيها الفكرة الخلقية ﴿ولعلكم تشكرون﴾ وفيها الفكرة الإيمانية ﴿وهو الذي سخر البحر﴾.

وهذا مشهد آخر تختلط فيه تقلبات البحر بعواطف البشر: ﴿وهو الذي يسيركم في البر والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك

وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف، وجاءهم الموج من كل مكان، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغـون في الارض بغير الحق، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم. . ﴾ [يونس] ويكـاد يكـون هذا المشهـد قصـة كاملة بعناصرها الأساسية، وخاصة بعقدتها وما فيها من عواطف بشرية.

ثم هذه الصورة الرائعة التي تنقلنا بعيداً عن جزيرة العرب إلى البحـار الشـمالية: ﴿والـذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة. . أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلماتٌ بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها. . ﴾ [النور].

وهذا المشهد الأخير: ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام، إن يشـأ يُسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره، إن في ذلك لآيات لكل صبّارَ شكور. أو يوبقهنّ بما كسبوا، ويعفو عن كثير﴾ [الشورى].

ولننتقـل إلى صفحـة أخـرى من صفحات الطبيعة، إلى عالم النبـات، لنشهـد صورة الحياة في حركتها وانتقالها، وفي مراحلها وأطوارها، وفي جمال ألوانها: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض، ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرّاً ثم يجعله حطاماً، إن في ذلك لذكرى لاولى الألباب﴾ [الزمر].

وهذه الصورة الأخرى المشابهة: ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله﴾ [سورة النور].

★ **الانسان والانسانية :**

ومما تضمّنه القرآن الكريم من حقائق الوجود تلك الحقيقة الكبرى، أعجوبة الاعاجيب وآية الآيات، ألا وهي الانسان.

لقد تضمن القرآن أفكاراً كثيرة عن الانسان، ليس ذلك إنسان مكة أو يثرب، أو انسان الجزيرة القرشي أو الخزرجي، ولكنه الانسان، وذلك هو الإعجاز كل الإعجاز. لقد ذكر القرآن الانسان في أصل خلقته ومراحلها ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾، ﴿وهو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً﴾ [غافر]، وقال مشيراً الى المساواة الاصلية بين البشر ﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾، وذكر القرآن ما حُبب إلى نفوس البشر من الشهوات في هذه الحياة: ﴿زُيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا﴾.

ووصف القرآن الكثير من غرائز الانسان وعواطفه وصفاته النفسية: ﴿ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى﴾، ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾، ﴿ان الانسان خُلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً﴾. ومن أجمع ما وصفت به الحياة الانسانية الفردية والاجتماعية ما جاء في الكتاب المبين في قوله: ﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة

الدنيا إلا متاع الغرور﴾ [الحديد].

والاية كما ترى محكمة الفكرة دقيقة، تذكر دوافع الحياة الفردية في التمتع بالحياة ودوافع الحياة الاجتماعية في التفاخر والتكاثر في الأموال والنفوس. وهل تخرج المجتمعات حتى اليوم عن هذه الدوافع الاقتصادية والعددية؟ وقد أعقبت الفكرة بصورة ترمز الى النهاية المفزعة للبداية الجميلة مع مقارنة بين الحياتين الفانية والخالدة.

والمتتبع للكتاب العربي المبين يستطيع ان يخرج بصورة شاملة للانسان ونفسيته.

أما الصور الاجتماعية التي عرضها القرآن فكثيرة وقد أوردها في معرض الاعتبار والعظة وبيان عواقب الظلم والفساد والاسترسال في الترف والنعيم، وذلك كهذا القول الرائع في تصوير عاقبة المجرمين: ﴿كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين﴾ [الدخان].

وقوله في وصف عاقبة المجتمع الظالم: ﴿فكأيّنْ من قرية أهلكناها وهي ظالمة، فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد. أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج].

وان طريقة القرآن في نقد الحياة الاجتماعية الفاسدة والدعوة الى الحياة الاجتماعية الفاضلة تقوم من الوجهة الفنية على القصص وضرب الأمثال وعلى الجدل والمناقشة وعلى عرض نماذج بشرية

يعرضها في معرض السخرية والتهكم والنقد.

إن طريقة القرآن في القصص طريقة خاصة به؛ إنه ينتفي أبرز حوادثهـا وأشدها صلة بالعبرة المقصودة ويغفل التفاصيل الزائدة والجـزئيات التي لا فائدة منها، ويجعل الافكار التي يريد تلقينها متضمنة فيها ثنايا حوار أو جدل أو خطاب أو دعاء؛ لا يغفل الواقع الانساني ولكنه يرتفع منه الى المثل الاعلى.

. . . وبعد هذه الدراسة الأدبية لعناصر الفكر والفن في الكتاب العربي المبين وذلك في نماذج مختارة، . . . لم نستطع الوقوف على كل هذه العناصر الأدبية كما أوضحها الأستاذ محمد المبارك في سلسلة منهل الأدب الخالد، الذي عنيت به دار الفكر في بيروت، . . ذلك أن شمولية هذه العناصر يعني دراسة منفصلة رحبة. . وهذا يخرج عن نطاق هذه المقالات المعرفية، وكان همي قرع أبواب هذا الأدب الإسـلامي الخـالـد دون تريّث . . على أن هذه الأبواب ترحب بضيوفهـا، ولذا فقد حرصت على هدفي من هذا المؤلف من أول تقديمه إلى خاتمته!!

★★★

كما سفت الرمال وغطّت طلل عدة حضارات وأمم. . كما غطّت آدابهـا، يأفل نجم كل أدب لايتسم بالانسانية والفضيلة والخير والواقعية والصدق والانتماء ـ إن صحّت هذه التركيبة ـ فكثيرٌ من الآداب دُرِست وهوت في دروب الزمان، وهوى معها أصحابها ـ بطبيعة الحال ـ إلا أننا في أدب القرآن وأدب الاسلام، . . . أدب الرسالة أمام أدب خالد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكـان التجـاوب الحي بين هذا القرآن العظيم وبين أمة العشب

والكلأ والماء، هذه الأمة الراحلة المرتحلة التي لا تهدأ على حال!

وكما يقول المرحوم محمد المبارك: فإذا أراد العرب أن يعرفوا أنفسهم ويكشفوا عن ذواتهم، وأن يبلغوا غاية امكانياتهم ومنتهى مداهم في الفكر والخلق والروح، حتى يحققوا الشخصية الانسانية المثالية، فطريق ذلك أن يعرفوا القرآن ويفهموه ويتمثلوه، بعد أن حال بينهم وبينه القصور عن فهم لغته وروحه والانحراف أحيانا في هذا الفهم عصورا طويلة.

وأحسب أن تفسير الأستاذ سيد قطب للقرآن الكريم لم يكن تفسيراً بالمعنى الحرفي المراد الذي تواضع عليه علماء التفسير بقدر ما كان دراسة أدبية لهذا الكتاب العربي المبين؛ والذي أردُّ القارىء إليه، وتناول أي جزء منه لترى صدق ما أذهب إليه، وأحسب أن الأستاذ قطب ـ رحمه الله ـ حرص على أن لا يسميه تفسيراً ولكنه في ظلال هذا القرآن العظيم، كما طفت أنا في ظلال أدب القرآن!!

والأديب المسلم يقف في خندق واحد وفي صف واحد مع الدعاة لهذا الدين الحنيف، وهما يمترسان لغاية سامية واحدة!

وللدكتور عماد الدين خليل كتاب رائع قيم هو: «القرآن في عالمه الرحيب»... تناول فيه وظيفة الأدب في المفهوم الإسلامي، وتعريف الأدب والفن عموماً ووظائف الأدب العقائدية والسياسية والاجتماعية والنفسية والتاريخية والمنهجية والتربوية والأخلاقية.. على تشابك ولحمة هذه الوظائف!!

والأديب الأديب هو الذي يحقق أقصى درجات الوفاق بين الجمالية والتأثيرية، أو بين المبنى والمعنى كما يصطلح نقادنا القدماء. والأدب بهذا الشرط الضروري يفترق عن الفلسفة أو العمل

الفكري أو الاكاديمي عموماً في كونه يخاطب كينونة الانسان بما أنه كائن فذ متفرد عقلاً وروحاً وجسداً أو غرائز وأشواقاً ووجداناً، بينما تسعى الفلسفة إلى مخاطبة عقله فقط... وفي كونه يعتمد القيم الجمالية في التواصل مع الآخرين.

إن الأدب بهذا المفهوم فرصة لتقديم خبرات الاسلام، ورؤاه ومواقفه ومعطياته وزرعها في أفئدة الناس وقلوبهم وعقولهم ووجدانهم لكي ما تلبث تزهو بالعطاء وتثمر في نفوسهم حدائق ذات بهجة وفاكهة وأبا،... إن الاديب هو الزارع المتمرس الذي يعرف كيف يشق الأرض لكي تستقبل الماء المنصب من السماء، فتكون الخضرة الواعدة ويكون النخل والرمان والزيتون.

وتمضي جريدة الدستور الاردنية في عرضها لهذا الكتاب فتقول: نحن في عصر الميكانيك... نعم، وبمقدار ما يتطلب منا هذا العصر أن نزيد في فعاليتنا لكي يكون منا مهندس يملك قدرة أكبر على أن يبتكر جهازاً جديدا أو يضيف إلى حقل الانتاج رقماً جديداً.. فإننا في الوقت نفسه في أمس الحاجة لكي يكون لنا أديب يملك قدرة أكبر على أن يقدم عملاً فنياً مبتكراً، أو يضيف إلى مكتبتنا الإسلامية كتاباً جديداً.

إن وظيفة الأدب في المفهوم الإسلامي وظيفة حيوية بالغة الخطورة حتى لتكاد تكون حتمية إذا جاز لنا أن نأخذ بمنطق الحتميات ـ كما يذهب الدكتور عمادالدين خليل ـ فإذا ما تذكرها كيف أن كتاب الله الخالد اعتمد جمال الكلمة وتأثيرية المضمون لهز وجدان الناس وايقاظ عقولهم وتحريك وجدانهم.. كان لنا أن نعرف كم هي خطيرة حاسمة مهمة الأدب في الحياة الإسلامية؛

فالقرآن الكريم هو مدرسة هذا الأدب الذي ندور في ظلاله!

وعن وظيفة الأدب العقائدية يقول الدكتور عمادالدين خليل:
إن الأديب يحمل سلاح الكلمة لكي يقف في صف الدعاة... واحداً من أكثرهم قدرة على الفاعلية والكسب والامتداد... إنه يقوم بتوصيل رؤية الاسلام للكون والحياة.. كما هو الحال بالنسبة للعديد من المبادىء والمذاهب والعقائد التي اعتمدت الأدب والفن عموماً لتحقيق هذا الهدف أو ذاك، وللترويج لهذه المقولة أو تلك، وحملها إلى وجدان الناس وعقولهم وقلوبهم.. فإن العقيدة الاسلامية يمكن ان تعتمد الأدب لتحقيق أكثر من هدف، وتعزيز معطيات هذه العقيدة بأشد الأساليب والطرائق. قدرة على (التأثير) في الانسان المثقف ومنحه القناعات الكافية بأحقية هذا الدين في صياغة الحياة وصدقه المطلق في التعامل مع الكون والعالم والحياة والانسان.

وقد حدد القرآن الكريم أطر هذا التعامل مع الكون والعالم والحياة والانسان. والأديب المسلم وهو يمارس عملية تشكيل الكلمات وصياغتها وهندستها للتعبير عن هذا الجانب أو ذاك في الحياة الاسلامية ولتوصيل هذه الرؤية أو تلك من عقيدة الاسلام للآخرين انما يمارس وظيفة من أخطر وظائف الأدب على الاطلاق.

ويستطرد الأستاذ خليل قائلاً: ولنتذكر كيف أن التواصل لن يتحقق بصيغته الفعَّالة المرجوة إن لم يضم جناحيه على طرفي الابداع: الجمال والتأثير وإلا انزلق صوب الصياغة الشكلية الميتة، أو وقع في مستنقع المباشرة والتقرير وهذا ما يرفضه أدب الاسلام!

هذا إلى أن وظيفة الأدب العقائدية يتوجب أن تعرف كيف

يكـون الالتـزام، مرناً وصارماً في الوقت نفسه، من اجل كسب المعـركـة والمضي بالدعوة إلى آفاق أبعد. . المرونة من اجل تجاوز التلقين والتقرير، والصرامة من اجل الحفاظ على الشخصية الفنية الاسلامية كي لا تتفكك وتتبعثر وتضيع.

مع الملاحظة أن كل وظائف الأدب الاسلامي الأخرى يمكن أن تندرج تحت ظل هذه الوظيفة الكبرى. . . الوظيفة العقائدية، ما دامت انها روافد تتجمع وتتعاطف لكي تصب في نهاية المطاف في بحر العقيدة الواسع العميق.

ولن يكون من المحتوم على الأديب المسلم أن يقصر همومه على عرض القيم والمواقف الاسلامية في معطياته. . . يكفي أن يهدم عقائد الوضاعين ومذاهبهم وتصوراتهم. . يكفي أن يكشف عما تتضمنـــه من كذب وزيف وخـديعـة. . . يكفي أن يحكي عن مردودها على الإنسان ألماً وتعاسة وفكراً وشقاء. . . لكي ما يلبث أن يتضح للناس أن البديل الوحيد، البديل الحق هو الإسلام وحده.

إن القصيدة أو القصة أو المقالة أو الرواية أو المسرحية. . . اذا ما اتيح لها أن تمارس نقداً جمالياً مؤثراً للمعطيات والمذاهب الوضعية التي تسعى لاستعباد الناس للآلهة والأرباب والوضاعين من دون الله، وإذا ما اتيح لهذه الأعمال أن تهدم هدماً جمالياً ومؤثراً، تلك المعطيات، فانها ستكسب المعركة لصالح الاسلام، ولن تكون في نهاية التحليل سوى أعمال إسلامية يمكن توظيفها عقائدياً جنباً إلى جنـب مع تلك الاعـــمال التي ينصب همهـــا على عرض بنـــائي وبـالأسلوب المؤثـر الجميل نفسه، لهذا الجانب أو ذاك في عقيدة

الاسلام المتفردة ورؤيته الفذة للكون والعالم والوجود. (انظر جريدة الدستور الصادرة بتاريخ ٢١/١/١٩٨٣، بتصرف بسيط).

وحول هذا الفهم، ذاك أن لغة الرسالة غير جامدة، أو متحجرة، بل هي تقبل التطور والنماء، وهي لغة مرنة جميلة آسرة وهي لغة ليست عاجزة كما يدّعي المدّعون من عرب العاربة!!

يقول الاستاذ محمد محمد حسين في كتابه (حصوننا مهددة من داخلها): (على أن تقديس لغة القرآن والتزام أصولها وقواعدها وأساليبها لم يكن في يوم من الأيام داعياً إلى تحجّر اللغة، وجمود مذاهب الفن فيها؛ ووقوفها عند حد تعجز معه عن مسايرة الحياة، كما يشنّع به الهدامون ويخدعون به الأغرار وصغار العقول وقصار الهمم، فليس التطور هو المحظور ولكن المحظور هو أن يخرج هذا التطور عن الأساليب المقررة المرسومة، وذلك يشبه تقيد الناس في حياتهم الاجتماعية بقوانين الدين والأخلاق).

★★★

وقد نوقشت في جامعة الأزهر رسالة ماجستير بعنوان: «الدراسات الأدبية حول الاعجاز القرآني قديمًا وحديثاً» وهي مقدمة من السيد صلاح الدين محمد عبدالتواب.

ومن الرسائل الأخرى التي تهمنا في بحثنا هذا رسالة بعنوان «لغة القرآن الكريم» وهي مقدمة من السيد عبدالجليل عبدالرحيم، ورسالة «القصص القرآني» للسيد عبده ابراهيم بلبلول، وهي رسالة دكتوراه.

و «الوحدة الموضوعية في القرآن» للسيد محمد محمود حجازي،

ورسالة الأستاذ محمد خلف الله «الفن القصصي في القرآن الكريم» ورسالة الأستاذ ابراهيم السامرائي «الجموع وأسماء الجموع في القرآن واللغات السامية» / جامعة باريس، ١٩٥٦.

بل إن هناك رسائل مفصلّة في سورة قرآنية واحدة: «الآداب الاجتماعية في سورة النور» للسيد أحمد فؤاد الشتولي، و «موقف القرآن من خصومه كما تصوره سورة التوبة» للسيد عمر أحمد عبدالرحمن.

واطلعت على رسالة لطيفة للكاتبة ابتسام مرهون الصفار بعنوان «أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري». وهناك آلاف الرسائل حول القرآن وأثره في الدراسات النحوية والإعراب.

(للمزيد انظر: الجهود اللغوية خلال القرن الرابع عشر الهجري، إعداد الدكتور عفيف عبدالرحمن، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١).

★ ★ ★

أما الفكر الذي تشكل الأدب العربي في إطاره فهو (القرآن)... أما أداة هذا الفكر فهي (اللغة العربية). وليقوم هذا الفكر على أساس التوحيد الخالص. فقاعدة الإسلام الأزلية هي الاعتقاد بوجود الله الواحد الذي لايتغيّر بتغير الزمان والمكان، فالله سبحانه وتعالى هو خالق الكون، وهو الذي يمسك هذا النظام المترابط في كل لحظة بحيث لو تخلى عنه لتلاشى وانتهى، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، ثم هو عالم الغيب والشهادة.. وهو الذي يقضي على هذا النظام القائم متى شاء، ثم يبعث الناس في العالم الآخر من أجل الحساب والجزاء.

وكما يذهب الأستاذ أنور الجندي: هذا المفهوم هو «أس الأساس» في الفكر الإسلامي، ومن ثم فهو لب الأدب العربي... لا فصل بين الدين والأدب وهو أس أساسه، وإذا خرج الأدب عن هذه القاعدة يصير الأدب غير الأدب، ويخرج الأدب عن رسالته السامية في الرسالة السامية. وأخالني واضحاً في مناكفتي الأستاذ الدكتور محمود السمرة حول فصل الدين عن الأدب،.. وكما زعم في كتابه «القاضي الجرجاني الأديب الناقد»!!
(انظر: الأستاذ أنور الجندي/خصائص الأدب العربي، ص ٢٥ وما بعدها).

ولما كان القرآن هو المصدر الأصيل للفكر الإسلامي فهو المثل الأعلى للأدب العربي، ولا ريب أن تأثير القرآن في الفكر لاينقطع وفي الأدب لا يتوقف لأنه يتناول المنهج الاجتماعي والسياسي والتربوي والقانوني لحياتهم الفردية والاجتماعية... وهناك محاولة لزلزلة النص الإسلامي القائم على القرآن والسنة بالدعوة إلى فصل الأدب عن الفكر واعطاء الأدب حجمًا أكبر من حجمه الطبيعي ونفوذاً أكبر من قيمته الحقيقية، وهو فصل عسير لأنه يرمي إلى تجزئة أمرين تجمعهما وحدة عضوية!!، وهذا الفصل خطير كذلك! وليس القرآن في الحقيقة كتاب دين كما يقولون، ولكنه المصدر الأساسي للفكر الإسلامي والثقافة العربية، وهو يتسم بالشمول والتكامل، وأعظم مناهجه: العقيدة والشريعة والأخلاق، استمداداً من حقيقة أصيلة هي أن الاسلام ليس ديناً عبادياً.. ولكنه دين ومنهج حياة.

وبعد هذه النظرة الواعية الثاقبة التي يطرحها المفكر الإسلامي أنور الجندي يقول: ومرد ذلك الى احتفاظ اللغة العربية بمستوى

بلاغة القرآن استمداداً منه واتصالاً به، ومن هنا تقصد الدعوة إلى مهاجمة الفصاحة العربية والخطابة والشعر العربي عن طريق تحقيق مطمعها في إحياء العاميات والغضّ من الأسلوب البياني وفصل العرب عن لغة القرآن وزلزلة وحدة الفكر الجامع بين المسلمين. . . واللغة العربية بهذا المفهوم ليست لغة أو أنها لغة العرب وحدهم، ولكنها لغة فكر وثقافة ودين لألف مليون من المسلمين ويزيد، ومن هنا فمن العسير مقايستها وفق مفهوم اللغات الغربية، وليس في استطاعة العرب وحدهم التصرف بها أو عزلها عن مستواها القرآني وطابعها الإسلامي.

وعندما هاجم الإمام الشافعي المنهج الأرسطي قال: إنه يستند إلى خصائص اللغة اليونانية وهي مخالفة لخصائص اللغة العربية!. . . ولكنهم يحشرونها ويزجونها في مناهج النقد الغربي، والمدارس الأدبية الحديثة المحدثة!

وكما قال فاروق خورشيد وصاحبه في كتابهما «محمد في الأدب المعاصر»: إن أي تعمق في فهم تراثنا الفكري والروحي هو اتجاه حازم لتحديد ملامح شخصيتنا اليوم. . وكل محاولة لتزوير هذه الحقيقة وطمسها محاولة بعيدة عن الأصالة بعيدة عن الواقع، بعيدة عن النية الخالصة، بعيدة عن الفكرة الانسانية، . . . فمن التفاعل الحقيقي بين أوضاع الحياة الاجتماعية التي نعيشها اليوم، وبين قيمنا المرصودة البانية الخالدة تنشأ الشرارة التي تنطلق بنا نحو الغد.

وأحسب أن الانطلاق من ارضية راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تجعلنا نقاوم كل تيار وافد أو يحاول التسلل إلى هذه الأرض الطيبة!!

الأدب النبوي .. أدب الرسالة

قال تعالى: ﴿وأنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾.
﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾.
﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾.
﴿لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة﴾.
﴿وانزلنا أليك الذكر لتبين للناس ما نزِّل إليهم﴾.
قال عليه السلام: «... فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.
«نضّرالله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فبلغها كما سمعها فرُبَّ مبلغ أوعى من سامع».
- سئلت السيدة عائشة: هل كان رسول الله يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل ببيت أخي بني قيس (طرفه بن العبد) فيجعل آخره أوله، وأوله آخره، فقال له أبو بكر: ليس هكذا فقال النبي عليه السلام: إني والله، ما أنا بشاعر، ولاينبغي لي!

الأدب النبوي .. أدب الرسالة

عقد في الدوحة المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية يوم الخامس من محرم عام ١٤٠٠ هجرية، واشترك في المؤتمر ما يزيد على ٢٥٠ عالما ومفكرا إسلامياً من ٥١ دولة إسلامية في سيرة رسول الله ﷺ . . الرسول القدوة، الرسول الأديب المؤدب صاحب الأدب.

ومن ضمن التوصيات التي نشرتها مجلة الدوحة:

- العمل على انشاء مركز لدراسات السنة والسيرة على مستوى علمي عالمي.
- انشاء موسوعة مفهرسة تجمع الأحاديث الصحيحة.
- كتابة السيرة بأسلوب مبسط يتلاءم مع مختلف الثقافات والأعمار

وكان من أهداف هذا المؤتمر العالمي المتميز:

- ربط الاعلام في الدول الاسلامية بمفهوم الاسلام.
- اظهار مفاهيم التربية الاسلامية وتطبيقها.
- دحض الشبهات والهجوم المعادي للسنة والسيرة النبوية.
- ربط المسلمين بواقعهم وواقع تاريخهم، واعتباره المنبع الأساسي الذي يستمدون منه بناء مستقبلهم.
- ملتقى فكري إسلامي عالمي لتدارس أحوال المسلمين.
- اظهار الوجه الحضاري الحقيقي للدولة المضيفة.
- طرح الإسلام للتطبيق.

والسيرة النبوية هي نمط من حياة ثرية في جانب من جوانب الحياة، والسيرة النبوية ـ كذلك ـ هي النمط الكامل لهذا الثراء في كل جوانب الحياة؛ فهي متابعة بالتقصي والدراسة للتعرف على حياته ﷺ من المهد إلى اللحد، أي من ولادته إلى مبعثه ثم حياته بعد ذلك حين بعث للناس بالدين الحق، ودعوتهم إليه، وما لقي في سبيل الدعوة من معارضة وما جرى في هذا السبيل من أحداث ثم ما كان من ثمرة هذه الدعوة والجهاد في سبيلها. . . . هي إذن ترجمة شخصية لصاحب الدعوة، والجهاد في سبيل هذه الدعوة، وتعد ترجمة لأحداثها وممثلة في جهاد صاحبها في سبيلها، وهي بهذا المفهوم كانت حقلاً للدراسة عبر القرون والاجيال وكانت موضع اهتمام المؤرخين والمحدثين والفقهاء والمفسرين والرواة والقصاصين، ثم صارت علماً متميزاً له خصائصه ودراساته الواسعة التي أثرت المكتبة الإسلامية بتراث ضخم وناهيك بهذه الشوامخ في السيرة النبوية لابن اسحاق وابن هشام، والطبقات الكبرى لابن سعد والمغازي للواقدي، وامتاع الاسماع للمقريزي.

(للمزيد انظر مقال الدكتور حسن عيسى عبدالظاهر، وجه للثقافة الاسلامية المعاصرة، . . مجلة الدوحة، العدد ٤٨، محرم، ١٤٠٠ هـ).

وقبل أن استطرد في محاورة أدب رسول الله ﷺ لا بد وأن نتعرف إلى السنة النبوية المطهرة، . . . ما هي السنة؟

يقول الدكتور حسن عبدالظاهر: هي طريقة رسول الله ﷺ في تبليغ هذا القرآن وبيانه وتعليمه وتطبيقه.

وهي بلغة المحدثين: كل ما أثر عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله

وتقريراته وهيئته وصفاته الخُلقية والخَلْقية وشمائله، وكل ما نسب إلى الرسول قبل الرسالة أو بعدها سواء أثبتت حكمًا شرعياً أم لم تثبت.

وهي بلغة أئمة الأصول: ما نقل عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير مماليس قرآناً بوصف أنه رسول ومقصود به التشريع واقتداء الناس به لاهتدائهم وهدايتهم. فهي لا تنفصل عن القرآن بل تدور في فلكه.

وأثناء اقامتي في القاهرة خُبِّرت أن فضيلة الأستاذ أحمد حسن الباقوري سيصدر كتاباً بعنوان «قطوف من أدب النبوة» / سلسلة كتاب اليوم، وانتظرت هذا الكتاب مدة ليست يسيرة ـ لطبيعة اهتماماتي في مثل هذه الموضوعات ـ ولم يصلني!!

وأثناء بحثي واستقصائي عن كتب تبحث في أدب رسول الله ﷺ وقعت على كتاب للدكتور بكري شيخ أمين بعنوان «أدب الحديث النبوي» وهو من منشورات دار الشروق..، وأحسب أن كليات الشريعة والآداب مقصرة تجاه تدريس القرآن الكريم والحديث النبوي من وجهة أدبية لا شرعية!

وعلى جهد الدكتور بكري شيخ أمين إلا أنه استغرق معظم أجزاء كتابه في توضيح مصطلحات الحديث وتدوين الحديث وأشهر كتبه، ووضع الحديث وأسبابه، وعلوم الحديث وسماعه وتحمله، واقسام الحديث ودرجاته، وأوجز القول في أدب الحديث، ولكن الدكتور أمين وقف وقفة متأنية في تحليله الأدبي لنماذج من حديث رسول الله ﷺ.

وهذا رسول الهدى يقول: «عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ».

ومدلول لفظي الحديث والسنة مترادفان، . . . وذلك إذا تناسينا موردي التسميتين. ولرأينا ان الحديث والسنة شيء واحد، وإلى هذا ذهب الدكتور صبحي الصالح في كتابه «علوم الحديث».

وحتى لا يجر الحديث في ذيله سأورد مجموعة مختارة من تحليل الدكتور بكري شيخ أمين لأحاديث رسول الله صلوات الله عليه وسلامه، هذا النبي الأمي الأمين الذي لم يتعلم القراءة والكتابة وهو القائل لأبي بكر رضى الله عنه: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

وفي سورة الجمعة ورد قوله سبحانه: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.

والحديث النبوي يأتي في المرتبة الثانية بعد بلاغة القرآن وأدب القرآن، وبيان القرآن وفصاحته!! وقد أشار بعض الدارسين إلى تأثر الحديث بالقرآن في الشكل والمضمون، في المنهج والأسلوب، كيف لا ورسول الله لا ينطق عن الهوى. . .﴿وما ينطق عن الهوى إن هوى إلا وحي يوحى﴾.

وقد اخترت هذه التحليلات والصور البلاغية المبينة من أربعة مواقع:

١ـ تعريف المسلم.
٢ ـ شريعة الفطرة.
٣ـ بناء الشخصية.
٤ـ التضامن والتعاون.

تعريف المسلم

قال رسول الله ﷺ:

«المسلم منْ سَلِم المسلمون من لسانه ويده. والمهاجر منْ هَجَرَ ما نهى الله عنه».

(رواه البخاري)

وفي حديث آخر:

«ليس المؤمن بطعَّان ولا لعّان، ولا فاحش، ولا بذيء».

وفي القرآن الكريم، ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثمًا مبيناً﴾.

وفيه أيضا: ﴿ومن يُسلِمْ وجهَهُ إلى الله وهو محسِنٌ فقد استمسكَ بالعُرْوَةِ الوثقى لا انفصامَ لها﴾.

في البلاغة

السلامة من اللسان واليد، كناية عن السلامة من شرورهما، ويصح المعنيان الحقيقي والمجازي في كلمة «اليد». أما اللسان، فلا يراد منه المعنى الحقيقي إطلاقاً. والتعبير بالجارحتين تقريب بالصورة المادية إلى الذهن، ولأنهما مصدر أكبر الأذى، وفي أكثر الأحوال.

المعنى

الحديث الأول والثاني، من جوامع الكلم للرسول ﷺ، فإذا سَلِمَ الإنسان من أذى اللسان وأذى الأيدي، سَلِمَ من الأذى كله، وقد لخص أحد الكتاب «المسيحية والإسلام» بكلمتين. فقال: المسيحية هي المحبة، والإسلام هو السلام، ومنه جاء اسم المسلمين. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخُلوا في السِّلْم كافة﴾. وإذا كان السلام للفرد، والجماعة، والدولة، ثم للعالم كله، هو الهدف الأسمى اليوم؛ فإن الجهاد وسيلة إلى إقرار السلام العادل، وردع الأقوياء الذين يهددون سلام الإنسان والعالم. والجهاد وسيلة لذلك فرض من الفروض. ولا مجال للانخداع بالمسالمة باسم السلام، لأنها استسلام في مصلحة الأقوياء، والعار للضعفاء، وصدق الله العظيم ﴿فلا تَهِنُوا وتَدْعو إلى السِّلْم وأنتم الأعلَوْنَ إن كنتم مؤمنين﴾.

وسلامة الفرد أساس سلامة المجتمع؛ وسلامة السلوك أهم جوانب السلامة في الإنسان؛ وطهارة اللسان الواردة في الحديث هي عنوان طهارة القلب، والطريقُ الصحيح إلى طهارة السلوك.

وعلى هذا، فليس المسلم هو الذي يحمل السلاح في وجه من يخالفه في عقيدته وإيمانه؛ والله يقول: ﴿لا إكراهَ في الدِّينِ قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيّ﴾.

وليس المسلم من يقتصر على كلمة الشهادة بأن الله حق، ورسله حق، وكتبه حق، إذا كان لا يتمثل هذا الحق بالفعل والسلوك.

وليس المسلم، من تتضارب أقواله مع أفعاله، أولئك الذين

يعلم الله ما في قلوبهم، فأعرض عنهم.

وليس بمسلم، من يستهتر بكرامات الناس، ويشهر بأعراضهم، ويمسُّ حرماتهم، وينالهم في غيابهم، إذْ لو كان صادقاً، لصارحهم سراً، فلعل لهم عذراً.

ومن المعتاد، أن من يولع بالأقوال يهجر الأعمال، ويعيش عالة على الناس، فيعطل طاقاته الانسانية، ويلقي بأعبائه، على غيره دون ضرورة، ويجهل أن العمل عبادة؛ وليس العابد هو الذي يدخل المسجد، ويستقبل المحراب؛ فقد وُصِفَ لرسول الله ﷺ عابد من العُبّاد، وأثنى الناس عليه في حسن عبادته. فقال لهم منْ يعولهُ؟ قالوا: كلنا يعوله. فقال لهم الرسول: كلكم أعبد منه.

إنما المسلم، من سخّر لسانه، في النصح لله، والتحذير من مزالق السوء، وفي إصلاح المتخاصمين، وفي التعليم والإرشاد، والصدع بكلمة الحق في الصحف، وفي تأليف الكتب، وفي منابر المساجد، وفي مختلف الأندية، والحفلات، والمناسبات، ووسائل الإذاعة لكلمة الحق مهما كلفت صاحبها من ثمن. وأفضل الجهاد كلمة حق تقال عند سلطان جائر. ومن لم يعوّد نفسه على كلمة الحق لا ينتظر أن يصل إلى أي حق. والأمة التي تتخاذل يتخطاها الظالمون، ولا يحسبون لكرامتها، ولا لمصيرها حساباً. ولن تقول لك الأقدار: «نعم» حتى تقول للظالمين: «كلا». وكذلك المسلم، يسخر يده للعطاء، لكل خير، وللضرب على يد المعتدي، ونصرة المظلوم، ولا يتيسر هذا إلا لمن يسخِّر قلبه، وسائر جوارحه لهدى الله، مؤتمراً بما أمر، ومنتهياً عما نهى.

أما الآية الكريمة، فإنها تشير إلى معنى السلم أيضا، فهو من

يُسلِمُ وجهه إلى الله ويبتغي بعمله مرضاة الله في لسانه ويده، وكل تصرفه.

ولفظ «المسلمون» لبيان المثل، لا للاحتراز من غير المسلمين، كما تقول لاخيك توصيه بحسن معاملته صديقه، أو جاره، أو عائلته، ولا تريد من هذا إساءة المعاملة للآخرين، إذ أقرب الناس اليك، أولى بنصحك وإنذارك.

وعلى ذكر «المسلمين» يقول مصطفى صادق الرافعي: الأوروبيون، في أمانتهم وحسن معاملاتهم ونظامهم.. يعملون بروح الإسلام. والشرقيون، يقولون كلمة الإسلام.. فمن المسلمون: نحن أم هم؟!

وفي بقية الحديث الأول، تعريف للهجر، فهو تركٌ لما نهى الله عنه. وهو بهذا المعنى يحمل تمام معنى السلام من الأذى، ولو لم يكن باليد، ولا باللسان، وبأية وسيلة أخرى، فيهجر المؤمن الفسق ومجالسه، وأشخاصه، ورواده، والذين يحومون من حوله، ويهجر سائر أعداء الله. يحب من يحبهم الله ورسوله، ويعادي من يعادي الله ورسوله، فيمتد أثر هذا الخير ليترك الإنسان كل سوء ويفتح صدره لكل خير، ويصبح وميضاً من النور، لا ظلمة فيه، ولا ضرر من ورائه.

وختاماً، فإن تسليط الأيدي والألسنة بالسوء من شأن الذين لا يؤمنون، فلا يردعهم إيمان بالله، ولا خوف من الحساب في اليوم الآخر.

وصدق الله العظيم: ﴿إنْ يثقفُوكُمْ يكونوا لكم أعداءً، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوءِ ووَدُّوا لو تكفُرون﴾.

شريعة الفِطْرة

عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ:

«كلُّ مولود يولدُ على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يُمجِّسانه».

ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم قول الله تعالى: ﴿فطرةَ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ الله ذلكَ الدينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعلمون﴾.

(رواه البخاري)

في اللغة والبلاغة:

فطر، يفطرُ بمعنى خلق: فعل متعد، وفطرَ ناب البعير: ظهر، فعل لازم. والفطرة، هي البدن. ولكن يراد هنا المعنى المجازيّ، وهو السلامة من الانحرافات كما هو الأصل العام في التكوين الإنساني، ويمكن إرادة المعنى الحقيقي والمجازي معاً، على قول بعضهم، وفي باقي الحديث: كناية عن تأثير الوسط الاجتماعي من المرحلة العائلية، إلى سائر المراحل الأخرى، ولكن الأهم هو المرحلة التأسيسية الأولى متمثلة في العائلة أو الأبوين.

التحليل:

هذه النظرية، من النظريات الأم، في الشريعة الإسلامية. وهي مصدر من مصادر التكليف المعقول، الذي لا يتصدى لنقض

الغرائز ولا لإرهاقها، ولا لتعطيل أي من قوى الإنسان، المادية، والفكرية، والروحية، والاجتماعية، فهي ليست فطرة الجسد وحده، ولا الروح وحدها. ولا العقل وحده..

والإنسان قابل للخير على هذه النظرية، وهو من مظاهر فطرته، ولكن المجتمع هو الذي يحيط المولود بمجموعة من التراث، والتقاليد، من عائلته، إلى مدرسته، إلى عمله في مجتمعه، وعصره الذي يعيش فيه، وبلده الذي جاء في حدوده، وعليه أن يمحص ويختار، ويسلك، والدولة هي المسؤولة عن حسن توجيه هذا المواطن في ظل نظام صالح له، يشجع ما في فطرته من كنوز وذخائر، ولا يسعى لكبتها أو حرمانه من خيراتها، وبالتالي حرمان مجتمعه ودولته. والعائلة قد تشذ في السلوك، وقد توجه الأطفال الى سوء، أو تمنعهم من الخير، أو العلم، فالدولة هي صمام الأمان، وهي مفتاح التوجيه المراقب، نحو الأفضل، وكذلك عندما ينزع الشباب إلى الميوعة والانحلال لحساب الإفراط في نوازع المادة والجسد، على أنقاض مطالب الفكر والقيم الروحية، والخلقية (وهي أهم ما في الفطرة) فإن الدولة وأنظمتها مكلفة بتصحيح الاتجاه، وإلا دفعت الثمن غالياً في أخطر الظروف، وأحرج المناسبات..

وقد جاء رهط ثلاثة إلى بيت رسول الله ﷺ، فسألوا عن عبادة الرسول وكأنهم تقالّوها . فقالوا: أما رسول الله فقد غفر له.. وقد التزموا نوعاً مفرطاً من الزهد والعبادة، أحدهم تعهد بالصلاة كل ليلة لا ينام. والثاني تعهد بالصيام الدهر كله لا يفطر أبداً. والثالث أعلن الرهبانية وعدم الزواج. فقال ﷺ يقضي بينهم يردهم

إلى الفطرة ويمنعهم من إرهاق أنفسهم:

«أما أنا فأصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وقد ورد في الحديث: إنَّ لنفسك عليك حقا، وإنَّ لأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه.

ولكل إنسان قدرته وحدوده في فطرته.. وعلى كلّ تكاليفه في هذه الحدود التي تختلف باختلاف الناس. والآية: ﴿لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم﴾... تعني لا قدرة للبشر على هذا التجاهل لتكوينهم ومحاولة نقضه، أو هدمه، أو تغيير جوهره، أو إهمال مافيه، وخير منه توجيه ما في فطرته من طاقات واستثمارها جميعا، مادية، وروحية، وفكرية، واجتماعية، لمصلحة الفرد، وفي حدود صالح المجتمع.

بِنَاءُ الشَّخْصِيَّة

نختار لهذا الموضوع الأحاديث الأربعة التالية :

١ـ «ليس الشديدُ بالصرعَةِ ، إنما الشديدُ من يملكُ نفسهَ عند الغضب» .

ـ رواه البخاري ومسلم ـ

٢ـ «لا يكنْ أحدكُم إمّعةً، يقول: إنْ أحسنَ الناس أحسنتُ معهم، وإنْ أساءوا أسأتُ معهم» .

ـ رواه الترمذي ـ

٣ـ «المؤمنُ القويُّ ، خيٌر وأحب إلى الله من المؤمن الضعيفِ، وفي كل خيٌر. استعنْ بالله ، واحرصْ على ما ينفعُكَ ولا تعجِزْ، ولا تقلْ لو أني فعلتُ كذا كان كذا ، فإنَّ «لوْ» تفتحُ باب الشيطان» .

ـ رواه مسلم ـ

٤ـ «اليدُ العليا خيٌر من اليد السفلى» .

ـ رواه البخاري ومسلم ـ

في البلاغة واللغة :

الشديد، في هذا الحديث الأول، ورد بالمعنى المجازي الذي وضعه الإسلام في لغته الخاصة، ليوجه النظر إلى أهمية قوة الإرادة في ظل الدعوة الجديدة إلى الإيمان بالمُثل العليا، وكان الشديد هو

القوي في جسمه، والذي يصارع الناس فيصرعهم، كما هو مفهوم أكثر الناس اليوم.

الإمّعة، في الحديث الثاني، كناية عن الإنسان المتلوِّن الذي يفقد شخصيته بتقلبه مع التيار. واللفظ مأخوذ من كلمتي «إنْ - مع» الواردتين في الحديث.

لو، في الحديث الثالث، كناية عن الأماني الفارغة والسلبية.

الشيطان، اسم لروح الشر، أو كناية عن مجمل الشرور ومنبعها، وشبهت الأماني السلبية بالمفتاح للشر، على أسلوب الاستعارة المكنية، وكذلك شبه الشر أو الشيطان، بدار السوء المغلقة، وبابها: هذه الأماني، على نفس أسلوب الاستعارة المكنية أيضاً.

اليد العليا، في الحديث الرابع، كناية عن الإنسان الذي يعطي ولا يأخذ، ويقوى ولا يضعف، ويعز ولا يهون. ويعمل ولا يتعلق بالأماني. . . ، واليد السفلى تحمل المعاني المقابلة.

في فحوى هذه الأحاديث:

يتضح من الأحاديث السالفة الذكر أنها تدور على بناء الشخصية، لا من جانبها الماديّ والجسديّ، بل من جوانبها النفسية، والروحية، والفكرية، وهذا هو الجانب الأهم في نظر الشريعة والرسول.

وقد كان العرب يعتزون بعدد من أسباب القوة الجسمية والرياضية، فجاء الرسول ﷺ وأقرها ودعا إلى كافة أنواع الرياضة المألوفة والممكنة يومئذ؛ من مصارعة، ورمي، وسباحة، وفروسية،

وغيرها. . وكان رسول الله ﷺ يشهد بعض الألعاب للرماية بالنبال فيشجع اللاعبين، ويقول لهم: ارموا فإن أباكم كان رامياً. ودخل رسول الله ﷺ نفسه في حلبة مصارعة، فمرةً غُلِب ، ومرةً غَلَبَ. وهاجر مع صاحبه الصديق من مكة إلى المدينة سيراً على الأقدام والمسافة بينهما نحو (٥٥٠) كيلومتراً، والطقس معروف بشدة حرّه، والطريق معروفة بوعورة مسالكها. . ولم يكن فيها شيء مزفَّت ولا معبّد، ولم يسمع عنه أو عن صاحبه، أو عن صحابته المهاجرين أي تبرُّم، أو تململ من هذا السفر الشاق الطويل. وهو يدل على قوة في الجسم لا تكاد تعرف الحدود.

ولكن الرسول ﷺ يرى في الوقت نفسه، أن هنالك ميداناً لرياضة النفس والإرادة والروح، هو أهم من ميدان الجسد. ومن هنا كان الرسول ﷺ يضع المعايير الجديدة للعرب والمؤمنين به على وجه الخصوص معدلاً مفاهيمهم المادية المعروفة في ذلك الحين، ومن ذلك ما يشير إليه الحديث الأول من أن الشديد الحقيقي، ليس ذلك الذي يعتز بجسده، وإنما الذي يعتز بقدرته على كبح جماح نفسه فيتصرف بها، ويسيطر على انفعالاتها، ولا تتصرف فيه، أو تسيطر عليه.

وفي الحديث الثاني، حذَّر الرسول ﷺ أن يكون الإنسان ضعيف الشخصية، متقلب الأهواء، لا يلتزم مبدأً، ولا يصدر في تصرفاته وسلوكه عن عقيدة، وندَّد بالمتلونين الذين يصفقون لكل قائم، ويتمسّحون بكل قوي، ويجرون وراء مصلحتهم في أي مكان، ومع أي إنسان دون حدود أو قيود.

وفي عهد الرومان، كانت العدالة تتمثل بقوة الجسد، فمن ادعى بحق على مواطن، كلّفه القاضي أن يصارعه، فإذا غلبه قضى

له بدعواه، وإن غُلِب قضى بردِّ ادعائه.

أما في الإسلام، فقد جاء أبو بكر الصديق على إثر خلافته، وفي بيانه الحكومي أول ما تولى الخلافة يقول: القويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، والضعيف فيكم قويٌ عندي حتى آخذ له حقه.

وقد نادى الرسول الضعفاء الذين يتساقطون صرعى على أعتاب المادة: إلى الإيمان بالله، إلى رفع بصائرهم، إلى الأفق الأعلى، إلى الحياة الأسمى، إلى حقائق الروح، لاستكمال ما فاتهم وما هم بأشد الحاجة إليه، ولا يظن أحد أن حرصه المشروع على مطالب دنياه، يحول دون ذلك الطموح، أو أن حرصه على إيمانه بالله ومثله العليا يؤدي إلى عجزه وانهياره أمام مطالب الحياة، وهذا معنى قول الرسول ﷺ في الحديث الثالث: استعن بالله واحرص على ما ينفعك ولا تعجز.

إذا رأيت أناساً يتعثرون فاتق المزالق وظل ماضياً في الطريق، لا تلو على شيء، فإذا وقفت انقطعت، وإذا انقطعت وتهاويت، تخطاك الركب، ولم يبق لك إلا الفتات، فلا تيأس فإن اليأس ضعف، واعلم أن لليّلة الحزينة نهايةً مشرقة في يوم قادم سعيد. ولا أقتل للإنسان من اليأس. وقد جعله الله بريداً إلى الكفر، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. لا تقل لو أني فعلت كذا.. لا تلتفت إلى الماضي إلا بما يقويك على الحاضر، ويدفعك إلى المستقبل. أما قول الرسول ﷺ: «وفي كلٍّ خير» فإنه دفعٌ بالضعيف إلى طلب القوة، نعينه على ما يطلب ولا نخذله ولا نُسْلِمُهُ، أليس من عباد الله وممن خلق الله؟ فما ذنبه إن عاش في وسط ضعيف، وما فضلنا عليه إذا ولدنا في وسط الأقوياء؟.

التضامن والتعاون

قال الرسول ﷺ :

«يد الله مع الجماعة، وإنما يصيب الذئب من الغنم الشاردة» .

- رواه الترمذي -

وقال أيضا :

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمَثَلَ الجسم الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» .

- رواه الشيخان -

وقال تعالى :

﴿وتعاونوا على البِرِّ والتقوى، ولا تعاونُوا على الإثم والعُدوان واتقوا الله﴾ .

في البلاغة :

يد الله : كناية عن قوة الله[1]، كناية بالأثر عن مصدره، ووسيلته المعتادة، وفي الآية الكريمة : والسماء بنيناها بأيدٍ، أي بقوى . . .

مثل المؤمنين . . . كمثل الجسم : تشبيه للمؤمنين المتضامنين على الحق، وقد جمع إيمانهم بين قلوبهم، بتكامل جوارح الجسم . . لا جدوى من أية جارحة إذا فصلت عن الجوارح الأخرى، ولا أمل في أي تضامن قبل رسوخ الإيمان .

(١) ويفسر فريق من المسلمين اليد باليد الحقيقية، ولكن بدون تمثيل أو تجسيم . وكلا المعنيين مقبول .

إنما: تفيد الحصر، أي لا يصيب الذئب من الغنم إلا ما كان شارداً.

وإن الضعفاء إذا تراصّوا، أخافوا وعزوا، والأقوياء إذا تناثروا، هانوا وذلوا.

والمثل: من ملامح البيئة العربية، ومستمد من طبيعة الحياة فيها.

التحليل:

الحياة العربية بالنسبة لحياة المجتمعات الأخرى قبل ظهور الإسلام، كانت بشكل عام، حياة فردية، وقبلية، نظراً لطبيعة المعيشة فيها على الحل والترحال، ورعاية الماشية، وقليل من التجارة مع أطراف الشام، ونظراً لطبيعة الحياة الصحراوية في الجزيرة العربية، ولذلك كثرت بين القبائل العربية المشاحنات، والغزوات لأتفه الأسباب كما في حرب داحس والغبراء من أجل ناقة تافهة.

وتوحد هذه القبائل في دولة واحدة، ونظام واحد، يحول دون هذا التفتت، والضياع، وكذلك اليوم شأننا، ونحن أكثر من دولة، وأكثر من جيش، وأكثر من اتجاه ونظام..

ومن هنا نجد سر اهتمام الرسول بوحدة العرب، وجزيرتهم، بعد بث روح التضامن والتعاون بينهم، من أدنى مستوى، إلى أوسع نطاق.

وقد بدأ الرسول في إزالة الضغائن، وتطهير القلوب، حتى تتهيأ لتفاصيل الشريعة، وفروع الدعوة، فإن الأرض لا يمكن بذرها إذا كانت تتخللها الأعشاب الطفيلية الضارة، وأجمع حديث في هذا البناء للأساس الإنساني الصالح قول الرسول: «اياكم والظن، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا يغتب بعضكم بعضا.

المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يحقره، ولا يخذله، ولا يكذبه، وكونوا عباد الله إخواناً. . كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه، التقوى ها هنا (ويشير إلى قلبه)».

وتجري تطبيقاته العملية في سلوك المؤمنين، إذ يبدأ الرسول في إشادة البناء فيقول: يد الله مع الجماعة، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، ويختلف الأوس والخزرج، فيجمعهما فيزول ما بينهما، وظل يتابع عمليات الصهر بين القبائل، وإزالة الحدود العشائرية من فكرهم وأعمالهم، حتى حانت أسباب الوحدة للجزيرة العربية كلها، وقد فتح الله مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً وقال: لا يجتمع في الجزيرة العربية دينان، وصدق الله العظيم، ﴿وإنَّ هذه أمتكم أمة واحدة﴾.

وشعائر الاركان الإسلامية، توثيق لهذا التضامن والتعاون، فصلاة الجماعة في مكان واحد في اليوم عدة مرات، وصيام رمضان، في زمن واحد، ثم الحج لقاء عالمي، زماناً ومكاناً، وأهدافاً، في جدول عمل شامل. . . كلها تنفيذ عملي لهذا الخلق الاجتماعي، والاهتمام بأمور المجتمع.

ومن نماذج التضامن: مقاسمة الأنصار (سكان المدينة) للمهاجرين (من مكة) في أموالهم، وديارهم، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

ومن نماذج التعاون: حفر المسلمين للخندق حول المدينة كلها، وكان الرسول واحداً معهم يحفر كما يحفرون.

ومنها أيضا: أن رسول الله كان مع جماعة في سفر فقال أحدهم:

علي ذبح الشاه، وقال الثاني: علي إعدادها، والثالث قال: علي طبخها، فقال الرسول: وعلي جمع الحطب، فقالوا: نكفيك العمل يا رسول الله، فقال: لا، إن الله يكره العبد المتميز على إخوانه...

ومن أهم آثار التضامن الاقتصادي، أن تزول طبقة المحرومين، وكان يفتش في عهد عمر بن عبدالعزيز، فلا يعثر على أي منهم ليسد عوزه، ومن أبرز صور التفكك العربي اليوم، واقع الدول العربية تجاه اسرائيل، انفرد الذئب بها فالتهم منها.. ولا يزال فاغراً، مكشراً، ولو تجمعت هذه الدول لكانت يد الله معها، وكان قادتها أسوداً في ظلها، ويد الله لا تذلُّ ولا تهون أبداً.

وبعد قراءة هذه النماذج المختارة وهذا التحليل الأدبي المُفصّل لا بد وأن نلمَّ ببعض من صفات هذا الرسول العظيم... نبي الهدى والتقى سيد الخلق، ولن افصل القول في البيئة الخاصة والعامة لهذا الرسول الأديب وسيرته العطرة، وذلك كما درج دارسو الأدب حال تحليلهم النصوص ودراستهم الآثار الأدبية.

يقول محمد الغزالي في فقه السيرة: (ولا يعلم أقدار النفوس إلا باريها، والذي يريد هداية العالم اجمع يختار للغاية العظيمة نفساً عظيمة، وقد كان العرب في جاهليتهم يرمقون محمداً ﷺ بالاجلال ويحترمون في سيرته شارات الرجولة الكاملة إلا أنهم لم يتخيلوا قط أن مستقبل الحياة قد ارتبط بمستقبله، وأن الحكمة ستنفجر من ذلك الفم الطهور إلى العالمين جميعاً، الله عز وجل يعلم رسوله، والرسول يتلقى هذه المعارف الحية فيديرها في نفسه حتى يحيلها جزءا من كيانه، ثم يعلمها الناس ويأخذهم بها أخذا).

قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

إن الرسول اوتي من الله علمًا وحكمة وبصيرة فلا يهدي الناس على الظن وهوى النفس، وانما يهديهم إلى ذلك الصراط المستقيم الـذي يراه واضحـاً مشرقاً بنور العلم الذي يتلقاه من الله تبارك وتعـالى. إنها منصب الرسالة ومنزلة الرسول الامتيازية في مقابل عامـة الـزعماء في الدنيا ـ كما يقول أبو الأعلى المودودي ـ والعلم والحكمة صفتان ملازمتان للرسل عليهم السلام.
(للمـزيد انـظر كتابي: وسائل الاتصال الجماهيري في الاسلام، (الوسيلة) ص ٣٤ـ٤٢).

هذا الرجل الحلو الشكل، الحلو الحديث، الحلو النفس، كان يراعي في مجلسه أن يكون حبيباً إلى جلسائه، وفي مسيره أن يكون حبيباً إلى من يلقاه في الطريق، فكان بكل هذا قدوة للرجل المهذب الذي لا يهفو في حق أحد. وكان إلى جوار هذا كله صاحب عزيمة صادقة في الزهد والايمان، وليس أولى بالحب والتبجيل من يطلب خير الناس ويزهد في نعمة العيش وهي بين يديه مبذولة متاحة إلا من وازع من حق يملأ نفسه، ورغبة في الاستزادة لأسباب الايمان، وشحـذاً للعـزيمـة في سبيل ذلك الايمان، وهو المغفور الذنب، المعصـوم عن الخطأ (فاروق خورشيد وصاحبه/ محمد في الأدب المعاصر). ص ٣٠ـ٣١ بتصرف.

محمـد القـائـد، محمـد السياسي، محمـد الانسان، محمد الصـديق، محمـد الـداعي، محمـد الـزوج، محمد الأب، محمد الاداري، محمـد المجاهد، محمد المتعبد، .. كيف لا وهو محمد صاحب الرسالة وسيد الخلق!

أمـا عن صفاته الاساسية يقول الأستاذ سعيد حوى في كتابه

«الرسول» : إنه لابد لكل رسول أن يكون متصفاً بصفات أساسية اربع حتى يكون أهلا للرسالة، وهذه الصفات الأربع هي : الصدق المطلق الذي لا ينقص في كل حال، والالتزام الكامل بما يدعو إليه نيابة عن الله، والتبليغ الكامل المستمر لمضمون الرسالة، وعدم المبالاة وأخيرا العقل الراجح . . وهذه الصفات متوفرة عند رسول الله ﷺ، بل كان المثل الأعلى في كل صفة منها، وذلك بشهادة الخصوم قبل الاتباع، وشهادة الواقع العملي قبل الكلام!

وقد دعا عليه السلام بالحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى : ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

ولم ترسل رسالة الهدى ودين الحق إلى شاعر أو ناثر عظيم من قريش والقبائل المجاورة ـ على فصاحة وبلاغة رسول الله التي تحدثنا عنها ـ فقد تمنى الشاعر أمية بن أبي الصلت أن يفوز بهذا المنصب، حيث تجد في قصائده العفة والطهارة والتحدث عن الله وصفاته وشكره. وإنما أرسلت هذه الرسالة الخاتمة إلى رجل لم يتطلع إليها، ولم يفكر في السيادة والوجاهة، قال سبحانه : ﴿وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾.

إننا في دراسة أدب رسول الله أمام حشد هائل من المفكرين والفلاسفة والأدباء والعلماء ـ كما يذهب أحد الباحثين ـ كما أن من البلاغة بمكان دراسة كل حديث نبوي شريف من وجهة تربوية أو اجتماعية أو علمية!!

إن البلاغة التي تمتع بها عليه السلام تفوق كل وصف وتعجز

كل قلم، إنها بلاغة فطرية غير متكلفة!

لقد كتب غير واحد حول أدب رسول الله وحياته . . . توفيق الحكيم في كتابه «محمد»، عباس العقاد/ عبقرية محمد، طه حسين/ على هامش السيرة، نظمي لوقه/ محمد الرسالة والرسول، وهي كتابات تحمل الغث والطيب بخبث ودهاء، فما رأيك بكاتب يمزج في كتابه بين الاسطورة والحقيقة، بين الخيال المجنح والواقع الطاهر العفيف!!؟

ومن هنا سأعرض للدراسات التاريخية التي تعتبر من اخطر الوسائل لتدمير الأدب العربي وتشويهه!

وكتب الأستاذ الشيخ محمد الغزالي/فقه السيرة، وكتب الأستاذ سعيد حوى/الرسول، كما كتب محمد حسنين هيكل/حياة محمد، ومن هنا فليس كل ما يكتب يقرأ، وإن قرىء فهي قراءة الكشف والرد على ما يطعن في شخص رسول الله وحياته وتشويه هذه السيرة العطرة. . وهذه القراءة بالتالي هي قراءة الفاحص المتأني، قراءة المسلم الذكي الحذر، والمسلم كيّس فطن!

وممن كتب وأحسن في كتابته الأستاذ أحمد العناني حيث نشر بحثاً طويلاً وهو بحث متميز بذل فيه الأستاذ العناني جهداً طيباً يعتبر بحق مقدمة لدراسة أدبية مفُصّلة لأدب رسول الله عليه الصلاة والسلام. (انظر المقال مفصلاً: مجلة حضارة الاسلام، العدد ٨، ٩، ١٠ شوال ذو القعدة ذو الحجة، ١٤٠٠ هـ ص ٨٠ - ١١٦).

تحدّث الاستاذ أحمد العناني فيه عن خصائص الأديب الحق، والتعبير بالكلمة، والمضمون الأدبي بين الشاعر والمتفكر، والعوامل

المؤثرة في مضمون وشكل الأدب النبوي:

العامل الأول: بيئة مكة وقريش، والتربية الأولى في بني سعد حيث قال عليه السلام: «أنا أعربكم (أي أحسنكم عربية)، أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر».

العامل الثاني: التكوين النفسي للرسول عليه السلام.

فمما يروى عن أنس بن مالك خادم رسول الله قال: (خدمت النبي عشر سنين فما قال لي أفٍ قط، ولا قال لشيء صنعته لِمَ صنعته، ولا لشيء تركته لِمَ تركته، وكان لا يظلم أحداً أجره).

.. ونحن نعيش في عصر لايحتمل المسلم المسلم ساعة واحدة!!؟.. وهذا ليس من مجال بحثنا!

العامل الثالث: السفر إلى الشام.

العامل الرابع: الوحي والقرآن.

العامل الخامس: الصدق في العمل.

ولا يعني انفصال هذه العوامل بل هي تتداخل مع بعضها، وما الفصل إلا لغايات الدراسة.

وعرض الأستاذ العناني لخصائص أدعية الرسول الكريم وانسانية الرسول عليه السلام الرائعة في أدعية المناسبات، ومحتوى الادعية النبوية، وأفصح القول في الشكل التعبيري للحديث الشريف بعامة:

- الاسلوب الاخباري - التقريري.

(من الطبيعي ان يكثر استخدام الاسلوب الاخباري في احاديث الرسول ﷺ فان رسالته هي تبليغ الحق والخير والارشاد الى الصالح من القول والعمل. وإذا شق على الناس أسلوب التقرير

المباشر بالامر والنهي فان رسول الله ﷺ لم يكن فيها يلاحظ أغلب الاحيان يستخدم أسلوب الطلب هذا الا فيها يتعلق بأوامر القرآن الكريم ونواهيه . . . والا فان معظم احاديثه العامة تجيء على شكل اخباري وقد يجيء فيها الخبر والطلب متجاورين تجاورا هو قمة البلاغة . كقوله ﷺ مثلا : «المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير» الى هنا ينتهي الجزء الاخباري ثم يتواصل الحديث نفسه باسلوب طلبي «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وان اصابك شيء فلا تقل لو اني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل «قدر الله وما شاء فعل» فان لو تفتح عمل الشيطان» .

ههنا نرى أن الرسول عليه السلام بسط في القسم الاخباري من الحديث تعميقا يقرر قاعدة عامة في الاسلام . وهي ان الله تعالى يرفع شأن المؤمن الضعيف، ويحب المكافحين من المؤمنين فوق حب المستسلمين . وكأنما الرسول ﷺ يقول : حيث ان هذه القاعدة العظيمة الى رضا الله . الحريص على تحصيل ما ينفعك في ظل الشرع الالهي وبمعونة الله تعالى ـ حيث ان الله تعالى لا يعير عونه من كان يحرص حرص الطامع المعتدي ـ واياك حين تصدمك المصاعب . أو تقضي بك الى بعض الخطأ التجارب ، ان تقر بالفشل واليأس، وتسلم نفسك الى مراجعة مجدبة للماضي . تتمنى ان لو لم تكن فعلت كيت أو كذا فان هذا هو المنطق الذي يتفرغ به الشيطان الشروع في افساد المؤمنين .

لندع الى حين أسلوب هذا الحديث الذي جمع بين الاخبار والتقرير والطلب والنهي ولننظر في مضامينه وهي كما يلي :

أولا ـ ان الايمان في حد ذاته خير ونور وان الله يحب سائر المؤمنين وما من مؤمن الا وبه خير.

وثانيا ـ ان المؤمن الناشط الذي يمارس الاعمال ولا يقعد عند الاقوال ساعياً لتحقيق مصالحه المتدرجة تحت رعاية الله، والتي يرتجى فيها عونه تعالى هو أفضل عند الله من المؤمن المتراخي.

وثالثا ـ إن كل ناشط مكافح لابد وأن يتعرض لتجارب متنوعة بعضها فاشل فليس له عندئذ أن يتخاذل وينكسر عزمه ويسلم نفسه لشيطان اليأس يعيد عليه قصص الماضي الذي لا يرد، وينفث في رأسه الحسرة بقوله لو فعلت ولو لم أفعل فان هذه الكيفية في النظر للامور هي بداية نجاح الشيطان في افساد المؤمن.

وهكذا فان القوة في الاسلام ليست قوة محضة منفلته ولكنها مسيرة بالاستعانة بالله وفي ظل الله. وهي قوة ايجابية لا تتوقف عند العثرة ولا تشغل عن الحاضر بالماضي ابداً.

ولا شك ان حديث الرسول ﷺ لايخرج عن كونه توضيحا لمبادىء القرآن الكريم فالله تعالى يأمر المؤمنين بالعمل والحزم والعزيمة وحسن التوكل عليه وينهي عن الاسى على الماضي عند الفشل وضياع النفس بددا في غرور الفرح ﴿لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

ان حجم التعبير عند رسول الله ﷺ لايخرج عن مقتضى المضمون وذلك هو عمل النبي الذي لا يعرف اللغو ولا الفضول ولا يقصد بالتعبير اللغوي هدفا غير السداد والوضوح في تعبير قوي صحيح. ويتجلى سمو الخلق النبوي في ايراد الاسلوب الاخباري التعميمي كمبرر للدخول في الاسلوب التقريري الطلبي وهذه

رفعة في كل حديث رسول الله ﷺ أما التعابير نفسها فهي تعابير سهلة قوية ممتنعة خالية من التعقيد بريئة من المبالغة. متوازنة تؤدي المعنى بكل حرف فيها ولا تزيد على ذلك . .

لكن رسول الله ﷺ في جوامع الكلم وحيث يعيد تقرير الاوامر الالهية يستخدم ـ كما ينبغي له تماما ـ الاسلوب الطلبي بغير مدخل أو تقديم .

عن معاذ قال: أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات قال: «لا تشرك بالله شيئا وان قتلت وحرقت، ولا تعقن والديك وان أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربن خمرا فانها رأس كل فاحشـة، واياك والمعصية فان بالمعصية حل سخط الله، واياك والفرار من الزحف وإن هلك وإذا اصاب الناس موت وأنت فيهم فاثبت، وانفق على عيالك من طولك، ولا ترفع عنهم عصاك أدبا واخفهم في الله».

وقد ذكرت هذا النص على طوله مقارنة مع تحليل الدكتور بكري شيخ أمين لبعض الاحاديث التي اخترناها.

أما أسلوب الحديث النبوي الآخر فهو الاسلوب الرمزي الايحائي . . . وهذا نموذج من تحليل الأستاذ أحمد العناني لهذا الأسلوب حيث يقول:

لم يكن رسول الله ﷺ في حديثه يتوجه بالنقد الى المعنى به مباشرة لان غايته كانت منصبة على الاعمال دون الاشخاص؛ لذلك فقد عرف حديثه الشريف. بمداخل خاصة به كعبارة «ما بال اقوام يفعلون كذا او يقولون كذا». وقبل أن أتحدث عن

استخدامه الرمز بأسلوب فذ. أتوسع قليلا فيما يمكن تسميته «لا شخصية النقد النبوي»، فأروي قصة الاقرع بن حابس التميمي.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قبل الحسن بن علي رضى الله عنهما، وعنده الاقرع بن حابس، فلم يستمرىء الاقرع ذلك المشهد فراح يقول (ان لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا) فنظر اليه رسول الله ﷺ ثم قال «من لا يرحم لا يرحم» وهذا صرف مباشر عن توجيه اللوم مباشرة الى مستحقه بأسلوب التعميم الذي يجعل وطأة النقد أقل بكثير.

لكنه يجعل مزيته غاية في السمو. ربما دار في نفس الرسول عليه السلام أن الله الرحمن الرحيم الأبر بعباده من أنفسهم هو الذي يجب أن تتشكل الحياة، وتنشأ القيم وفق ما يرضيه تعالى. وأن الفخر انما يكون في اتباع صفات الحق لا في المفاخرة بقسوة الجاهلية، فأراد عليه السلام أن يقول لابن حابس أن ديننا هو دين الاسلام حيث علاقات المسلمين منشؤها الرحمة فمن لا يرحم كما أمر الرحمن الرحيم فهو الذي لا يرحم لا من الله ولا من الذين تنشأ عزتهم من طاعة الله.

ثم إنك ترى أن رسول الله ﷺ يستخدم ضمير الغائب بكثرة ملحوظة عند التحذير من المحرمات بخاصة، دون ضمير المخاطب كقوله عليه السلام «من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وقوله عليه السلام «لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه» أو كقوله عليه السلام فيما يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله

واليوم الآخـر فليكـرم ضيفـه» . وكقوله عليه السلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به» .

ومن نفس هذا المنـطلق الكريم النصيحة المؤثرة ما كان عليه السلام يضربه من الامثال لتكون عبرة موحية الى صحبه والمسلمين من بعدهم .

عن أبي موسى: قال رسول الله ﷺ : «مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير: فحامل المسك اما ان يحذيك واما ان تبتاع منه، ونافخ الكير اما ان يحرق ثيابك واما ان تجد منه ريحا خبيثة» .

انك لن تتصور دقة في التشبيه التمثيلي البلاغي أدق من هاتين الصـورتين . . . الجليس الصالح غشيانه ومواصلته كغشيان بائع المسـك والجليس السوء قربه كقرب نافخ الكير . ايما كان مدى اتصالك بذاك أو هذا فانك متأثر بهما ولكن على وفق الحال . .

وانظر الى هذه الاقصوصة الرمزية الرائعة وكم هي موحية جميلة ومعبرة مؤثرة الى الصميم .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «أن رجلا زار اخا له في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته «طريقة» ملكا قال: اين تريد؟

قال: أريد اخا لي في هذه القرية .

قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ (اي تقوم باصلاحها واتمامها) .

قال: لا، غير أني احببته في الله .

قال: فاني رسول الله اليك بأن الله قد احبك كما أحببته فيه» .

وانـظر ما اجمل التقصي الدقيق في هذه العبارة التي تختم هذا الحـديث الشريف فيما يرويه الترمذي عن أبي عمر قال: صعد

رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع فقال «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الايمان الى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم فانه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله». (اي أشد مكان له خصوصية كبيته).

وانظر الى هذا الاسلوب الذي يستخدم فيه رسول الله ﷺ « الاسلوب البياني القائم على سؤال مقصود للاستثارة».

أما الأسلوب الثالث والأخير الذي عرض له الأستاذ العناني فهو أسلوب المضاهاة حيث قال:

«الواقع ان الفرق بين ما اتجوز لنفسي بتسميته اسلوب المضاهاة وبين ما سميته آنفا أسلوب الرمز والايحاء هو فرق ضئيل. لقد كان الرسول ﷺ اعجوبة في ملاحظته وجوه الشبه والفرق بين الناس وأحوالهم من جهة ومرائي الكون والطبيعة من جهة أخرى»..

ان هذه الملاحظة تدخل في باب التشبيه بأنواعه ولا سيما التشبيه التمثيلي وباب الاستعارة وهي نوع أكثر اختصارا وابلغ وقعا من التشبيه حيث ان أحد طرفي التشبيه يكون خافيا بينما يدل عليه شيء متعلق به. وقليل من الناس جدا يستطيعون أن يضاهوا بين تفاريع الحياة بما يستحدثون معها تشابيه مبتكرة، فالامر يحتاج الى رؤية عميقة نافذة ودقيقة ولعل ما عرف عن رسول الله ﷺ من طول الصمت وعمق التفكر... وايثار الوحدة التعبدية كان بالاضافة الى ينابيع اقتداره الاخرى مما ورد ذكره في مطلع هذا البحث ولا سيما التأثر بالقرآن الكريم كان المعين له على مضاهاة الاحوال والاوضاع المتباعدة والمرتبطة بوجه شبه منفرد أو معقد. وانظر الى هذا الحديث الشريف...

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

أي مضاهاة بين المجتمع الاسلامي السليم التكوين وبين الجسد البشري الواحد يمكن أن تكون أكثر احكاما ودقة رؤية من هذه المضاهاة . . .

ان ردود الفعل لعوادي الالم وفواشي الاذى في الجسم الواحد تكون عفوية فورية، وتظل دائمة ماثلة ما دام العضو المتألم يقاسي . .

ذلك هو مجتمع المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ذلك هو «الالتحام» الذي يتشدق به المحدثون من عشاق الشعارات ولكنك ابدا لا تجده بينهم وانما تجده على السنتهم وصحافتهم.

اما المجتمع الاسلامي الذي أنشأه الرسول ﷺ وتبعه في السهر عليه خلفاؤه الراشدون فقد أورث المسلمين وضعا فذا فريدا دام مئات السنين فلا تحل نكبة بطرف من أطراف العالم الاسلامي الا وتشنج ذلك العالم وسهر وتألم وما عرف الراحة والامن إلا بزوال النكبة الحاصلة على جزء منه. وذلك ما كان يغيظ أهل الغرب جميعا.

ومن اروع أمثلة المضاهاة هذه في الاحاديث النبويه تشبيه الرعية بالقطيع والحاكم بالراعي، فإن المطلوب من الراعي على الدوام حفظ القطيع وتأمين نمائه من جميع الوجوه.

(للمزيد انظر البحث آنف الذكر ص ١٠٧-١٠٩).

وعلى ما يبدو لنا ان الأستاذ أحمد العناني كان من المشاركين في المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، وقد قرأت جزءا من

بحثه هذا في أوراق المؤتمر التي وصلتني، كما نشرت مجلة الدوحة إشارة من حديثه حول أدب الرسول ﷺ في خطبه، . . وخطبة حجة الوداع تهيء مجالاً اكبر لتفهم سائر خصائص الأدب الخطابي لرسول الله ﷺ، فهي خطبة الختام، وهي تلخيص وافٍ لمهام الرسالة وكانت خطب الرسول عليه السلام موجزة معجزة والايجاز من الاعجاز كما يقول ابن جني.

ويذهب الاستاذ أحمد العناني إلى أن الرسول عليه السلام كان لا يخطب الا لمناسبة ملزمة غاية الالزام ولهذا فقد كان يتكلم بمقتضى الحال، وعلَّ الأستاذ العناني قد تمثل العصر الراهن في مقولته هذه، . . . عصر الخطابات العصماء، عصر الثرثرة وزخرف القول!! . . عصر الافواه اللعلاعة، والزبد الذي يغلفها!!

ومع كل البلاغة التي أوتيها رسول الله ﷺ وبالرغم من كل ما تميز به أسلوبه ومضمونه إذا تكلم من حكمة بالغة في المضمون ويسر سائغ على الأسماع، وبالرغم من كل الاعزاز لشخصه الكريم مما لم يرق له حب الناس لاحد من خلق الله من دونه، فلقد كان رسول الله بالغا حد الايجاز والاحكام كلما خطب ـ كما سبق وأن أسلفت ـ وسر ايجازه عليه السلام هو الموضوعية المطلقة والصدق الفني والموضوعي، وكما قال الأستاذ أحمد العناني: فأنت حين تجيل الفكر في كلمات الخطبة الموجزة يواجهك أسلوب رجل أفرغ من كل النوازع الضعيفة للخطباء، فهو يريد عرضاً واضحاً مسدداً، ومعنى ينقله لعقول الناس وقناعتهم من دون القصد لعواطفهم واهتزازاتهم، لقد كان عليه السلام مفرغاً من أي هوى يتلبس الخطباء باظهار الفصاحة أو القدرة على التأثير وتحريك

العواطف، الأمر الذي يغريهم بالاغراق في إيراد المقاطع القصيرة المتلاحقة التي تفعل فعل النقرات الموسيقية في تحريك العواطف والمشاعر!

وهذا نص خطبة حجة الوداع، . . يعطينا صورة واضحة جلية عن أدب رسول الله عليه السلام في خطبه، ولن أعلّق على هذا النص الأدبي الرائع، ولن أسرد من تعرّض له أو شرحه؛ فهو نص واضح بسيط صادق لا يحتاج إلى أدنى تعليق!!

«ايها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وأنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده امانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وان كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وأن ربا عباس بن عبدالمطلب موضوع كله، وان كل دم كان في الجاهلية موضوع، وان أول دمائكم اضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية، أما بعد أيها الناس، فان الشيطان قد يئس من ان يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه أن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، أيها الناس، إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما احل الله، وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض، وان عدة الشهور

عند الله اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، أما بعد أيها الناس، فان لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا، لكم عليهن ان لايوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهن أن لايأتين بفاحشة مبينة، فان فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً فانهن عندكم عوان لايملكن لانفسهن شيئا، وانكم انما اخذتموهن بأمانة الله، . . واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما أن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً امرا بينا كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وان المسلمين اخوة، فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت» فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد».

هذا هو أدب رسول الله عليه السلام، وهذا هو الرسول القدوة، الرسول القائد والانسان. قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾. ومن أمثلة الخطابة من اجل إعلام الناس برسالة الإسلام . . وقوفه على جبل أبي قبيس ليبلغ الناس دعوته.

وأما عن قدرته على الاقناع فقد كان صلى الله عليه وسلم أفصح الناس لساناً وأعذبهم كلاماً، وكان شجاعاً بأدق ما تحمل هذه الكلمة من مدلول أو معنى، فما من شجاع إلا وأحصيت له مرة وحفظت عنه جولة. . إلا رسولنا عليه الصلاة والسلام (مرجع

سابق ص ٢٨٠).

كان محمد أديبا في أحاديثه وخطبه ومواعظه: أديبا مع قومه.. فقد عذبوه وشتموه وأساءوا اليه وهو يقول: أنا رحمة مهداة، وفي أشد المواقف إيلاماً على رسول الله.. يوم التثقيف يدعوه ملك الجبال ليهلك قريشا (إن شئت اطبق عليهم الاخشبين) فيقول عليه السلام: اللهم اهد قومي فإنهم لايعلمون.

وهذا برنارد شو يقول: إني اكن كل تقدير لدين محمد.. لحيويته العجيبة فهو الدين الوحيد الذي يبدو لي طاقة هائلة لملاءمته أوجه الحياة المتغيرة، وصالحا لكل العصور. لقد درست هذا الرجل العجيب، وفي رأيي أنه يجب أن يسمى (منقذ البشرية). دون أن يكون في ذلك عداء للمسيح، واني اعتقد أنه لو اتيح لرجل مثله أن يتولى حكم هذا العالم الحديث منفرداً لحالفه التوفيق في حل جميع مشاكله بأسلوب يؤدي إلى السعادة والسلام التي يفتقر إليها العالم كثيراً. واني أتنبأ بأن الناس سيقبلون على دين محمد في أوروبا في المستقبل.

محمد رسول الله، محمد الذي أعطاه الله سبحانه الجمال مع الجلال، محمد أعظم شخصية في التاريخ، محمد الأديب المؤدب صاحب الأدب، ويسأل الأعرابي: من منكم محمد؟ من منكم محمد؟ ويرتعد الرجل، ويهدأ روعه... ويأتيه الجواب: وما أنا الا ابن امرأة تأكل القديد!!!

محمد رسول الله، الذي لولاه ما خلقت الشمس وما خلق القمر، وفي معركة بدر يتعاقب الصحابة على الراحلة الواحدة، ويحاول بعضهم اراحة رسول الله عليه السلام فيقول: لستم بأقوى مني على المشي، ولست بأغنى منكم عن الأجر!!

حَولَ الإسْلَامِ وَالشِّعر

قال تعالى: ﴿هل انبئكم على من تنّزل الشياطين، تنّزل على كل أفاكٍ أثيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون، والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلِموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء ٢٢١-٢٢٧].

- ﴿بل قالوا أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ [الأنبياء: ٥].

- قال صلى الله عليه وسلم: «إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه».

- وقال عليه السلام: «إن أعظم الناس عند الله فرية لرجل هاجى رجلاً فهجا القبيلة بأسرها».

- عندما اشتد هجاء شعراء المشركين للإسلام والمسلمين، قال ﷺ للأنصار: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم، أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان بن ثابت: أنا لها يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: أجب عني، اللهم أيده بروح القدس.

حول الإسلام والشعر

للشعر منزلة خاصة عند العرب، وفي جمهرة اشعار العرب صفحات كثيرة تسرد حكايات شياطين الشعر التي تلهم شعراءها، ولولا أولئك الشياطين ما واتاهم الالهام ولا نطقوا بالشعر، فقد كان لشعراء العرب شياطين تنطق به على ألسنتها. ولكل من شعرائها الكبار شيطان، فشيطان امرىء القيس الذي يلهمه الشعر هو «لافظ بن لاحظ»، وأما «هبيد» فصاحب عبيد بن الأبرص، وبشر بن أبي خازم، وأما «هادر» فصاحب زياد الذبياني وهو الذي استنبغه فسمي النابغة!! (انظر جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام، مطبعة لجنة البيان العربي، ١/٤٦).

ويذكر الأعشى في الأبيات الآتية شيطانه «مسحلاً» وما يجري على لسانه من الشعر:

ما كنت ذا خوف ولكن حسبتني
إذا مسحل يسدي لي القول أفرق

شريكان فيما بيننا من هوادة
صفيان إنسيٌّ وجنٌّ موفق

يقول فلا أعيا بقول يقوله
كفاني لا عيٌّ ولا هو أخرق

ويقول:

دعوت خليلي مسحلاً ودعا له
جهنام، جدعاً للحمار المصلم

ويروي صاحب الجمهرة أبياتاً ينسبها لهبيد . . شيطان عبيد بن الأبرص وبشر، وفيها يذكر «مدركاً»، شيطان الكميت، ويذكر فضل هؤلاء الملهمين، فلولاهم ما قيل شعر!!

والأبيات هي :

أنا ابن الصلادم ادعي الهبيد
حبوتُ القوافي قرمي أسدْ
عبيداً حبوت بمأثورة
وأنطقت بشراً على غير كدْ
ولاقى بمدرك رهطُ الكميت
ملاذاً عزيزاً ومجداً وجدْ
منحناهم الشعر عن قدرة
فهل تشكر اليوم هذا معدْ

وليس لدينا إلى جانب هذا التفسير الغامض للالهام سرد نطمئن إليه مما أثر عن شعراء العربية في عصورها السابقة مما يتصل بتجربة الشعر سوى حوادث الارتجال (عبدالجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد، ص ١٨٩) وهي حوادث لا تصلنا بما يعتمل في أعماق الشاعر في تلك اللحظات، وليس لنا إلا أن نصغي إلى الأبيات المرتجلة معجبين أحياناً بتلك البديهة السريعة التي تنطلق بما يناسب الموقف من شعر تنتظمه موسيقى خاصة ويؤطره وزن خاص وقواف متمثلة، ولا بد أن الارتجال الأصيل يستمدُّ استجابته السريعة المواتية من رصيد وافر تختزنه النفس الشاعرة وجهاز معقد يتسم بالحس المرهف الذي يستثيره الموقف، فيهتز للمؤثر ويستجيب له، ويملأ أعماق الشاعر بموسيقى غريبة سرعان ما

تنطلق معبرة عما يتصل بتلك اللحظات المناسبة من ذلك الرصيد المخزون. أما كيف يحدث هذا فأمر أحسب أن الكلمة الأخيرة قد قيلت فيه (المرجع السابق، وانظر الحالة الشعرية ص ٢٠٢ - ٢٠٥).

وأحسب أن نظرة العرب إلى الالهام تتفق إلى حد بعيد مع نظرة الاغريق، واعترافهم بهذه القوة موجود، ولكن اهتمامهم بالتحدث عن طبيعته قليل، وقد قرن العرب الالهام منذ القديم بالشيطان وفي اتهامهم للنبي ﷺ بأنه شاعر، ما يصور مدى فهمهم لطبيعة الوحي، وطبيعة الشعر.

وقد كان الشعر لغة الكهان ولغة الفلاسفة والمشرعين الأول.. وهم معلمو الانسانية في قديم عصورها. وكانت للشعر صبغته الميتافيزيقية التي تربطه بعالم غيبي اسطوري.. وظل الشعر في القديم ذا صلة وثيقة بالالهام الإلهي، وكان رمز هذا الإلهام ما تبين عن صلة الشاعر بآلهة الفنون Muses فيما تحكيه أساطير اليونان.

(محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث نقلا عن:

F. Brunnetier, L, Evolution des Genres dance La Litteature, 1892).

وما الشعراء ـ ازاء هذا الفهم ـ إلا أدوات لهذه الآلهة، أو بعبارة أخرى إن الشعراء ـ تراجمة للآلهة، والشعر ليس علمًا يؤتى وإنما هو موهبة وإلهام، والشعر يأتيك ولا تأتيه!!

وكان العرب قبل الإسلام يعبدون الجن، قال تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ [الانعام: ١٠٠].

ـ ﴿بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون﴾ [سبأ: ٤١].

- ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان﴾ [يس : ٦].

ويقابل كلمة الجن أو الشيطان في العربية كلمة ديمون demin diamon في اليونانية واللاتينية، وهي ترادف كلمة genie في الفرنسية المأخوذة عن كلمة لاتينية غير الأولى هي genius ونظيره ما شهر عن العرب في عهدها الاسطوري من أن لكل شاعر شيطاناً.

ووادي عبقر في الجزيرة العربية يعكس تفسيراً اسطورياً ميثولوجياً لدى هؤلاء، وتعدى هذا الفهم إلى الاسلام، ووادي عبقر: موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن، ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من حذقه أو جودة صنعته وقوته، فقالوا عبقري وهو واحد وجمع، والأنثى عبقرية.

وهذا لبيد بن ربيعة يقول (ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله سورة البقرة وآل عمران).

وفي القرآن الكريم يقترن اسم الشاعر بأسماء المجنون والساحر والكاهن، ويقترن كذلك باسم الشيطان، ويعني هذا الاقتران أن الشعر لا يجيء بالحق فهو شأن السحر والكهانة والجنون جزء من عملِ الشيطان الذي «يزين» و «يضل» فيري الباطل حقاً، والحق باطلاً.

وقد وقف القرآن الكريم ومن ثم الشرح عند السحر بشكل خاص كما ذهب ادونيس في كتابه «الثابت والمتحول».

قال تعالى: ﴿ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ [الصافات : ٣٦].

قال تعالى: ﴿هل انبئكم على من تنزل الشياطين، تُنزَّل على كل أفاكٍ أثيم . . .﴾ [الشعراء: ٢٢١].

- ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ [التكوير: ٢٥].
- ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين﴾ [النمل: ١٣].
- ﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾ [الحاقة: ٤١].
- ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ [يس: ٦٩].

ولكن القرآن الكريم لم يحرِّم الشعر كما حرّم السحر والكهانة، وإنما وجهه وجهة أخرى، ربطه بالدين والمنبثقة عنه، فجعله أداة لخدمته وقرر أن بين الشعراء من آمن وعمل الصالحات وذكر الله كثيراً، ولهذا فإن من الشعر ما ينطق بالايمان، وبذكر الله، (انظر: ادونيس/ الثابت والمتحول، ص ١٤٧).

وفي الحديث «ان من البيان لسحرا» ويعني أن من البيان ما يؤثر في العقل والقلب تأثير السحر، غير أن النبي ﷺ كان يستحسن بالمقابل بعض الشعر الجاهلي حيث قال: «ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة»، كما أنشد بعض أبيات أمية بن أبي الصلت، وقال عنه: آمن شعره وكفر قلبه، وكاد أمية ليسلم! (انظر: القرشي/جمهرة أشعار العرب، ص ٣٠-٣٧).

وهذا الارتباط الميثولوجي المتأصل في الشرق نقرأه في رسالة الغفران لأبي العلاء حيث ورد ذكر الجن.. ففي أطراف الجنة نقرأ عن جنة العفاريت وجنة المؤمنين، وشعر الجن!!

ومن الدراسات الحديثة حول موضوعنا.. الاسلام والشعر/يحيى الجبوري، محمد والفنون/ عبدالمجيد وافي، محمد والشعر/ جودت عبدالله.

كما صدر كتاب للدكتور سامي مكي العاني بعنوان «الإسلام

والشعر»، سلسلة عالم المعرفة، ٦٦، رمضان عام ١٤٠٣ هـ.
وكان الأستاذ العاني غاية في الموضوعية والحوار الهادىء البناء، وأورد الحجة تلو الحجة التي تنفي زعم هؤلاء الذين يدعّون بضعف الشعر العربي بعد ظهور الاسلام!!

وينقلون هذا الضعف إلى شاعر الدعوة الاسلامية حسان بن ثابت، حيث يزعم هؤلاء أن شعره قبل الدعوة أقوى وأغزر منه بعدها، وإني لأستغرب تجاهل أساتذة الأدب لهذا الشاعر الفذ، وقد دُسَّ عليه الكثير، ولا تزال أخباره وأشعاره خليطاً من الروايات؛ وكرهه ابن سلام وحمل عليه، .. هذا الشاعر المغموط كان أشعر أهل المدر وقد تفوّق على كعب بن مالك، وعبدالله بن رواحه، وقيس بن الخطيم، وأبو قيس بن الأسلت.. ولم يصلنا شعره في شبابه، وكل ما وصلنا هو شعره بعد الخمسين من عمره.. هذه دعوة صادقة لدراسة هذا الشاعر المتميز، شاعر الرسول، شاعر الدعوة!!

.. لقد وضعوا عليه الكثير وطعنوا في شخصه وحياته، وسأذكر رأي الأستاذ سامي العاني حول الشاعر وشعره.

ولا بأس من أن نقرأ رأياً موجزاً للكاتب ابراهيم العجلوني وقد ربط العقيدة بالشعر، ولكننا نخالفه في بعض رأيه فيما يأتي.

يقول الأستاذ ابراهيم العجلوني في مقال له بعنوان «وجهة نظر حول هبوط الشعر في صدر الاسلام»: لقد أذهل الدين الجديد الجاهليين، وهدد قيمهم وعاداتهم ونظام حياتهم، فأضحوا.. لا همّ لهم إلا انتزاع شوكته، وقلّ شعرهم لأن بواعثه من حمية جاهلية ومن خمر ومجون، ومن حب للذكر، ... باعتباره بديلاً عن الخلود،

كل هذا قد اصبح موضع تهديد وخطر أمام منظومة القيم الجديدة . .

وبما أن المسلمين ليسوا قبيلة يفاخرونها أو شاعراً يعارضونه ويهاجمونه، وانما هم كيان ذو عقيدة وقيم وتصورات لم يستطيعوا حيالها شيئاً، . . . فقد فقدت دواعي الشعر عندهم ركنها الرئيسي وهبط بذلك مستواه، أما المسلمون فقد أغناهم رضوان الله وجنته عن أوهام بعد الصيت وارتفاع الذكر، والتفتوا مع رسولهم الكريم إلى بناء المجتمع الجديد في المدينة، ثم إلى نشر دين الله في الأرض بعد ذلك.

وفي عهد عمر بن عبدالعزيز - مثلا - والذي انتهج نهج الراشدين، طالب الشعراء بالصدق وإلا فالسكوت، . . واصبح شعر جرير باهت اللون، بعد أن كان صارخاً بالإفك والعصبية من قبل!!

وفي العصر الحديث. . . بعد الثورة البلشفية في روسيا خفت صوت الشعراء، وكانوا يظنون أنهم يقيمون المجتمع الفاضل، أما بعد ذلك، فقد بدأت نهضة الفن عندهم من جديد، وعاد القلق والألم إلى أداء دورهما في دفع الفن إلى الأمام.

(انظر مزيداً من الحيثيات التي تدعم هذا التصور لأسباب هبوط الشعر في صدر الإسلام: جريدة الرأي الصادرة بتاريخ ١٩٨٠/٢/٨، وكنت قد عرضت بعضاً منها في ثنايا هذه المقالات).

وعلَّ الأستاذ العجلوني قد جانب الحقيقة عندما قال أن الجاهليين لم يستوعبوا معطيات الرسالة للوهلة الأولى، حيث أراهم

قد استوعبوا خطر هذه الرسالة وما تحمله مذ أول يوم أشرق فيه فجر الإسلام، وفهم «أبو جهل» خطر «لا إله إلا الله» عليه، وعرف أن هذا الدستور يزعزع عرشه ونظامه وجاهه وسلطانه، وقاومه بكل ما أوتي من قوة، وكانت الرسالة الاسلامية محفوفة بالمخاطر. وهذا شأنها دائماً!!

★ ★ ★

قلت: إن أحدث ما كتب في موضوعنا حول الاسلام والشعر هو ما كتبه الدكتور سامي مكي العاني، ومما يذكر أن للأستاذ العاني اهتمامات سابقة في الأدب الإسلامي، حيث نقرأ له «دراسات في الأدب الإسلامي»، وهو من منشورات المكتب الاسلامي، بيروت، ١٩٧٥.

عرض فيه للصراع الأدبي بين مكة والمدينة في عصر النبوة، والقرآن والشعر، واعجاز القرآن.. معجزات الانبياء، وتفرد القرآن بالاعجاز ووجوه اعجازه. وذكر بعض فنون الشعر الاسلامي: الفخر والمديح والهجاء والنقائض والمراثي، إضافة الى شعر الشؤون الخاصة وشعر الأحداث التاريخية، وشعر الوعظ والإرشاد وشعر الفتوحات الإسلامية. ووقف وقفة متأنية عند الردة ودور الشعر في حروب الردة وموضوعات هذا الشعر. كما علّق على عبدالله بن رواحة شاعر الخزرج، وإسلامه وشعره، وعقد مقارنة بين شاعري رسول الله ﷺ وهي اقرب إلى الموازنة بين هذين الشاعرين وهما: كعب بن مالك الأنصاري، وحسان بن ثابت الأنصاري كذلك.

وعلى اتصال هذين الكتابين وأهميتهما إلا أنني سأفضل القول

واعتمد الكتاب الأكثر حداثة والأبسط أسلوبا - كما أرى - سيما وأنني في كتابه هذه المقالات اقوم بعملية استعراضية اكثر منها دراسة عمودية دقيقة!! . . . أزعم هذا وأنا متحفظ على بعض آراء الدكتور سامي العاني في كتابه «دراسات في الأدب الإسلامي» خاصة في بحثه الهجاء، والنقائض الاسلامية، . . وقد ألغى الاسلام بعض هذه الفنون، ووجود نماذج معينة لايعني أن العصر العباسي هو عصر أبي نواس أو عصر جرير والفرزدق مثلاً!!

وقبل أن أمضي في عرضي لما كتبه الدكتور سامي مكي العاني، لابد لي من الاشارة إلى لحمة وتواشج كتابي الأستاذ العاني حيث أعاد ما كتبه حول الصراع الأدبي بين مكة والمدينة في عصر النبوة بعنوان (الصراع الشعري بين مكة والمدينة). و (القرآن والشعر) و (فنون الشعر الاسلامي) حيث أعادها بصورة اخرى وبعض التحفظ ازاء مقولتي السابقة. فذكر الشعر الديني، وشعر الوعظ والارشاد، وشعر الفتوحات، وشعر الشكوى، والشعر السياسي، والغزل العذري، . . . الفخر والحماسة، والمديح، والهجاء، والنقائض، والرثاء ومزج معها مراثي رسول الله ﷺ، والشعر التأريخي، وحذف شعر الرده، وذكر الدكتور العاني هذه الفنون بعنوان (الأغراض الشعرية).

★ ★ ★

ومع أن كتاب الدكتور سامي العاني يقع في ثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط، إلا أن ما يهمنا في هذه المقالة هو ما كتبه تحت عنوان «دعوى ضعف الشعر الاسلامي» في الباب الأول من هذا المؤلف.

أما وقد ذكرت منزلة الشعر عند العرب وربطهم الشعر بالجن ووادي عبقر والإلهام بعامة، وأوردت أمثلة على ذلك من الجمهرة، وكيف جاء القرآن الكريم غاية في الفصاحة والبلاغة والإعجاز، وكانت معجزة محمد ﷺ الكبرى هي ما اشتهر به قومه وبرع به أرباب اللغة واللسن، وكانت معجزات الانبياء - غالبا - توازي وتعجز كل قوم بما برعوا به!!

أقول: أما وقد ذكرت هذا. . فإنه لا مراء دال على أهمية الشعر عندهم، وكون الشاعر لسان حال القبيلة ورجل إعلامها الأول، وعلى هذا يقول ابن سلام في طبقات الشعراء: (وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون).

وأمة العرب أمة شاعرة وعنهم يقول ابن سلام (كذلك والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط. . ولو قصدنا لذكر من لم يقل من الشعر إلا الشذ اليسير لذكرنا أكثر الناس).

وما تعليق الأشعار بأستار البيت العتيق إلا بعض ما أشرنا إليه من تقديس الشعر ومكانته الرفيعة عند العرب!

إن أدب رسول الله ﷺ الذي تحدثنا عنه في فصل بعنوان «الأدب النبوي . . أدب الرسالة» يسمو فوق ما يشيعه بعض الباحثين من عرب ومستشرقين من ضعف للشعر العربي بعد الإسلام، ويتناقلون . . «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلىء شعراً!!».

وهذا يذكرني بما قرأته في كتب النوادر، حيث قال بعض تجار

بغداد: من أكل بطيخاً أصفراً لم يمت في عامه هذا!!!! وقولهم: من تناول سفرجلة شفي من مرضه إلى يوم القيامة!!

والأحاديث الموضوعة والاسرائيليات ليست مجال بحثنا!!

ورددوا قولة الأصمعي: (إن الشعر نكد بابه الشر). ويورد الدكتور العاني مقولة لعمر بن الخطاب تقول: كان الشعر علم قوم لم يكن علم أصح منه، فجاء الاسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته.

ومقولة ابن خلدون: انصرف العرب عن الشعر أول الاسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم في أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا. (المقدمة، ص ٥٤٧).

وسأستطرد الان في ذكر دعاوى ضعف الشعر العربي والرد على هذه الأقوال... حيث ظهر في الجانب الآخر فريق من الدارسين والباحثين.. رفضوا القول بضعف الشعر الاسلامي، وأكدوا نهضة الشعر الإسلامي بل وتفوقه ونهوضه على من سبقه.

واقتطفت هذه الشبهات والرد عليها من الكتاب آنف الذكر،... فالقرآن الكريم لم يحارب الشعر قطعاً وانما حارب الأهواء والفحش والقذف والاساءة.. حارب المنهج الذي سار عليه الشعر والشعراء، منهج الانفعالات التي لا ضابط لها، ومنهج الأحلام المهومة التي تشغل أصحابها عن تحقيقها... كما يقول سيد قطب في ظلال القرآن.

ان هذه النصوص المبثوثة في كتب الأقدمين كان لها صدى كبير في دراسات المحدثين، فاستندوا اليها، وبنوا عليها نظرية ضعف

الشعر الإسلامي .

ويمكن اجمال ذلك الصدى في كتب المحدثين بالآتي :

١ـ إن المسلمين شغلوا بالقرآن وسكت شعراؤهم ليستمعوا الى كلمة الله[١] ذلك الصدى القوى الذي رنّ في أسماع العالمين بكنه الرسالة الجديدة وفلسفتها ، كان جديرا بأن يوقف أساليب القول والتفكير الا في هذه الرسالة نفسها .[٢]

٢ـ إن طريق الاسلام غير طريق الشعر، ومذهبه غير مذاهب الشعراء، فالشعراء إنما كان أكثر قولهم عصبية جاهلية وفخرا وحماسة بما بين قبائلهم من تنازع ومطاولة بالأنساب والأحساب، وهجاء ومدحا باطلا ، وهي مذاهب حاربها الاسلام .

وان الشعر نكد لا يقوى الا في الشر، فاذا ادخلته في باب الخير لان .[٣]

٣ـ إن بعض الشعراء شغلوا عن الشعر بالجهاد في سبيل الله[٤]

---

(١) د. البهبيتي ـ تاريخ الشعر العربي ١١٣

(٢) د. الشكعة الادب في موكب الحضارة الاسلامية ٩١ . ومحمد ابراهيم جمعة ـ حسان بن ثابت ١٧ .

(٣) د. درويش حسان بن ثابت ـ ٧٧ ـ وانظر د. خفاجي ـ الحياة الادبية في عصر صدر الاسلام ١٦٣ .

(٤) م . ن ٧٧

٤ـ إن النبي ﷺ لم يهيء لعامة الشعراء مكانا رحيبا في كنفه، لما كانوا عليه في شعرهم من مذاهب لايقرها الدين، فكف بعضهم عن قول الشعر(٥).

٥ـ ان الضعف الذي يبدو على الشعر الاسلامي انما كان بدأ في الحقيقة قبيل الاسلام لا بعده، كان قد انقضى عصر الفحول، ولم يبق الا الاعشى الذي مات ـ كما تقول الرواية ـ وهو في طريقه الى النبي ﷺ ليمدحه، ويعلن اسلامه، ولبيد الذي كان قد بلغ الستين، اوشك ان يكف عن قول الشعر. ولم يبق عند ظهور الاسلام الا شعراء مقلون، بعضهم مجيد في قصائد مفردة، ولكن لا يبلغون شأو هؤلاء الفحول. (٦)

ولتأكيد مقولة ضعف الشعر الاسلامي يورد هؤلاء الباحثون القول بأن شعر حسان بن ثابت لان وضعف في الاسلام، وان بعض الشعراء قد انصرفوا تماما عن قول الشعر بعد الاسلام، مثل لبيد بن ربيعة.

وفي الجانب الاخر ظهر فريق من الباحثين، رفضوا القول بضعف الشعر الاسلامي، وأكدوا ان نهضة الشعر قد استمرت بعد الاسلام، ان لم تكن قد تقدمت خطوات، بما هيأ لها الاسلام من أسباب التقدم والنهوض.

فابن خلدون مثلا يفضل شعر الاسلاميين على شعر الجاهليين

(٥) م. ن

(٦) د. عبدالقادر القط في الشعر الاسلامي والاموي ص ١٣

يقـول: ان كلام الاسـلاميين من العـرب اعلى طبقة في البلاغة واذواقها من كلام الجاهليين في منثورهم ومنظومهم. فانا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة... أرفع طبقة في البلاغة النابغة وعنتره وابن كلثوم وزهير... والسبب في ذلك ان هؤلاء الذين ادركو الاسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام من القرآن والحديث، اللذين عجز البشر عن الاتيان بمثلهما، فنهضت طبـاعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهـل الجاهلية، ممن لم يسمع هذه الطبقة، ولانشأ عليها، فكان كلامهم في نظمهم ونثـرهم احسن ديبـاجـة، واصفى رونقا من أولئـك، وارصف مبنى واعـدل تثقيفـا، بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة.(٧)

وممن قال بنفي مقولة ضعف الشعر من المحدثين الدكتور عمر فروخ(٨) والدكتورة بنت الشاطىء(٩) ونالينو(١٠).

واتخـذ بعض البـاحثـين طريقـا وسـطا بين القائلين بضعف الاسلامي والقائلين بأن الاسلام قد فجر طاقات الشعراء، وبعث الروح في اشعار تلك الفترة.

يقول الدكتور يوسف خليف: ولسنا ندعي أن القرآن صرف العرب جميعاً عن قول الشعر، أو أنه اخرس السنتهم حتى لم تعد

---

(٧) المقدمة ٥٤٤

(٨) تاريخ الادب العربي ١/ ٢٥٧

(٩) قيم جديدة للادب العربي ٦٦

(١٠) تاريخ الاداب العربية ١٠٤

تنطق به، وانما الذي نقرره هو انه اضعف من سيطرته على المجتمع الادبي الاسلامي، بعد ان كان لبيد قد فكر في أن يحطم قيثارته فقد كان هناك غيره.. احتفظوا بقيثاراتهم دون أن يحطموها.

إن الرجة الدينية والأدبية التي اثارها القرآن في نفوسهم وفي المجتمع الاسلامي من حولهم كادت تزلزل الاوتار في ايديهم، وتجعل الناس لايجدون في فنهم تلك المتعة الآسرة التي كان القدماء يجدونها في الشعر القديم. أو على أقل تقدير لايجدون في وقتهم ما يجعلهم يلتفتون حولهم ليستمعوا لهم كما كان اسلافهم يفعلون[11].

فأين الصواب في هذه الآراء؟

أما ان القرآن قد حط من الشعر، وقلل من قيمته، فهذا غير صحيح، وقد عالجنا هذه المسألة في غير هذا الموضع.

ونود ان نورد هنا التوجيه الطريف الذي ذهب اليه العسكري في آيات الشعر والشعراء، حيث يقول: واستثناء الله عز وجل في أمر الشعراء يدل على ان المذموم من الشعر انما هو المعدول من جهة الصواب إلى الخطأ، والمسروق من وجهة الانصاف والعدل الى الظلم والجور، وإذا ارتفعت هذه الصفات ارتفع الذم.

ولو كان الذم لازما لكونه شعراً لما جاز ان يزول على حال من الاحوال[12].

أما حديث الرسول ﷺ عن الشعر فقد استشهد به هؤلاء ناقصا، لأن السيدة عائشة رضى الله عنها رفضت هذه الرواية

---

(١١) حياة الشعر في الكوفة ٦٥٦.

(١٢) الصناعتين ١٣٢.

وارتاعت لها عندما سمعتها، وقالت: لم يحفظ أبو هريرة الحديث انما قال رسول الله ﷺ «لإن يمتلىء جوف احدكم قيحا ودماً خير له من ان يمتلىء شعراً هجيت به». (١٣)

ومن هذا الاستدراك يتضح جليا موقف الرسول (ﷺ) من الشعر، فقد نهى عن لون معين منه، وعن موضوعات خاصة، لاتتعدى هجاءه الذي يعني هجاء الدعوة أما فيما عدا ذلك فان الرسول (ﷺ) اقر قول الشعر وطلب من الشعراء ان يردوا على قريش، وينصروه بألسنتهم كما نصروه بأسلحتهم، وسمح لهم بنظمه في معظم الأغراض الشعرية، وقد فصلنا هذه المواقف في فصل «الرسول ﷺ والشعر».

أما الحجج التي استند عليها المحدثون لتعليل القول بضعف الشعر الاسلامي فتقول:

١- القول بانبهار الشعراء بالقرآن ومعاني الاسلام الجديدة.
فنقول ان الاسلام لم يكن قد اتى مفاجأة بلا ارهاصات او مقدمات دينية، وقد افاضت كتب السيرة والتاريخ في تعداد تلك الارهاصات التي كانت تعم الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية.

وكانت الاشعار تمثل تلك الارهاصات في اواخر العصر الجاهلي كشعر امية بن أبي الصلت ولبيد وزهير وغيرهم من المتحنفين.

ولا وجه للانبهار، فالمسلم همه ان يقتبس من

(١٣) الاجابة لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة ٦٧.

القرآن في افكاره واسلوبه، وحقق ذلك فعلا، لا ان ينبهر به، ويتوقف عن الابداع الشعري، وسبق ان اثبتنا رأي ابن خلدون في هذه المسألة حين فضل شعر الاسلاميين على شعر الجاهليين بسبب سماعهم القرآن والحديث.

٢ـ أما القول بان طريق الاسلام غير طريق الشعر، الى آخر هذه الحجة، فنقول: ان الاسلام قد نهى عن بعض الوان الشعر، وهي مع قلتها، فانه قد اوجد بديلا عنها، وشجع كثيرا من الألوان الاخرى، ووجه بعضها الآخر كما هو موضح في اثر الاسلام في الأغراض الشعرية.

وغير صحيح ان الشعر نكد لا يقوى الا في الشر. الخ وهو ما ذهب اليه الأصمعي، ورده بعض المحدثين، فهذا الرأي يخالف رأي النقاد الذين يجمعون على ان القوة والضعف مردهما الى طبيعة الشاعر وموهبته، وصدق عاطفته، وكما تنفعل النفوس بعوامل الشر تنفعل بعوامل الخير، وقد يصل انفعالها بأسباب الخير اقصى درجاته، فيرتفع شعرها فيه الى اسمى ذرواته، وقد يكون انفعال الشاعر بحب الرسول ﷺ مثلا اشد واقوى من انفعال شاعر بحب غادته اللعوب[١٤].

٣ـ وحجة انشغال المسلمين بالجهاد مردودة ايضا، فالجهاد في سبيل

---

(١٤) انظر حسان بن ثابت ٥٠٥.

الله والفتوحات الاسلامية اكثر الروافد التي أمدت الشعر الاسلامي بالمعاني الجديدة والافكار البديعة والاغراض الطريفة.

ويجب ان نفرق بين العمل المادي الذي قد ينشغل عنه الانسان بعمل آخر،وبين الانفعال الذي لايمنعه مكان أو زمان، فحيثما انفعل الشاعر تفجرت قريحته وسال لسانه بكلمات الشعر.

٤ـ أما ان النبي ﷺ لم يهيء للشعراء مكانا رحيبا في كنفه، فانصرف بعض الشعراء عن قول الشعر، فهو قول غير مقبول، فمن يتتبع مواقف رسول الله ﷺ من الشعراء وتأييده الكبير لهم يعلم ما في هذا القول من بعد عن الحقيقة، ويكفي انه نصب لحسان منبرا ينشد من فوقه الشعر في مسجده وفي حياته، وان زوجه من اخت زوجته مارية القبطية، لا لشيء لمواقفه الشعرية، وفيما اوردنا من اكرام رسول الله ﷺ للشعراء قولا وفعلا دليل يغنينا عن التفصيل في هذا الرد.

٥ـ والقول بان الضعف قد بدأ قبل الاسلام فيه تعميم، فحساب وكعب بن زهير ولبيد والعباس بن مرداس والحطيئة والهذليون وغيرهم من المخضرمين ، ومن تلاهم في العصر الاموي من الفحول المعروفين، كلهم شاركوا في النهضة الشعرية التي امتدت بعد الاسلام ولم تنقطع او تفتر.

أما ان شعر حسان قد ضعف وتراجع بعد الاسلام، لان شيطانه قد تبدل ملكا، فهذا غير صحيح ايضا، لأن معظم النقاد يرون ان ما وجد في شعره من لين وضعف لم يكن في شعره الصحيح بل هو فيما وضع عليه من اشعار.

قال الاصمعي مرة: حسان احد ان فحول الشعراء، فقال ابو حاتم لء اشعار لينة فقال الاصمعي: تنسب له اشياء لاتصح عنه[15].

ومن يتعمق في ديوان حسان يجد ان فحولة شعره لم تفارقه في جاهليته واسلامه، وفي فخامته وعذوبته، ولاشك في ان ما يظهر من لين وضعف في بعض اسلامياته ليس اصيلا في فنه، وانما هو عارض، ساقته ظروف طارئة، أو منحول دس عليه لغرض ديني أو فكاهي[16].

ورأي الاصمعي الذي ردده معظم من قال بضعف شعر حسان بعد الاسلام انما ينبع من ولعه بالغريب، الذي جعله مقياسا لقوة الشعر وضعفه، وهو مقياس شخصي قد لا يوافقه عليه الكثير من النقاد.

ولبيد الذي يستشهدون به على ترك الشعر بسبب الاسلام لم ينصرف عن قول الشعر بعد الاسلام، ومن يتصفح ديوانه يجد له نصوصا اسلامية كثيرة، فكيف يقال انه هجر الشعر بعد اسلامه وفي ديوانه قصيدته الاسلامية:

قضي الأمور وانجز الموعود ... والله ربي ماجد محمود

---

(١٥) الاستيعاب ١/ ٣٣٨.

(١٦) حسان بن ثابت ٣٧.

وقصيدته التي فيها :

إنما يحفظ التقى الأبـرار   والى الله يستقر القرار[١٧]

وحتى الخبر الذي رووه وهو كتابة عمر (رض) الى المغيرة بن شعبة والي الكوفة ان يستنشد من قبله من شعراء الكوفة ما قالوه في الاسلام، وجواب لبيد بأن كتب سورة البقرة، وقوله : ابدلني الله هذه في الاسـلام مكـان الشعـر[١٨] الذي علق عليه الدكتور طه حسين بقوله : وأكبر ظني ان لبيداً أعرض عن الشعر في الاسلام، فلم يتخذه صناعة، ولم يكثر من إنشائه وإنشاده، وانصرف عنه الى القرآن، ولكنه قال في الاسلام غير بيت[١٩].

حتى هذه الحادثة ـ لو صحت ـ لما امكننا تعميمها على كل شعراء صدر الاسلام، فهي حادثة فردية، لم تتكرر مع غيره من الشعراء في ذلك العصر.

وفي الخبر نفسه ما يثبت اهمية الشعر في تلك الفترة، والا لما طلب الخليفة عمر (رض) من واليه ان يوافيه بما قال الشعراء بعد الاسلام.

ومما سبق نخلص الى بطلان دعوى ضعف الشعر الاسلامي، ونؤكـد ان ما استنـد اليه القـائلون بهذه الـدعوى يرجع الى قلة اطلاعهم على النصوص الشعرية او الى تقليد مقولة الاقدمين، او تحميل بعض نصوص القرآن او الحديث او النقاد القدامى اكثر مما تحتمل، وتوجيهها الى غير ما اريد منها.

---

(١٧) الديوان ٤٦ و ٧٩ وانظر ٤٤ و ٩٥ و ١٢٦ و ١٣٩.

(١٨) الاغاني ١٤/ ٩٤ وخزانة الادب ٢/ ٢١٥.

(١٩) حديث الاربعاء ١/ ٤٦.

وعنيت اذاعة الكويت بمثل ما عنيت، حيث بثّت خلال شهر رمضان من عام ١٤٠٣ هـ عدة ندوات ولقاءات مفتوحة بعنوان: «الاسلام والشعر» من تقديم الأديبة منى الطالب، وهذه الندوات والأمسيات لم تخرج في طروحاتها ومحاورها عما قلناه في هذه الدراسة العجلة!

وكما أسلفنا.. فالقرآن ليس بالشعر، والرسول ليس بشاعر، والقرآن ليس بالسحر، والرسول ليس بساحر، وحين اتهمت قريش رسول الله عليه السلام بالكهانة والسحر ردّ عليهم الوليد بن المغيرة فقال: والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه، وقريضه ومقبوضه وبسيطة، فما هو بالشعر!!

ويرد عليهم القرآن رداً مفحمًا قوياً عذباً... ﴿إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر، قليلاً ما تؤمنون﴾.

وقد ورد في طبقات ابن سعد قصة عزل النعمان بن عدي من أرض البصرة، وكان يقول الشعر، وذلك من قبل الخليفة العادل عمر بن الخطاب، حيث قال:

من مبلغ الحسناء أن حليلها
بميسان يسقي في زجاج وحنتم
اذا شئت غنتني دهاقين قرية
وصناجة تجثو على كل منسم
فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني
ولا تسقني بالأصغر المتثلم

لعـــل أمـــير المـــؤمـــنـــين يســـؤوه
تنـــادمـــنـــا في الجـــوســـق المـــتـــهـــدم

فلما بلغ ذلك الخليفة عمر قال: أي والله إني ليسوؤني ذلك. ومن لقيه فليخبره، أني قد عزلته، وكتب اليه: (بسم الله الرحمن الرحيم، حم. تنزيل الكتاب من العزيز العليم، غافر الذنب، وقـابل التوب. شديد العقاب. ذي الطول، لا إله إلا هو، إليه المصير. أما بعد: فقد بلغني قولك: لعل أمير المؤمنين يسوؤه تنادمنا في الجوسق المتهدم (الجوسق: القصر)، انه ليسوؤني وقد عزلتك).

فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر. فقال: والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط. وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني. فقال عمر: أظن ذلك، ولكن والله لا تعمل لي عملاً ابداً، وقد قلت ما قلت، فلم يذكر انه حده على الشراب مع تصريحه بذلك في شعره، لأن الشعراء يقولون ما لا يفعلون!!

وقيل: إن هذه الآية نزلت في شعـراء المشركـين عبـدالله بن الزبعري، وهبيرة بن أبي وهب، ومسافع بن عبد مناف، وأبي عزة الجمحي، وأمية بن أبي الصلت، قالـوا: نحن نقـول مثل قول محمـد، وكـانـوا يهجونه، ويجتمع إليهم الأعراب، يستمعون إلى أشعارهم وأهاجيهم، ولذلك فهم الغاوون الذين يتبعونهم (انظر: تفسير الكشاف ٢ / ٤٤٠).

وبعـــد أن ينتهي القـرآن من تقـرير هذه الصفـات للشعـراء المشركين ومن والاهم، يعود ليستثني الشعراء المؤمنين الصالحين، فبعد أن نزلت ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ توجه حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحه وكعب بن مالك الى الرسول ﷺ وهم يبكون.

قالوا: قد علم الله حين انزل هذه الآية أنّا شعراء، فتلا النبي ﷺ: ﴿إلا الـذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قال: انتم ﴿وذكروا الله كثيرا﴾ قال: انتم. ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ قال: انتم! (تفسير ابن كثير ٣٥٢/٣).

ويمكن أن ينسحب حكم هؤلاء الثلاثة على كل من كان على صفتهم التي وصفهم الله بها... ويمكن أن نستنتج أن القرآن قد ميّز بين فريقين من الشعراء.. فريق استغل فنه فيما ينافي هدي الدين وآدابه، فهو الفريق المعيب الذي حاربه القرآن، وفريق اتجه بشعره إلى العمل الخيّر الجميل، وإلى نصرة الحق أنى وجد، فهو الفـريق الذي اخرجه من ذلك الوصف العام، وأيده بكل قوة. فالقضية إذن فيما يتناول الشعراء من المعاني والأغراض وليست في الشعـر ذاتـه، لأنـه سلاح ذو حدين (د. سامي مكي العـاني، الاسلام والشعر، ص ٤٢ـ٤٥ بتصرف).

وهذا رسول الله ﷺ يقول موضحاً قيمة الشعر عند العرب: «لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين».

وورد في تفسير القرطبي أن الخليل بن أحمد قال: كان الشعر أحب إلى رسول الله من كثير من الكلام.

... ورأينـا كيف أبـاح الإسلام نظم الشعر، واستمع عليه السلام للشعراء، يقول جابر بن سمرة: جالست النبي ﷺ اكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية، وهو ساكت، فربما تبسم معهم.

واستنشد الخزرج شعر قيس بن الخطيم، وأباح لحريم بن أوس الطائي أن يمتدحه بعد انصرافه من تبوك ـ المرجع السابق ص ٦٠

ـ وكتب الدكتور سامي مكي العاني موضوعاً بعنوان (الاستشفاع بالشعر بين يدي الرسول عليه السلام «انظر كتاب الدكتورالعاني» (ص ٦٤-٦٦).

ويروى في نصين فقط أن رسول الله ﷺ قد نهى عن رواية قصيدة أمية بن أبي الصلت التي يرثي فيها من أصيب من قريش يوم بدر، وقصيدة الأعشى في رثاء علقمة بن علاثة، ومدح عامر ابن الطفيل، وقد شك فيهما. قال البغدادي في خزانته: ذكر أن النبي رخص في الأشعار كلها إلا هاتين الكلمتين. . كلمة أمية بن ابي الصلت في أهل بدر، وكلمة الأعشى في علقمة بن علاثة!!

الاتصال واللغة

الاتصال واللغة:

«ليست العربية بأحدكم من اب ولا أم، وإنما هي اللغات، فمن تكلم بالعربية فهو عربي» حديث شريف.

اللغة العربية هي وسيلة الاتصال في الاسلام، وإذا حاولنا ذكر هذه اللغة أو اضعاف دورها فاننا بهذا نقضي على أداة الاتصال الرئيسية في العالم العربي والاسلامي.. ناهيك عن حملات الغزو الفكري البشعة وحملات التغريب الشرسة وهجمات المستشرقين العاتية على هذه اللغة الجميلة!!

نحن نبتعد عن سبيل وحدتنا الاول، وعدونا الصهيوني يقترب من هذا السبيل. ان العدو الصهيوني يدرس لغتنا العربية لابنائه وصبيانه قبل شبابه وشيوخه، انه يعلم لغتنا لا حبا بالامة العربية الاسلامية ولا لسواد عيونها وبترولها وذهبها المكدس، بل حتى يتفنن في كيفية قتلها وسحقها من الداخل[١].

يقول ادوارد هول ـ Edward Hall ـ في كتابه عن (اللغة الصامتة): The Silent Language (ان «الثقافة اتصال» على اعتبار

---

(١) انظر مقالنا في جريدة اللواء الاردنية ـ الاربعاء ١٢/١١/١٩٨٠، قضية للمناقشة/ لغتنا العربية هل هي عاجزة؟ اسامه شهاب.

ان العادات والتقاليد والتراث والخبرات والقيم والمعارف المختلفة كلها تنتقل بين الاشخاص والجماعات والاجيال، وهذا الانتقال أو النقل والتوصيل هو ما يعطيها صفة الاستقرار والاستمرار والبقاء في الوجود. ومن هنا أيضا كان معظم العلماء والمهتمين بدراسة الاتصال يعطون جانبا كبيرا من اهتمامهم بدراسة اللغة بما فيها اللغة الصامتة والحركات والاشارات والايماءات) واستخداماتها باعتبار اللغة هي اداة الاتصال الرئيسية وأداة نقل الثقافة وتوصيلها مثلما هي - في الوقت ذاته - جزء من الثقافة(٢).

اللغة هي الوسيلة المتطورة للاتصال. واللغة باعتبارها نشاطاً فكرياً وعقلياً وابداعياً تعمل على ربط اجزاء الحروف وصورها، وأجزاء الكلمات وتكويناتها الجميلة والفقارية تجعلنا أكثر تفهما لهذا العالم وأكثر احاطة وشمولية بهمومه ومشاكله وأحداثه.. وبمفهوم أوسع تجعلنا أكثر اتصالا وأكثر رقيا.

ازاء هذا كله أقول اللغة هي وسيلة الاتصال المثلى في العالم. وهذه هي اللغة بصورتها العامة الجامعة.

اما اللغة بصورتها الخاصة التي أريد فهي اللغة العربية على وجه الخصوص. كوسيلة اتصال واعلام أولى في الاسلام، حيث تنزلت آيات الله وكلماته بلسان عربي مبين: قال تعالى:

■ ﴿وهذا لسان عربي مبين﴾ ١٠٣ ك [النحل: ١٦].

■ ﴿نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين﴾ ٩٥ ك [الشعراء: ٢٦].

---

(٢) انظر: عالم الفكر، المجلد الثاني، العدد الاول، ابريل - مايو - يونيو ١٩٧١.

■ ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ ٢ ك [يوسف: ١٢].
■ ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوجٍ لعلهم يتقون﴾ ٢٨ ك [الزمر: ٣٩].
■ ﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً قوم يعلمون﴾ ٣ ك [فصلت: ٤١].
■ ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا﴾ ٧ ك [الشورى: ٤٢].
■ ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ ٣ ك [الزخرف: ٣].

اللغة وسيلة الاتصال والتعارف واللقاء والتفاهم والمخاطبة والتعبير. لكن اشكالية اللغة العالمية العمومية كوسيلة اتصال تكمن في هداية البشرية الى اللغة العالمية المتميزة لغة القرآن!! وهذه ليست دعوة الى قومية اللغة العربية ولكنها الرسالة الالهية وطبيعة هذه الرسالة العالمية: قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا﴾ [الاعراف: ١٥٨]. ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الانبياء: ١٠٧] ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [سبأ: ٢٢].

ولهذه الخصوصية فان اللغة العربية هي اللغة المثلى لاتصال العالم ووحدته، وهي في مقدمة المقومات التي يمكن لها أن توحد العالمين: العربي والاسلامي:

في حين أننا نجد دولا اخرى كالولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي والهند وغيرها تحاول جاهدة الى توحيد اللهجات المحلية فيها ـ ما امكن ـ وذلك للحفاظ على وحدتها القومية والوطنية.

يقول الدكتور عبدالعزيز القوصي عن أهمية اللغة بالنسبة للهوية الثقافية: (ينبغي ان ننظر الى اللغة بأنها مدخل هام ومخرج هام.

وعـلى أنها أعـظم عوامل التكامل والتوحيد قوة. وفي حالة العالم العربي ليس الامر صعبا لان تكون اللغة هكذا. ولكن في مناطق أخـرى كغينيا الجديدة يعتبر الموقف بالغ التعقيد، وتمثل وسائل الاتصال الجماهيري عاملا هاما في التأثير في اللغة).

ورغم أن معايير اللغة العربية هي التي تيسر القرارات. الا أن هناك فجوة ذات أبعاد معينة بين اللغة المنطوقة واللغة المعيارية. كما ان هنـاك اللهجات المختلفة. وفي هذه الحالة ينبغي أن تتوصل الدول العربية والاسلامية الى اتفاق فيما يتعلق بالتخطيط اللغوي أو السياسـة اللغـوية ـ تلك السياسة التي يجب تتبعها في وسائل الاتصال الجماهيري ـ وفي الانماط التعليمية المختلفة، وفي الدواوين الحكـومية. وفي التـوثيق والمـراسلات. هذه السياسة اللغوية ـ Language Policy ـ من شأنها أن تيسر التعليم طالما أن اللغة العربية هي وسيط التعليم في كل المستويات، أو على الاقل ينبغي أن تكون كذلـك. كما أنها أيضـا ينبغي أن تسـاعـد على تعضيد الـوحدة الـوطنية. والـوحـدة العربية والاسلامية. وكذلك حماية وتحصين الهوية الثقافية. لذا فان اللغة تمثل ـ كوسيط للمعرفة ـ وكجانب من جوانب الثقـافـة. وكـأداة ثقافية للثقافة، وكعامل ثقافي توحيدي للثقافة ـ قضية ذات اهمية بالغة في عالمنا المعاصر[٣]. وهذا ما دعا الاستاذ فهمي هويدي الى استغاثته: من ينقذ اللغة العربية من مؤامرة اغتيالها؟

---

(٣) مصدر سابق، ص ١٢٦ـ١٢٧، بتصرف نقلا عن:
A.H. El-Koussy, The Role Of deucation For Healthy world Cultural Life.

واستطراداً لموضوعنا : اللغة العربية وسيلة الاتصال الاولى في الاسلام، فقد أردت ابراز دور الاعلام في الشعر العربي وأثره على القتال وذلك في رأي الكاتب العراقي مهدي البصري.

يقول الاستاذ مهدي حسن البصري[٤] : (لعب الشعر العربي ـ والذي كان يمثل أحد أبرز وسائل الاعلام والتعبئة الثورية ـ دوره المؤثر في اثارة العزائم واستنهاض الهمم، وأروع ما وصلنا من الشعر الغنائي ذلك الرجز الذي نطق به المقاتلون في ساحة القتال، والذي تلتمع كلماته مع التماع السيوف وتدمدم مع صهيل الخيول لتتوهج به النفوس حماسة وعزيمة تمضي بهم قدماً في اندفاع لا حدَّ له نحو طلب الشهادة في سبيل الحق والواجب).

اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم ولغة السنة النبوية. ولغة الحضارة الاسلامية الخالدة. لقد استوعبت اللغة العربية التراث اليوناني والاغريقي والفارسي والهندي وسكبته في بوتقة الاسلام.

وكانت للكلمة الشعرية دورها الهام الجاد في الرد على المشركين ودعوة التائهين الى الخير والنفع، في مواجهة الجاهلية المتسلطة وتقديم المنهج الرباني في صورته الحقيقية، وكان حسان بن ثابت الانصاري على رأس شعراء الدعوة يضطلع بهذه المهمة ويتصدر القافلة الشعرية، ورسول الله ﷺ يشجعه قائلاً: «اجب عني، اللهم أيده بروح القدس»[٥].

---

(٤) بين القادسية الاولى/ مهدي حسين البصري، الموسوعة الصغيرة (٨١) منشورات دار الجاحظ للنشر وزارة الثقافة والاعلام، بغداد تشرين الاول ١٩٨٠. ص ٧٣.

(٥) مرجع سابق، ص ٨١.

اللغـــة العـــربية هي سبيلنـــا الامثـل الى الـوحـدة العـربية والاسلامية. ولا يمكن لنا ـ بأي حال من الاحوال ـ ان نفصل هذه اللغة الجميلة عن الرسالة الاسلامية، لان كليهما حفظ الاخر على مدى خمسة عشر قرنا.

يقول الاستاذ احمد محمد جمال حول حقيقة التلازم بين الاسلام واللغة العربية[٦]: (فاللغة العربية ـ ذاتها ـ لغة حية أدت رسالتها في الحياة خير أداء، وعبّرت في عصـورهـا الاولى عن حاجـات المجتمعـات التي تتخـذهـا لغـة لها تعبر بها عن مطالبها والامها وعلومها وآدابها وفنونها، ولا زالت مستعدة للتعبير عن الحياة وما جد فيها، ومستعدة أن تتسع اكثر من ذي قبل لكل جديد مبتكر ومخترع حديث. واللغـة العربية أيضا من أغنى لغات البشر ثروة لفظية تستوعب حاجات الامة الحسية والمعنوية)[٧].

ويقول الدكتور حسين نصار في كتابه (المعجم العربي) لم تنهر اللغـة العربية بانهيار الدولة الاموية، وذلك بفضل القرآن الذي أحاط العربية بهالة من القداسة والجلال غمرت كل مسلم مهما كان جنسه ومهما كانت لغته. فاستمرت حية تتوارثها الألسنة جيلاً بعد جيل بالـدراسات الدينية واتحادها في النشىء، فقد انزل القرآن كتاب العربية الاعظم على الرسول العربي الكريم ليدعو قومه الى سبيل الرشاد، فكان بلغتهم وعلى أساليب كلامهم.

(الادب الاصيل عالمي بطبعه من حيث نزعته الانسانية، لا من

---

(٦) ندوة المحاضرات، رابطة العالم الاسلامي، ص ٩٩ـ١٠١.

(٧) نقـلاً عن كتـاب (المعجم العربي) للدكتور حسين نصار، تقديم الاستاذ مصطفى السقا.

حيث انصهاره في نموذج واحد. والطابع الانساني للادب لا يخرجه عن ذاتيته كأدب أمة خاصة ولا بدمجه في غيره من الادب تحت ما يسمى «عالمية الادب» وكذا الادب العربي . . . اقول الادب وأعني اللغة العربية، حيث ان الأدب مرتبط دائما بلغتها فهو في المصطلح الفني (أدب لغة وهو بالنسبة للأمة الاسلامية الغربية أدب اللغة العربية)[٨].

واكتسبت اللغة العربية عالميتها من عالمية الرسالة الاسلامية التي جاءت للناس كافة[٩].

يقول الأستاذ انور الجندي في كتاب: (خصائص الادب العربي): والادب العربي أدب أمة عريقة وأدب لغة عريقة أيضا، وهو أدب لم يتشكل في صورته الحقيقية الا منذ ظهور الاسلام، الذي جمع العرب في الجزيرة العربية، وبذلك يمكن القول بأن الادب العربي قد تشكل في صورته الحقيقية في الاسلام. اذن يمكن القول بأن أدب كل أمة إنما يشكل ضمير الامة، زائد القيم الفكرية، زائد القيم الروحية التي تعتنقها، زائد جوهر اللغة. ان الاسلام قد أعطى اللغة العربية ذاتية خاصة وطبعته على نحو خاص يختلف به عن آداب الامم الاخرى، فظهرت فنون لم توجد في الاداب الاخرى، واختفت فنون.

هذا الادب الذي يستمد وجوده من التوحيد والنبوة والثقة بالله، والنظر الى الكون بمنظار السماحة والتفاؤل والايمان. أما الفكر الذي تشكل الادب العربي في اطاره فهو القرآن. وأداة هذا الفكر

---

(٨) انور الجندي / خصائص الادب العربي، ص ١٦.

(٩) راجع ما كتبناه عن عالمية الرسالة الاسلامية.

هي (اللغـة العـربية)، وليقـوم هذا الفكـر على اسـاس التوحيد الخالص. . فقاعدة الاسلام الازلية هي اعتقاد بوجود الله الواحد الذي لا يتغير بتغير الزمان والمكان، والله سبحانه وتعالى هو خالق الكون وهو الذي يمسك النظام المترابط في كل لحظة بحيث لو تخلى عنه لتلاشى وانتهى، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، ثم هو عالم الغيب والشهـادة. وهـذا هو المفهـوم الأسـاسي في الفكـر الاسـلامي، ومن ثم فهو الادب العربي - كما يرى الاستاذ انور الجندي - والاسلام بالنسبة الى العرب أساس فكرهم وحضارتهم. ومن هنا صرخ احد الباحثين الاسلاميين المعاصرين: (بل العروبة والاسلام معا. . . !).

لقـد ازدهـرت اللغـة العـربية في عصـور الاسـلام الذهبية، وازدهرت الكتابة والتدوين في العصر العباسي الاول والثاني، وقد أدى هذا إلى ازدياد الاتصال بين أجزاء الدولة الإسلامية، حيث وفـد العلماء والادبـاء والشعـراء من شتى الاقطار الاسلامية إلى بخـارى وسمـرقنـد، وفارس وبيزنطه، حيث أشرق الاسلام في قلوبهم وأنارت الرسالة طريقهم الشائكة من مواطنهم الى أرض الاسلام.

وانـطلق الادب العـربي الاسلامي من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وظهر هذا التأثير واضحاً في النثر والشعر والتأليف والتاريخ والنقد والتدوين والآداب والعلوم عامة. فكان الاسلام هو المحرك والمنبه للكاتب أو للشاعر أو الاديب، فلا يتقول بيتا أو يكتب سطرا الا ويعلم توافقه مع الاسلام وروح الرسالة السمحة، فإما الالتزام والعفة، واما الخروج والاباحة!!

وقد صعق القرآن كبار الشعراء والكهان وسادة البيان والبلاغة، وتحداهم لو جاءوا بسورة من مثله فما استطاعوا. وقد شهد بلغاء العرب وفصحاء الجزيرة الذين عاشوا قبل الاسلام بعظمة القرآن واضافته الخطيرة الى البيان العربي واللغة والادب. وهذا ما دفع الوليد بن المغيرة الى القول: ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أسفله لمغدق وان اعلاه لمثمر وما هو بقول بشر. ومن هنا فان اعظم نتاج الادب العربي انما جاء من خلال تلك الاضافة القرآنية الضخمة وما تبعها من فنون وعلوم وآداب. ولقد كان مفهوم الادب في النطاق الاسلامي: جماعا للاسلوب والمضمون معا.

ان نظرة عميقة الى القرآن: مصدر البيان العربي لتكذب قول الذين يدعون ان الادب العربي نسجت خيوطه من البلاغة اليونانية في الملاءمة بين اجزاء العبارة، فقد بلغ الاسلوب القرآني في مجال الصور ذروة الفن[١٠]، وفاق كل قديم وحديث، هذا القرآن الذي أعجز الكمبيوتر وصرعات القرن العشرين في اعجازه العددي[١١]. بهذه اللغة الجميلة اتصل العالم الاسلامي اتصالا وثيقا وكان كالجسد الواحد - في عصور ازدهاره - والغيت جوازات المرور والسفر وتأشيرات الدخول،.. وكانت جنسية المسلم عقيدته[١٢].

---

(١٠) انور الجندي / خصائص الادب العربي - صفحات متفرقة - بتصرف كبير.

(١١) انظر: الدكتور رشاد خليفه / عليها تسعة عشر، الاعجاز العددي في القرآن.

(١٢) انظر فصل جنسية المسلم عقيدته في كتاب (معالم في الطريق) / سيد قطب.

كما اننا نجد أن النثر العربي بعد الاسلام قد تأثر بأسلوب القرآن في أغراضه وأساليبه من حيث أنه (امتن سبكا وابرع دلالة وآنق ديباجة).

وقد أعلن القرآن حقيقة أساسية: هي أن القرآن ليس شعرا وان الرسول ليس شاعرا، فقد نزه الله القرآن عن الشعر. ونزه الرسول ان يكون شاعرا. وندد بالشعر الذي هو في ذاته منطلق الاهواء. ورسم للادب طريقه (شعرا ونثرا) وفق منهج القرآن والاسلام: أن يقول ما يفعل وأن لا يهيم في أودية الغواية.

وقد وضح عليه السلام فهم الاسلام للشعر. فقال: قولوا ولا يستخفنكم الشيطان. وكل ما يخرج عن الصنعة والاعنات والمباهاة والهوى والتشدق لا يمكن أن يكون ابداعا في الفن، فالابداع في الفن يتضمن الاداء والمضمون جميعا فينكر قول الزور والفخر بالكذب والافراط في مديح من أعطى وذم من منع. والقرآن يضع أساس الاصالة في أن يكون الفن أخلاقيا حين يقرر أن كلا من الفن والادب والعلم انما يبدأ من خلال التوحيد نفسه، ويتحرك في اطاره[١٣].

ان القرآن الكريم دستور الأمة، ورسالة الاسلام، قد وحّد القبائل العربية المتنافرة المختلفة في صعيد واحد هو الاسلام وعظمة التوحيد.

والقرآن الكريم هو أساس الفصاحة والبلاغة العربية، منه

---

(١٣) انور الجندي / خصائص الادب العربي، صفحات متفرقة بتصرف.

انطلق علي بن ابي طالب، وسيبويه، والاخفش، والزجاجي، وابن عقيل في فصاحتهم وبلاغتهم، وكتابتهم النحو وضروبه. وهو بالتالي أساس توحيد الامة العربية والاسلامية في شتى بقاع الارض.

قال ﷺ: «اوتيت جوامع الكلم» ولكنه لا يغفل عليه السلام المبالغة في السجع والصنعة فيقول: «اسجع كسجع الكهان» ولقد ذكر هذا ابن قتيبه حين قال عن القرآن الكريم: القرآن جامع الكثير من المعاني في القليل من اللفظ. وهذا النحوي المسلم ابن جني يقول: الايجاز من الاعجاز، وهذا ما يتميز به القرآن الكريم وتميزت به الاحاديث النبوية الشريفة. حيث جمع القرآن بين الشعر والنثر في صفاتها. وتأثر بهذا النهج الصحابة والتابعون ونلمح هذه الميزة واضحة في الادب الاسلامي وفي كتابات الادباء والمفكرين الاسلاميين ـ على ضحالتهم ـ أقول هذا ونسبة كبيرة من رجال الصحافة والاعلام العرب والمسلمين يعانون من مصيبة محزنة مؤلمة وهي ضعفهم الشديد في اللغة العربية وآدابها.

لقد أوضحت في مقدمات هذه الدراسة ان الاسلام لم يكن ثورة دينية فحسب بل هو ثورة اجتماعية كذلك. وقد صبغ الحياة العربية صبغة خاصة جعلتها في مقدمة الثورات العالمية. ثورة الاقتصاد والسياسة، ثورة في الفنون والاداب، ثورة في الحياة الداخلية والخارجية، انه ثورة حضارية قلبت موازين العالم!

ان معجزة الاسلام الدائمة الرئيسية هي في اللغة العربية، وفي الفصاحة والبيان، اي في القرآن الكريم.

يقول الدكتور شكري فيصل في كتابه: (المجتمعات الاسلامية

في القرن الاول)[١٤] (لقد بدأ الادب العربي منذ ردد الرسول الايات الاولى التي اوحيت اليه على الادنيين من آله وأصحابه الذين آمنوا به طورا جديدا، وشقت له الدعوة الاسلامية مدارجه الجديدة، واستمر في هذه المدارج في الجزيرة حتى أضحى بعد جزءا من الحياة الاسلامية في كثير من الاقطار. وعلى نحو متقارب لما كان للغة العربية ـ حين اتسق ما بينها وبين الدين من صلات. واستوثق ما بينهما من علائق ـ كان الادب كذلك يؤكد صلته بالدين ويحاول أن لا يباعد ما بينه وبينه).

ليس الادب الاسلامي أدب ترف ولهو وتمثيل، أو أدب الخاصة دون العامة، بل كان أدباً خليقا بأهدافه وجذوره وتفرعاته. انما الأدب هذه المادة التي تغزو الناس جميعاً وتسخر للناس جميعا، وانما هو هذه النفسية الهائلة التي تجندها الجماعة في سبيل غاياتها ومثلها، فكان على الذين يريدون القول ان يلتزموا هذه المثل. وأن يستهدفوا هذه الغايات... والا صمتوا[١٥].

هذا الادب يحمل رسالة سامية. وهذه الرسالة السامية تحمله، فلا بأس أن اطلق عليه بعض مفكري الاسلام (أدب الرسالة). ان الدين الجديد كان اسلوبا من اساليب الفكر. ونمطا من أنماط

---

(١٤) وهو بحث نال به الاستاذ شكري فيصل درجة الدكتوراه في جامعة القاهرة باشراف: الدكتور زكي محمد حسن رئيسا، والاستاذ امين الخولي مشرفا، والدكتور أحمد أمين، والدكتور حسن ابراهيم، والدكتور فؤاد حسنين، أعضاء في المناقشة.

(١٥) شكري فيصل / المجتمعات الاسلامية، ص ٣٢١.

السلوك. فكان لابد له ان يترك آثاره في الحياة الفنية التي تتوج الحياة النفسية للناس. وتمثل لاعمق منازعها وتطلعاتها. وتعبر عن مساربها الروحية الموغلة. وخلجاتها الوجدانية البعيدة. . ومن هنا كان يجب للادب في عرف هذه الجماعة الجديدة التي اشربت العقيدة في أكمل صورها، أن يكون قوة فاعلة في نطاق من حقائق الدين وغاياته النفسية والاجتماعية. والادب الذي يخرج عن ذلك ليس جديرا ان يحل في النفوس محل الادب الذي يروى أو ينشد. ولخير للانسان حينذاك ان يملأ قلبه من ايات القرآن وسوره واحاديث الرسول وخطبه [١٦].

ان اللغة العربية هي روح الاسلام ولا تعد جزءا مكملا له، ونحن لا نستطيع ان نتصور وجودنا التاريخي إلا إذا تصورنا لغة القرآن [١٧]. والفكر الاسلامي نحاوره ونقرؤه من لغته؟

وحول قيمة الادب في الاسلام يقول الدكتور شكري فيصل: (هذه المهمة التي اناطت بها الحركة الاسلامية الادب. انما تكتمل في أذهاننا حين نذكر أن الاسلام كان في صورته التعبيرية حركة أدبية معجزة. والقرآن الكريم - وهو الكتاب الذي قامت عليه الدعوة الاسلامية - انما كان أثرا أدبيا بارعا. ملأ أنفس العرب دهشة وروعة وكان بيانه واعجازه سبيلا الى قلوب كثيرة منهم. فلم تكن مهمة الادب في الحياة الاسلامية لتقتصر على أن تكون أداة في

---

(١٦) المرجع السابق، ص ٣٢٢.

(١٧) عبدالقادر الشيخ ادريس/ وقفات مع اللغة والتربية، مجلة الامة، ص ٦. العدد الحادي عشر.

يد الدعوة مسخرة لغاياتها. ولكنها كان للادب قبل ذلك وفوق ذلك قيمته الاصلية الخاصة. . . هذه القيمة التي جاءته من انه كان الاطار الذي انسكبت فيه صور الفكرة الاسلامية. وكان كذلك المادة التي عبرت عن جوهره الفكري ومنازعها الوجدانية ومسالكها الخيرة. فلما ذكر الادب في الدور الاسلامي الادبي ذكرت معه كل هذه القيم الرفيعة التي مثلت للناس به: عرضت لهم بالفاظه، وصورت لهم بأساليبه، وسيقت في مسالكه الفنية المعجزة).

والادب الاسلامي هو أدب الوحدة والجماعة، وسمو الهدف. . أدب الوسيلة والغاية، انه أدب الاتصال بين المشرق والمغرب. وأخيرا هو أدب تماسك الجماعة المسلمة.

وقد كان الارتباط وثيقاً بين قيمة الادب ومهمته. قيمة الادب الرفيعة في الحياة الاسلامية ومهمته. . . وقد كان بين القيمة والمهمة ترابط كامل وصلة متصلة. فالمنزلة السامية التي يهبها المجتمع الاسلامي لهذا الادب تكون وفقا على هذا اللون المحدد من الادب الذي يلتزم الوفاء بالمهمة المنوطة به الموكولة اليه. فليس الادب في الحياة الاسلامية تنفسا فنيا مجردا عن كل غاية، وانما هو تنفس له غايته التي يجب أن ينضوي فيها. ان الصلة بين قيمة الادب ومهمته ليست صلة واعية، ولكنها هذه الصلة المتكاملة: كلما كان الادب اقرب الى أن يفي بحاجات الجماعة كان حظه من التقويم اوفى، ونصيبه من التقدير أوضح وأكرم[18].

---

(١٨) انظر: شكري فيصل/ المجتمعات الاسلامية، ص ٣٢٢، وما بعدها.

انه أدب الجماعة وأدب الادب . . . أن نقل خيرا أو نصمت!

اللغـة العـربية اداة الاتصال والتفاهم . وهي أداة التعبير عن النفس . وأداة التفكـير، وأداة لتحصيل العلم وهي أداة لتـوثيق الروابط بين الناطقين بها وهذه وظيفة اللغة الاجتماعية .

يقول ابن خلدون : (المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده . والسبب في ذلك : ان النفس تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه) انها نظرة واعية ثاقبة تلك التي أشـار اليهـا صاحب المقـدمـة . . . وكأنه يحاكي الامة العربية والاسلامية في القرن العشرين . . . انه التقليد الاعمى . . تقليد للقشور دون اللباب!

واللغة العربية هي مستودع التراث والثقافة والتاريخ والاداب والعلوم . وبواسطتها يذاع هذا التراث وينتشر وينقل من جيل الى جيل . ولذلك كانت اللغة من اهم الوسائل لتعليم الثقافة المشتركة وصهر عناصر الامة في بوتقة واحدة . وتوحيد مشاعرها وعواطفها وآمالها وآلامها . وبوحدتها تكتمل الوحدة السياسية . وهي صمام الامـان لها . وبها نقف أمام التحديات والمؤامرات التي تستهدف تمزقها وتشتتها .

ولغتنا العربية اكتسبت شخصية عالمية باسلامها بما خزنت في المـاضي والحاضر من تراث الامم والحضارات إبان ازدهارها في العصر العبـاسي حيث اتسـع صدرها للترجمة فاستوعبت الاداب والفنـون والمعـارف الاجنبية وهضمتها وارجعتها بعد أن وضعت سماتهـا الاسلامية عليها، وميزتها بشخصيتها العالمية[١٩] . ولكن

(١٩) عبدالقادر الشيخ ادريس / وقفات مع اللغة والتربية ، مجلة الامة . ص ٦-٩ بتصرف .

يبقى السؤال مطروحاً . . أدب اسلامي . . كيف؟ وتلك هي قضية أخرى لنا معها لقاء . . . بل لقاءات، وقد اجاب الدكتور أحمد مطلوب في مقاله آنف الذكر عن بعض خبايا هذا الأدب المتميز! !

★ المرجع: «وسائل الاتصال الجماهيري في الاسلام». اسامه يوسف شهاب، دار المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م.



مدخل حضاري لدراسة أدب الحروب الصليبية

الأدب الإسلامي هو أدب كل العصور، وكل الأمم، وفترة الحروب الصليبية أفرزت أدباً ثراً غنياً. . . وما زال هذا الأدب بحاجة لمزيد من الدراسة والتحليل والغوص والقصد.

وفي قراءة أدب هذا السلف الصالح نتحسس واقعنا المؤلم، ونستكشف مستقبلنا. . أو نحاول ذلك!!

والمسلمون قادة العالم ورواد نهضته - وأرجو أن لا ازعج دعاة النهضة وأبواقها - لا كما زعم الدكتور فؤاد زكريا في محاضرته التي ألقاها في موسم آداب الجامعة الأردنية الثقافي «الفكر العربي والنظام العالمي الجديد» حيث أوضح أن دول العالم الثالث - مع تحفظاتنا على هذا التقسيم - وهي تسعى للاستقلال الثقافي ترتكب خطأين، الأول: اغفال الجوانب الايجابية من النموذج، فتختلط بين ما يوسّع آفاق المعرفة وبين ما يساهم في إذلال الغير. أما الخطأ الثاني فلخّصه الأستاذ الدكتور بمقولة حلم الهيمنة العكسية، وقد قرأنا - والكلام للأستاذ زكريا - كتابات ليست قليلة تقول إنها يجب أن تنتصر على العالم وتنقذه من الفساد الذي يعيشه. وأضاف الدكتور بهذا الخصوص قائلا: إن هذه الاقوال تداعب

أحلامنا ولكنها غير واقعية ومبالغ فيها وخادعة في التحليل الأخير. إذ كل ما نريده كعرب أن يكون لنا مكان لائق تحت الشمس نساهم من خلاله في تعديل وضع النظام العالمي لمصلحة الانسان اينما كان!! (انظر نص المحاضرة في جريدة الرأي الصادرة بتاريخ ١٩٨٣/٥/٩).

★ ★ ★

وهذا البحث يعتبر مدخلا لدراسة أدب الفترة، وقد اقتصرت مطارحتي هذه حول الصراع الحضاري وآثاره الفكرية. ومفارقاته وأقوال بعض علماء الغرب في هذه الحضارة الخالدة القائدة، وذيول الحروب الصليبية الحضارية، كما ربطت بين الصليبيين والصهاينة، علماً بأني قد تناولت نماذج من أدب الفترة والصراع الحضاري.. ذلك اني لا أهوى التركيز على أدب الحروب الصليبية بقدر ما أريد اظهار مدى التمايز والصراع بين حضارتين وأمتين ـ ذلك إن اعتبرت الصليبيين أمة وحضارة؟؟ ـ وهل استطيع الربط بين الصراع الحضاري في أدب الفترة وصراعنا المؤرق مع الصهيونية؟

واتلو قول أصدق القائلين: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير﴾ [البقرة: ١٢٠].

واليهود والنصارى معسكر واحد، والتاريخ الاسلامي شاهد على ذلك، والواقع العربي المؤلم في صراعه يؤيد مطارحتي هذه، اليست اسرائيل ولاية حميمة للولايات المتحدة الامريكية؟

. . . ألم يحاصر الصليبيون قلعة الشقيف / أرنون، وقد حاصرها الصليبيون الجدد؟ وأحسب أن حربنا مع اسرائيل ليست حرب أراض وحدود وكرامات عربية متناحرة بقدر ما هي حرب وصراع حضاري وفكري، حرب الإسلام مع الكفر ـ مهما كانت التسمية ـ حرب النور مع الظلام، ولا ظلال هنا!!

(إن صراعنا مع العدو، صراع وجود لا صراع حدود)[1]، صراع حضاري لا صراع أراض، صراع عقيدة وتاريخ، لا صراع تراب وزرع وثمار!!

وصورة الصليبيين في الأدب العربي تذكرنا بصورة الصهاينة في فلسطين وما اتصفوا به من خداع وغدر ونكث للعهود ونقض للمواثيق، وقد تذكرنا بعض الصور التي نقلها ابن جبير عن حياة مزارعي فلسطين، تحت الحكم الصليبي بصورة مماثلة في الأرض المحتلة ولو لفترة زمنية محدودة. . . هؤلاء القادمون في السفن من اوروبا لاينتمون إلى شعب واحد ينطق بلغة واحدة، وانما هم أخلاط من الشعوب جمع بينهم الدين[2] وهدف الاغتصاب والاحتلال، كما يقول الشاعر شرف الدين بن عنين واصفاً الذين هاجموا دمياط:

قد اجتمعوا رأياً وديناً وهمة
وعزماً وإن كانوا قد اختلفوا السنا

---

(١) هند الحسيني، مجلة العربي، العدد ٢٩١.

(٢) يرى روجيه غارودي أن الصهيونية تستغل الديانة اليهودية منذ قرون لتحقيق أهدافها السياسية.

(انظر تفصيل ذلك في جريدة الرأي ١٢/٣/١٩٨٣).

تداعــوا بأنــصــار الــصــليب واقــبــلت
جموع كأن المــوج كان لهم سفــنــا

وإذا كان التحصن وراء الجـدر والدروع الفولاذية يدل على الاحتراس فإن مسلك الصليبيين القتالي، كان يدل على الاحتراس الشـديد وعـدم مغـامـرتهم بجندهم، وابن الساعاتي لايطيق أن تسكن فلسـطين المقـدسـة جماعة من الناس لاتعرف عهداً، ولا تصدق في يمين[3].

وحول هذا الفهم يقول الدكتور محمود ابراهيم في كتابه «صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني»:

(الاحـداث يذكـر بعضها ببعض، حينما يكون بينها روابط، لاسيما إذا كانت قوية بعيدة الأثر في حياة الناس فلا غرو إذن أن يُذكّـر الغـزو الصهيوني الحديث لفلسطين وما جاورها من أرض العرب بالغزو الصليبي للمنطقة نفسها في المشرق الإسلامي، لا سيما ان كلا الغـزوين ذو طابع استيطاني، وانهما كليهما وفدا من الغرب، واستمدا أسباب قوتهما ومقومات بقائهما منه، فضلاً عن تشابه عجيب في كثير من الوقائع والملابسات التي اكتنفت الغزوين.

ولئن كان من الآثار التي ترتبت على الغزو الصهيوني للمنطقة أن ظهر في أدبنا الحديث شعر ونثر في مقاومة الغزاة، فقد كان من الآثار التي ترتبت على الغزو الصليبي كذلك (ان ظهر عند اسلافنا أدب يقاوم الغزو)[4].

---

(٣) د. محمد بركات أبوعلي/نظرات وآراء، ص ٩٤.

(٤) د. محمود ابراهيم/ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، ص ٣.

والصراع الثقافي. . . صراع المعرفة والعلوم أشد ضراوة وأعمق خطرا من الصراع الـدمـوي، صراع القوة والعنف، لذا فإننا لا نستغرب اغتيال اسرائيل للمؤسسات الثقافية والعلمية ودور النشر في بيروت. . إنها المذبحة الثقافية!!

وكـما يرى سان سيمـون فإن الصراع يعتـبر من مستلزمـات التقـدم، وهـذا الصراع هو الـذي يدفـع الانسـانية إلى الأمـام ويساعدها على التقدم.

وقـد يحدث أن تتصـارع الثقـافـات إذا كانت الثقافة القائمة والثقافة الوافدة على طرفي نقيض. ومهما كانت الجماعات مغلقة أو مفتوحة فإن تقبل هذا الصراع يتم عادة في إطار المشخصات المحلية أو القـومية التي تعـطي لهذه الثقافة الوافدة الشكل الذي تأخذه داخل المجتمع(٥).

والحضارة الإسلامية حضارة متميزة. . ذلك أنها انطلقت من الإسلام وللإسلام، والرسالة الإسلامية رسالة إلهية ربانية، وهذه الميزة الفريدة تجعل أمة هذه الرسالة خير أمة أخرجت للناس، بل وتجعلها كالشامة بين الأمم، كيف لا ورسول الله ﷺ سيتباهى بنا يوم القيامة! ولكنني لا أخالها الأمة العربية في هذا العصر، وهل هي الأمة التي حملت الرسالة وأدت الأمانة؟! وارجو أن لا يتهمني بعضهم بالسوداوية، ولكنه العصر الراهن الذي نعيش في أردانه وزواياه!!

---

(٥) د. محمد طلعت عيسى / مدخل إلى علم الاجتماع، ص ١١٢.

صراع الغرب والشرق صراع قديم، فقد قام صراع في العصور القديمة بين الاغريق والفرس، وتبعه بين الفرس والرومان، وفي العصور الوسطى قام صراع عنيف بين الغرب والشرق. فقبل المسلمون وجود الغزاة الفاتحين فترة من الزمن وكأنه ضربة من ضربات القدر - كما يرى هارولد لامب - التي لا يمكن تفاديها، وراحوا يندبون ضياع مدينة القدس وينتظرون الساعة التي تدور فيها عجلة القدر دورتها فتأذن بعودة المدينة المقدسة إلى حظيرة الاسلام[٦].

تمتد فترة الحروب الصلّيبية من سنة ١٠٩٥ م حين عقد البابا اوربان الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩م) في مجمع (كلير مونت) بجنوب فرنسا، ثم يختلف المؤرخون في تحديد نهايتها!

والمعروف أن هذه الحرب كانت احدى النتائج التي تمخّض عنها المؤتمر الذي دعا إليه البابا أوربان الثاني، وإذا نظرنا إلى الحروب الصليبية باعتبارها حرب المسيحية ضد الاسلام في أضيق الحدود، ومحاولتها إخراجه من النواحي التي تمكنت له السيطرة فيها أمكن اعتبارها امتدادا لحركة الاسترداد الإسبانية أو تشعباً لها ناحية الشرق الإسلامي[٧].

---

(٦) انظر: هارولد لامب/ شعلة الإسلام، قصة الحروب الصليبية، ترجمة محمود عبد الله يعقوب، ص ١٢. وما بعدها.

(٧) د. حس حبشي اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس: ص ٥، بتصرف.

وأعلن هذا البابا غفران الذنوب والتكفير عن المعاصي لكل مشارك في الحروب الصليبية، وأعلن عن عفو حماة الصليب من جميع التكاليف المدنية وقد استنجد الامبراطور البيزنطي الكسيس كومين بالعالم النصراني لانقاذ القسطنطينية.

وهل شكايات حجاج بيت المقدس هي السبب الرئيسي لهذه الحرب الطاحنة الحاقدة؟ أم أن هزيمة البيزنطيين في موقعة منزيكرت ١٠٧١ م جعلت الكنيسة تشعر بالضيق والضعف؟

وقد وجدت هذه الدعوة تلبية من جماعة من بارونات فرنسا وزعماء النرمنديين. ووجدت استجابة من الجماعات الشعبية التي تهيأ لها داعية شعبي راح يجوب آفاق فرنسا والمانيا هو بطرس المعروف بالناسك وما هو بالناسك، ولكنه لقبٌ لُقِّبَ به للبسهِ قلنسوة تشبه قلنسوة النساك، وقد خرج بطرس بجموع كثيفة غير نظامية دلت منذ البداية على الفوضى الضاربة اطنابها بين صفوفها. فلم تكن هناك قيادة موحدة أو خطة مرسومة، فسارت أسوأ سيرة، ولم يسلم المسيحيون الاوروبيون ولا الكنائس الاوروبية في النواحي التي مروا بها من تعدي هؤلاء الصليبيين مما بغضهم الى نفوس من اتصلوا بهم، على أنه قُدِّر لهذه الحملة أن تبلغ القسطنطينية، وأن تعبر البسفور إلى آسيا الصغرى حيث سلكت مفارز عدمت فيها الماء والقوت، فهلك الكثيرون منهم[٨].

---

(٨) د. حسن حبشي /اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٧ بتصرف.

وانظر: الدبلوماسية البابوية من المرجع السابق.

تُرى هل كانت شكاوى النصارى صحيحة إذا ما نظرنا إليها في هدي ما يأمر به الدين الاسلامي من التسامح في العقائد وتشديده على رعاية أهل الذمة واحترام حقوقهم ومعابدهم. قال تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما رضينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾(٩) وأن الانبياء أخوة لا تفاضل بينهم من حيث الرسالة، وأن على المسلمين أن يؤمنوا بهم جميعاً: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾(١٠) ولا اكراه في هذه الرسالة وهذا الدين: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾.

وهذا رسول الله ﷺ يقول: «من ظلم ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة». ناهيك عن وصايا الخلفاء لقادة الجيوش الاسلامية المتجهة للفتح، حتى أن عمر بن الخطاب أبى أن يصلى في كنيسة القيامة وقد ادركته الصلاة، وينتحي حيث بني مسجد عمر بن الخطاب. ومن هذا التسامح الديني العجيب رأينا أنه لا يصلح لحماية الاماكن المقدسة إلا حملة هذه الرسالة السمحة، والحرم الابراهيمي في الخليل يشهد، وصورة عيسى عليه السلام في القرآن الكريم تشهد. وحاخامات اليهود الذين اقتحموا المسجد الاقصى وأقاموا فيه وطردوا المصلين.. يشهدون!!!؟

---

(٩) الشورى: ١٣، البقره: ١٣٦، يونس: ٠٩٩

(١٠) للمزيد انظر كتابي: «وسائل الاتصال الجماهيرى في الاسلام» ص ٤٣ وما بعدها.

إن المسلمين يجلّون السيد المسيح رسول صدق من الله تعالى، وقد سمحوا للنصارى بالاحتفاظ بكنائسهم وصوامعهم في بيت المقدس، . . ويقتحم أبناء يهود جامعة الخليل الاسلامية ويقتلون طلبة العلم، ويجرحون أطفال المدارس والرياض، ويصوبون نحوهم القنابل المسيلة للدموع، ويستشهد أبناؤنا وكانت حجارتهم تقاوم الرصاص وأجسادهم الغضّة أمام فوهات المدافع، وعرب العاربة تشجب وتدين وتستنكر هذا العدوان الغاشم!!!

★★★

ولم يكن يعوق هؤلاء الحجاج النصارى عدا جباية ضريبة صغيرة من كل حاج نصراني ، ولذا لم يتوقع بطرس ـ سواء أكان تاجراً أم مالكاً للأراضي ـ مواجهة أية مصاعب في طريقه إلى حج بيت المقدس، وكانت القدس في هذه الفترة تابعة للدولة الفاطمية في مصر.

ازاء هذا كله هل يستحق انقاذ بيت المقدس وحماية النصارى هذه الحملات المتتابعة الشرسة، إن تتابع الحروب الصليبية يعطينا دلالة واضحة على ديمومة هذا الصراع[11].

---

(١١) حاشية: ١ . الحملة الصليبية الاولى ١٠٩٥ ـ ١٠٩٩
٢ . الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧ ـ ١١٤٩
٣ . الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩ ـ ١١٩٢
٤ . الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٢ ـ ١٢٠٤
٥ . الحملة الصليبية الخامسة ١٢١٧ ـ ١٢٢١
٦ . الحملة الصليبية السادسة ١٢٢٨ ـ ١٢٢٩
٧ . الحملة الصليبية السابعة ١٢٤٨ ـ ١٢٥٤ =

هذا الزحف الصليبي المتقدم إلى الجنوب حيث انطاكية، تمكن من استغلال سوء حال المسلمين وتفتت القوات الاسلامية وتنازعها فيما بينها آنئذ ـ وما أشبه الليلة بالبارحة ـ وتمكنت بفضل هذين العاملين من احتلال انطاكية، واستقر فيها بوهيمند النرمندي، ثم سارت الحملة واحتلت طرابلس حتى تهيأ لها الوصول إلى بيت المقدس فانتزعته لنفسها، وتولى أمره جود فروي دي بويون الذي أبى أن يتوج في المكان(الذي توج فيه المسيح بالشوك)[١٢].

وأعجب من بعض الدارسين العرب الذين يطلقون على أمثال هؤلاء.. لفظة «الحجاج»، هؤلاء الذين نهضوا لقتال المسلمين واحتلال ديارهم وما الحج إلا طاعة الله سبحانه ـ أو هكذا ينبغي أن يكون ـ وقد رسخ في أذهان الاوروبيين النصارى من أبناء الشعوب الجرمانية والشمالية والافرنجيةوالايطالية بوجوب انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين... وكانت هذه الحروب حلقة من سلسلة الصراع الحضاري بين الاسلام والكفر منذ أيام التاريخ الأولى.

.. فدحر المسلمون جيوش الامبراطوريتين الفارسية والرومانية وامتدت اجنحة الاسلام من الصين إلى سواحل الاطلسي، ومن ثم عبر المسلمون البحر إلى القارة الاوروبية حيث اقاموا دولة اسلامية في الاندلس وسيطروا على جزيرتي سردينية وصقلية. وعندما بدأت عوامل الضعف تدب في الدول الاسلامية لاح للغرب النصراني

= ٨. الحملة الصليبية الثامنة. ١٢٧

(١٢) الدكتور حسن حبشي/ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٨ بتصرف.

بريق أمل فشرع أواخر القرن العاشر الميلادي بهجوم معاكس لاستعادة السيطرة على المشرق وسحق الاسلام والمسلمين.

وتعاضد المسلمون من عرب وتركمان وأكراد ضد هذا العدو القادم، وهذا الاستعمار الجديد!!

وكما يلتقي الاعداء في مواجهة الخطر الاسلامي الآن، التقى ملك انكلترا ريتشارد الأول وملك فرنسا فيليب اغسطس، واجتمعت اوروبا في عصورها الوسطى على هُدف مشترك، هو تحرير بيت المقدس من المسلمين وسط باعث ديني متوقد سأتحدث عنه بعد قليل. ونلاحظ أن قادة الحروب الصليبية هم من الرهبان والقساوسة والقديسين، فهذا القديس لويس ملك فرنسا يقود آخر الحملات الصليبية إلى مصر، بعد أن مرّت مدة تقرب من مائة وخمسين سنة على قيام مملكة بيت المقدس.

يقول ابن الاثير في الكامل عن حوادث سنة (٦١٧ هـ - ١٢٢٠م): (لم ينل المسلمون أذى وشدة منذ جاء النبي ﷺ إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن، هذا العدو الكافر التترقد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها، والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا إلى مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها. ولم يقدر المسلمون على ازعاجهم عنها، ولا اخراجهم منها، وباقي ديار مصر في خطر وانا لله وإنا اليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..).

وعند ظهور المغول قوة جديدة هائلة في الشرق أخذ النصارى في المنطقة ينظرون إليها نظرة تطلع وأمل لتساعدهم على المسلمين. وقد شاءت الظروف في تلك الفترة الحاسمة أن يظهر خاقان المغول

ميلاً نحو النصرانية في مذهب النسطوري بعد أن اعتنقها بعض وزرائـه وكبار رجاله، وباعتناق المغول النصرانية طوّق المسلمون تطويقاً خطيراً من الشرق والغرب.

وفي يوم ١٥ تموز ١٠٩٩ (شعبان ٤٩٢ هـ) اقتحم الصليبيون أسـوار القدس الشريف بعد القضاء على مقاومة واليها الفاطمي افتخار الدولة، وقد استبشر الصليبيون بذلك فقد كان دخولهم لها يوم الجمعة بعد الزوال. وكان ذلك النصر الصليبي بداية لمذبحة مروعـة ينـدى لها جبـين الانسـانية خجـلاً ويصفهـا المؤرخـون الاوروبيون بأنها كانت نتيجـة جنـون جماعي انتـاب الصليبيين وجعلهم يخوضـون في دماء سبعين ألفاً من المسلمين حتى ركاب الفرسان ولم يرحموا امرأة أو شيخاً أو طفلاً رضيعاً وبعد أن نقعوا غلّ صدورهم ذهبوا يصلون ويرفعون أكفهم الملطخة بالدماء إلى الله شكراً على ما أولاهم من نصر!!

والصـورة المقـابلة النقيضـة لهذه المـذبحـة... عندما دخل المسلمـون بقيادة السلطان الناصر صلاح الدين الايوبي القدس الشريف (في الثاني من تشرين الأول ١١٨٧ م المصادف يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ) حيث لم يقو الصليبيون فيه على المقاومة اكثر من اسبـوعـين بعد أن سحقه الجيش الاسلامي قبل اشهر قليلة المحاربين الصليبيين في معركة حطين الخالدة يوم ٤ تموز ١١٨٧ المصادف ٢٤ ربيع الأول وشاءت مشيئة الله تعالى أن تعيد المسجد الاقصى إلى حوزة المسلمين في يوم معراج خاتم النبيين محمد ﷺ. واظهر صلاح الدين الايوبي من الشهامة والنبل في معاملته الأعداء المنـدحـرين وتمسكه بالتسامح الذي اوصى به الدين الحنيف ما

خلّده في التأريخ الانساني، فبعد وفاة صلاح الدين بسبعة قرون أي سنة ١٨٩٨م وقف قيصر المانية (ويلهلم) الثاني يخاطب ضريح صلاح الـدين في دمشق قائلا: (إنني أشعر بالغبطة بل بالخيلاء عندما اجد نفسي في بلد عاش فيه رجل لا يجارى في فروسيته ونبل خلقـه، بطل عـمّت شهرته ارجاء العالم وذلك هو البطل صلاح الـدين الايوبي)، وتقـدم الامبراطور الالماني بخشوع ووضع على الضريح تاجاً مرصعاً بالأحجار الكريمة وقد كُتب عليه بالعربية (من ويلهلم الثاني قيصر المانية وملك بروسة تذكاراً للبطل السلطان صلاح الدين الايوبي)[١٣].

الباعث الديني:

لعل أصدق تعريف للحروب الصليبية يحدد ماهيتها ـ وأميل إليه ـ هو تعريف الكونت ريان الشامل لها من أنها (حرب دينية خالصـة، دوافعهـا دينية خالصـة، وتـرمي الى اسـترداد الاماكن المقدسة عن طريق مباشر وغير مباشر)[١٤].

وبدأ مؤلف مجهول كتابه بما اعتاد المسيح أن يقوله دائماً لاتباعه، مصداقاً لما جاء في الانجيل، (إن اراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني).

(متى ١٦ : ٢٤، مرقص ٨ : ٣٤، لوقا ٩ : ٢٣)[١٥]:

---

(١٣) انتوني ويست/ الحروب الصليبية ص ص ٩ـ١٠ بتصرف.
(١٤) د. حسن حبشي/ الحروب الصليبية الاولى، ص ٧.
(١٥) د. حسن حبشي/ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، مترجم، صفحات متفرقة.

وذلك حتى يشتعل الحماس الديني في نفوس حملة الصليب، ويأتي بعض الباحثين وينكر هذا الباعث أو يتجاهله، وإن أشار إليه فهي اشارة عابرة حينية!!

يقول الدكتور جمال الدين الشيال في تقديمه الكتاب هارولد لامب: شعلة الاسلام «قصة الحروب الصليبية»، ترجمة محمود عبدالله يعقوب: (إن هذه الحروب الصليبية لم يكن الدافع الوحيد لها الدين وإنما كانت وراءها دوافع أخرى كثيرة أقوى من الدين واخطر منه شأناً، تتصل بالاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في اوروبة في ذلك الوقت. وكانت أمامها أهداف أخرى أكبر من الرغبة في استخلاص بيت المقدس؛ فقد كانت ترمي إلى اقتطاع أجزاء كبيرة من العالم العربي الاسلامي. وإقامة ملك اوروبي فيها فهي لهذا تعد الحلقة الأولى من حلقات الحركة الاستعمارية الاوروبية) - كما يقول الدكتور الشيال - ولهذا نرى نحن ان الاستعمار الاوروبي للبلاد العربية لم يبدأ في القرن التاسع عشر كما يحاول أن يصوره معظم المؤرخين وإنما بدأ مع الحملة الصليبية الأولى.

وانني اخالف الدكتور جمال الشيال حول مطارحته هذه ايماناً مني واعتقاداً بانها حرب صليبية بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى.. وإن اقتطع الصليبيون ساحل الشام كله وأقاموا فيه اماراتهم اللاتينية الاربع[١٦] وإن توغل هؤلاء في قلب أرض الجزيرة...، ناهيك عن حملاتهم المتعددة على مصر!! ترى ماذا يعني اقامة تحالف مع الحبشة الدولة المسيحية الافريقية واغرائها بتحويل مياه

(١٦) امارة الرها، امارة انطاكية، مملكة بيت المقدس، امارة طرابلس.

نهر النيل عن مصر؟!

فكان الصليب عند حملته الرمز المنظور للحق السرمدي، وكانوا ابناء الله يستميتون في اتباع السيد المسيح، ولم يكونوا ليرضوا بالسير في طريق آخر!

وهل حماية كنيسة الجثمانية Garden of Gethsemane يعني قتل سبعين ألف مسلم، وهل تحرس صخرة الصليب بالسيوف الملطخة بالدم والجريمة؟! وعلى هذه الصخرة بنى الصليبيون مذبحاً رخامياً، كما أقاموا صليبا فوق القبة التي كانت تظللها، ونظر المسلمون إلى هذا كله وانتظروا أن يقلب القدر صفحات كتابه(١٧) . . . . لا مداراة في الاسلام، ولا مداهنات على حساب العقيدة. . دار الاسلام أو دار الكفر ولا توجد منطقة مظللة بينهما!! لذا فإنني ضد الحوار الاسلامي النصراني وهذه اللقاءات الودية الرحبة!! ـ (انظر الحوار الاسلامي المسيحي في طرابلس ١٩٧٦). ولا مراء في أن نقول الحروب الصليبية وحصوننا مهددة من داخلها، ولعمري أن حصون النصارى التي بين ظهرانينا لأخطر من الكنيست الصهيوني على الأمة العربية والإسلامية!!

(والواقع أن البابوية قامت بدور كبير في توجيه الفرسان إليه من فرض سيطرتها الروحية والدنيوية على العالم المعروف وقتذاك على أن الامراء والفرسان وتجار دويلات المدن الايطالية لم يستجيبوا لنداء البابا اوربان الثاني ـ آنف الذكر ـ إلا لأنهم رأوا في خوض هذه الحرب وسيلة لتحقيق مطامعهم التي ليست من شيء إلا الاسم،

---

(١٧) انظر هارولد لامب/ شعلة الاسلام، ص ١٤.

كإقامة الامارات والاقطاعات في الشرق ومن هذه المطابع أيضاً ما تطلعت له دويلات المدن الايطالية كالبندقية وجنوه من الحصول مباشرة على غلات الشرق ومصنوعاته بأثمان بخسة بفضل ما تقيمه في شرق البحر المتوسط من مراكز تجارية) [١٨].

وهل أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا إلا صورة من صور هذه الدويلات المتناحرة لنهب خيرات أرض الاسلام؟.. ترى هل تداعت علينا الأمم كما تداعت الأكلة إلى قصعتها؟!

ولا يغفل الباحث الواعي دور الباعث الديني في إحياء هذه الحرب واشعال نارها، ويتمثل في رد الفعل النصراني المشبع بالحقد على الاسلام؛ فقد كانت القسطنطينية قاعدة النصرانية وملاذها منذ الاصطدام الأول بين الاسلام والنصرانية ممثلة في رومة البيزنطية في معركة مؤته «٦٣٤م - ١٣هـ» ثم هزائم النصارى في معركة اجنادين، ومعركة اليرموك الحاسمة «٦٣٦ م - ١٤هـ» واستسلام بيت المقدس للمسلمين في سنة «٦٣٧م - ١٥هـ» ودخول الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضى الله عنه إليها بعد أن تسلم مفاتيحها شخصياً، وأوغل المسلمون بعد ذلك في فتوحاتهم شرقاً وغرباً، فقرع الخليفة المعتصم أبواب عمورية في الأناضول سنة «٢٢٣ هـ - ٨٣٧م» وقبل ذلك كان المسلمون قد عبروا الى اسبانية بقيادة طارق بن زياد سنة (٧١١م)، ووصل المسلمون إلى اواسط فرنسا في بواتييه Poitiers حيث خاضوا معركة بلاط الشهداء التي أسفرت عن انسحابهم وتراجعهم في سنة (١١٤هـ - ٧٣٢م)، وهدد المسلمون القسطنطينية مراراً، وسيطر

(١٨) انتوني ويست/ الحروب الصليبية، ص ١٨ بتصرف.

المسلمون على جزر البحر المتوسط من رودس إلى صقلية، وعلى جنوبي شبه جزيرة ايطاليه.

وعندما ظهر السلاجقة وهزم السلطان السلجوقي الب ارسلان الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجنيس في معركة ملاذكرد الحاسمة سنة (٤٦٣هـ - ١٠٧١م) ادرك النصارى الخطر الداهم الذي بات يهدد القسطنطينية بسبب سيطرة السلاجقة على آسيا الصغرى واتخاذهم مدينة نيقية على بحر مرمرة عاصمة لهم [١٩].

وهذا العماد الاصفهاني يركز على الباعث الديني الذي نحن بصدده، وتناولناه خلال الصراع الحضاري في هذه الفترة حيث يقول: (يحملون صليب الصلبوت: وهو الذي اذا نصب واقيم ورفع، سجد له كل نصراني وركع، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم، فهو معبودهم ومسجودهم وقد غلفوه بالذهب الاحمر وكلّلوه بالدر والجوهر وأعدوه ليوم الروع المشهد)[٢٠].

مفارقات هذا الصراع:

نحن أمام حضارتين متمايزتين أولاهما انسانية عالمية والأخرى متوحشة حاقدة فقد هاجم أرناط قوافل الحجاج المسلمين وهم في طريقهم إلى الحرمين، ثم وضع خطة سنة ١١٨٢ للهجوم على مكة والمدينة [٢١].

---

(١٩) انتوني ويست/ الحروب الصليبية، ص ١٩ وما بعدها بتصرف.
(٢٠) العماد الاصفهاني/ الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٨٤.
(٢١) تفصيل ذلك في الروضتين، ج ٢، ص ٣٧. (٤) مرجع سابق ص ٨٦٦.

ناهيك عن حقد الصليبيين على المسلمين في عكا، حيث ساق ريتشارد قلب الأسد أسرى المسلمين (وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم) إلى تل العياضية حيث (قتلوهم طعناً وضرباً بالسيف)[٢٢].

وشتان بين هذا السلوك الهمجي الذي اتبعه ريتشارد في ذبح أسرى المسلمين، وبين السلوك الانساني الذي اتبعه صلاح الدين عقب انتصاره في حطين ثم عقب استيلائه على بيت المقدس، إذ حرص صلاح الدين دائماً على السماح لأهل المدن التي استولى عليها من الصليبيين، بمغادرتها سالمين، ومنع رجاله من الاعتداء عليهم أو التعرض لهم، بل إنه لم يضن على ريتشارد نفسه أثناء مرضه بالفاكهة والثلج وأرسلها إليه والصليبيون يحاصرون عكا. ومن الواضح أن ذلك العمل الوحشي الذي اتاه ريتشارد مع أسرى عكا لم يكن له نتيجة سوى تأجج نار الثأر في قلوب المسلمين وإثارة نقمتهم، وهم الذين لم ينسوا بعدما فعل صليبيوا الحملة الأولى بالمسلمين في بيت المقدس سنة ١٠٩٩. ومع كل ذلك فقد أبى صلاح الدين أن يرد على وحشية ريتشارد بالمثل، ورفض أن يقتل من كان في حوزة المسلمين من أسرى الصليبيين، وهم أعظم عددا بكثير من أسرى عكا المسلمين[٢٣].

فأرسل الى ريتشارد ما طلبه في مرضه من فاكهة وثلج حتى شفي والتاريخ شاهد على ان البقاء للمتحضر وليس للمتوحش، وإن طالت سنوات الاغتصاب!! واعتقد أن وجه المقارنة بين المعسكر

---

(٢٢) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي، ص ٢٩٣. وابو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ١٨٩.

(٢٣) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي، ص ٣٦٥.

الاسلامي والمعسكر الصليبي مقارنة غير عادلة وغير موضوعية، . . انها مقارنة بين النور والظلام . . . فهل يمكن ذلك؟ . . . والضد يظهر حسنة الضد!!!

. . لدينا مذابح صبرا وشاتيلا في لبنان، ولدينا عفو صلاح الدين عن الصليبيين في هذا العصر الذي نحاوره أو نحاول ذلك!!

(انظر ما كتبه حلمي الاسمر/صبرا وشاتيلا مجزرة حضارة، دار العدوي للطباعة والنشر، عمان، ١٩٨٣) .

أدب الفترة والصراع الحضاري:

نستطيع دراسة فترة الحروب الصليبية من خلال أدب الفترة تلك، وتبدو النزعة الدينية واضحة جلية في أدب هذا العصر، وبرزت النزعة الدينية في معظم الفنون الشعرية. . . في مديح القادة، ورثاء الابطال، كما برزت كذلك في شعر الجهاد، وشعر الوحدة، وشعر التصوف، . . . وواكب الشعر الوقائع الحربية، والتقت امتان، واصطرعت حضارتان. . وكان أدب الفترة يمثل هذا الصراع!

وانطلاقا من مطارحتنا حول أهمية الباعث الديني، وتسمية هذه الحروب، بل وتجمّع قوى الصليب الايطالية والفرنسية والاوروبية بعامة، حيث التقت قوى الكفر في سبيل تحرير بيت المقدس من المسلمين. . بل اغتصابه!!

وكان احتكاك بعض الشعراء مع الصليبيين احتكاكاً مباشراً، مثل الشاعر المتميز ابن القيسراني، حيث التقى هذا الشاعر مع حملة الصليب، وكان لهذا اللقاء صداه!

وقد قدّم لنا ابن القيسراني هذا الصراع في إطاره العام، باعتباره صراعاً بين المسلمين عامة وغزاة الديار الاسلامية.

يقول الدكتور محمود ابراهيم في كتابه «صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني»: يستبين القارىء لشعر ابن القيسراني في القتال ضد الصليبيين منذ البداية الطابع الديني الذي أضفاه على المعركة. ففي أول قصيدة وصلتنا من شعر ابن القيسراني الجهادي، وهي القصيدة التي نظمها في تاج الملوك بوري صاحب دمشق سنة ٥٢٣ هـ، اثر انتصاره على الصليبيين، ينعت الشاعر الاعداء بـ «المشركين»:

حتى إذا ما احاط المشركون بنا
كالليل يلتهم الدنيا له ظلم

ويقدم لنا قائد المعسكر الاسلامي محوطاً بعناية الله:

يحوطك الله صوناً عن عيونهم
والله يعلم من بالله يعتصم

والمنهزمون ترتبط هزيمتهم بشعائر دينهم حين يستسلمون لأيدي المسلمين:

فغادروا أكثر القربان. وانجفلوا
وخلّفوا أكبر الصلبان وانهزموا
مستسلمين لأيدي المسلمين وقد
أغرى القنا بتمادي خطفهم منهم[٢٤]

لقد تحولت المساجد إلى كنائس، تعلّقها في محاريبها الصلبان، وتذبح فيها الخنازير المحرمة، وتحرق المصاحف في المساجد.

---

(٢٤) انظر هذه القصيدة في الروضتين ج ١، ص ١٤١-١٤٢.

ذكر ابن الاثير في تاريخه وهو يستعرض حوادث سنة إحدى وتسعين وأربعمائة أن الفرنج استولوا على معرة النعمان بعد حصار طويل، ولما تخاذل أهل البلد، وتركوا الأسوار، دخلها الفرنج، ووضعوا السيف في المسلمين ثلاثة أيام، وقتلوا ما يزيد على مائة ألف، وسبوا الكثير وخربوا البلد[٢٥].

وقد عبّر عن هذه الحادثة الشاعر وجيه بن عبدالله بن نصر التنوخي بقصيدة قال فيها:

أحلَّ الكفرُ بالإسلام ضيمًا
يطولُ عليه للدِّين النَّحيبُ

فحقٌّ ضائع وحمى مباحُ
وسيفٌ قاطعٌ، ودمٌ صبيبُ

وكم من مسلمٍ أمسى سليباً
ومسلمةٍ لها حرمٌ سليبُ

وكم من مسجدٍ جعلوه ديراً
على محرابه نُصِبَ الصليبُ

دمُ الخنزير فيه لهم خلوقٌ
وتحريقُ المصاحف فيه طيبُ

أتسبى المسلمات بكل ثغرٍ
وعيشُ المسلمين إذاً يطيبُ

أما لله والإسلام حقٌّ
يدافعُ عنه شبان وشيبُ

---

(٢٥) الكامل ج ١٠ ص ٢٧٨، تاريخ معرة النعمان ص ١٤٢.

فقـل لذوي البـصـائـر حيث كانـوا
أجـيبـوا الله ويحـكـم أجـيبـوا[٢٦]

لقـد تصـوّر الشاعر أنهم يتخذون من دم الخنزير طيباً وعطراً يتـطيبـون به، وأن في دخـان النـار الـذي يتصاعد من أوراق المصـاحف بخـوراً يطيبـون به أنفسهم، وهذا الأمر المؤلم فيه ذل للمسلمين ما بعده ذل![٢٧].

وفي سنـة ست عشرة وستـمائـة يشـاء الله أن يضعف حال المسلمين، بعد أن كانوا قد استردوا المسجد الاقصى أيام صلاح الـدين، فيحاصرهم الافرنج، ويضيقون عليهم الخناق، وذلك أيام الملك المعـظم عيسى صاحب دمشق مما جعله يخرب بيت المقـدس خشية استيلاء الفرنج عليه. وقد أثار عمله هذا سخط المسلمـين ونقمتهم، ويبكي الشعراء بيت المقدس ومنهم شهاب الدين أبي يوسف يعقوب بن المجاور حيث يقول:

لتـبـكِ على الـقـدس الـبـلاد بأسرهـا
وتـعـلنُ بالأحـزان والـتّرحـات
لتـبـكِ عليهـا مكـةٌ فهـي أختـهـا
وتـشـكـو الـذي لاقـت إلى عرفـات
لتـبـكِ على ما حل بالـقـدس طيبـةٌ
وتشرحُـهُ في أكـرم الحـجـرات
فمـن لي بنـوَّاحٍ ينـحـن على الـذي
شجـاني بأصـوات لهن شجـاة

---

(٢٦) النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٥١.
(٢٧) انظر: محمد علي الهرفي: شعر الجهاد في الحروب الصليبية ص ١٨٩ وما بعدها.

مدارسُ آياتٍ خلت من تلاوةٍ
ومنزل وحي مقفر العرصات[٢٨]

وهذا ابن القيسراني يعقد مجموعة من المقابلات بين الصور الاسلامية والمسيحية حين يمدح نورالدين[٢٩] وهو يرى في فتح الرها على يد عماد الدين، أمراً يتجاوز الصراع العسكري إلى الصراع العقدي:

لقد كان في فتح الرهاء دلالة
على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجون ميلاد ابن مريم نصرة
ولم يغن عند القوم عنهم ولاده
مدينة افك منذ خمسين حجة
يغلّ حديد الهند عنها حداده

وبعد موقعة «إنّب» يربط ابن القيسراني ما بين هزيمة الصليبيين ومجموعة من المعاني الدينية:

أغرت سيوفك بالافرنج راجفة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمه
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضا
وكان دين الهدى مرضاته الغضب

(٢٨) الروضتين ج ١ ص ٢٠٦
(٢٩) انظر كتاب الروضتين ج ١، ص ٥٠

طهّرت أرض الاعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً
من الملوك فنور الدين محتسب[٣٠]

والصليبيون عند ابن القيسراني قوم غدر لا يؤمن جانبهم، ولذا فإن ما نزل بهم من هزائم، كان جزاء وفاقاً على خيانتهم:

خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم
فاستسلموا وهي لا نبع ولا غرب
كذلك من لم يوق الله مهجته
لاقى العدى والقنا في كفه قصب[٣١]

وهذا الشهاب يصف معركة عكا فيقول:

الحمد لله زالت دولة الصُلبِ
وعزَّ بالترك دين النبي العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت
رؤياه في النوم لاستحيت من الطلبِ
لم يبق بعدها للكفر إذ خربتْ
في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب
يايوم عكا لقد أنسيت ماسبقت
به الفتوح وما قد خطَّ في الكتب

وقد بدأ الشاعر هذه القصيدة باظهار الفرح والسرور على زوال

(٣٠) انظر كتاب الروضتين ج ١، ص ١٥٣.
(٣١) د. محمود ابراهيم / صدى الغزو الصليبي، صفحات متفرقة، نقلا عن «الروضتين».

دولـة الصليبيين، ورفعة المسلمين وظهور شأنهم. وهذا الأمل لم يكن المسلمون في السابق يحلمون به، وها هو ذا الآن قد اصبح حقيقة واقعة يلمسها الجميع. ويبرز الشاعر هنا حقيقة تاريخية وهي الدور العظيم الذي قام به الاتراك للدفاع عن الإسلام. ويشير الشاعر إلى حقيقة أخرى وهي أن دولة الصليبيين في بلاد الشام بسقوط عكا في أيدي المسلمين تكون قد انتهت، ومن هذا المنطلق يقول الشاعر: إن على الصليبيين أن يبادروا بالهروب إلى ديارهم بعد أن لم يبق لهم ملجأ في ديار المسلمين [٣٢].

وجاء في الروضتين أن السلطان صلاح الدين التقى الصليبيين وأنـزل الله نصره على المسلمين، وأسر فرسانهم وشجعانهم، وانهزمت رجالاتهم في أول اللقاء، فكان في جملة الأسرى مقدم الـداوية، ومقـدم الاسبتـارية، وصاحب طبرية، وأخو صاحب جبيل، وابن القمصية، وابن بارزان صاحب الـرملة، وصاحب جنين وقسطلان ويافا، وابن صاحب مرقية، وعدة كثيرة من خيالة القدس وعكا من البارونية وغيرهم من المقدمين الأكابر ما زاد على المائتين ونيّف وسبعين سوى غيرهم[٣٣].

وقد مدحه ابن سناء بعد هذا الانتصار العظيم بقصيدة نونية منها:

أقـمـت بها الـتـوحـيـد لله وحـده
وأنـسـيت فيهـا الـروح والأب والابـن

---

(٣٢) محمد علي الهرفي/ شعر الجهاد ص ٣٣٤.
(٣٣) الروضتين ٢-٨.

ولما رأوه أدبروا حين عاينوا
أعنة خيل لا تعود ولا تثني
وقد وقفوا لكن لأسر رقابهم
وقطف رؤوس منهم آن أن تجنى

الى أن يقول :

وقد أصبح الاسلام والكفر كلما
بنيت لذا ركنا هدمت لذا ركنا

حيث وصف الشاعر هؤلاء الملوك وهم يرفلون في قيود الحديد، ويبكون أنفسهم خوفاً وحسرة، وكل منهم يلعن نفسه، ويشكو مما أصابه (٣٤).

وهذا ابن منير الطرابلسي يمدح نورالدين بقصيدة اثنى فيها عليه حيث قام بنصرة الاسلام، واستطاع أن يعيد إليه قوته ومكانته فقال :

رددت على الاسلام عصر شبابه
وثباته من دونه وثباته
سبغت على الإسلام بيض حجولة
واختال في أوضاحها جبهاته
صدم الصليب على صلابة عوده
فتفرقت أيدي سبا خشباته (٣٥)

وأسأل نفسي : هل ركن المسلمون لقول الشعر والخنوع لهذا

---

(٣٤) مرجع سابق ص ٣٧٤ بتصرف.

(٣٥) الروضتين ج ١، ص ٦٠ وانظر بحثنا «القدس في شعر الحروب الصليبية» مجلة هدي الاسلام عمان العدد التاسع، رمضان، ١٤٠٣هـ.

العدو الغاصب؟ أم سبقت أفعالهم أقوالهم؟ . . . هل عقدوا معاهدات صلح على غرار مخيم ديفيد؟!! . . أم كان السيف هو الفيصل في هذا الصراع الثقافي الحضاري الديني الفكري ـ إن صحت هذه التركيبة ـ رحم الله أياماً كان الرجال فيها رجالاً حقاً؟!!

الأثر الحضاري:

ثمة اتصالات تمت بين الشرق الاسلامي والغرب النصراني في العصور الوسطى قبل بداية الحركة الصليبية، ولكنها كانت اتصالات فردية محددة لا تتعدى تبادل الهدايا والكتب بين الملوك والحكام عن طريق بعض السفراء والمبعوثين أو مجيء بعض الحجاج الفرادى من الغرب الاوروبي لزيارة بيت المقدس، ثم عودتهم بالسرعة التي حضروا بها دون أن يسمح لهم بالتجول في البلدان الاسلامية إلا في ظل قيود معينة[٣٦].

وقد صحب الحروب الصليبية نشاط فكري وحضاري، إذ وجد من اللاتين الذين استقروا في الاراضى المقدسة من كتب التاريخ مثل «وليم الصوري»، أو في القانون مثل «حنا الابليني» و «فيليب نافاري» [٣٧] واعتمدت في بحثي هذا على عدد غير يسير من كتب هؤلاء. . . الذين صحبوا الحروب الصليبية، وأحسب أن شهاداتهم ـ إن صدقاً أو كذباً ـ لها أهميتها الخاصة في بحث مثل

---

(٣٦) سعيد عبدالفتاح عاشور/ الحركة الصليبية، ص ١٢٥٩ بتصرف بسيط.

(٣٧) للمزيد انظر: زكريا هاشم/ فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم ص ٢٣ وما بعدها.

بحثنا هذا الصراع الحضاري في أدب الفترة!

ويجمع معظم الباحثين على أن الغرب الاوروبي ظل في العصور الوسطى ـ حتى القرن الحادي عشر ـ غارقاً في غمرة من التأخر الحضاري، في الوقت الذي كان المسلمون في المشرق والمغرب ينعمون بمستوى حضاري رفيع، كذلك أثبتت الأبحاث الحديثة أن ثمة حركة إفاقة شاملة دخل فيها المجتمع الاوروبي في عصر الحروب الصليبية، وأن هذه الحركة شملت جميع نواحي الحياة في الغرب حتى اطلق عليها هاسكنز اسم «النهضة الاوروبية في القرن الثاني عشر». وعندما بحث المؤرخون أسباب هذه النهضة وبواعثها.. لم يستطيعوا مطلقاً إغفال أثر الحروب الصليبية، بحكم ما تم أثناءها من اتصال قوي بين الصليبيين الغربيين من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى، مما ساعد على انتقال كثير من مظاهر الحياة الاسلامية والحضارة الاسلامية إلى الغرب الاوروبي[٣٨].

ومع ذلك فإن ثمة اتصالات حضارية وثقافية تمت بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، فانساب كثير من الكلمات والمصطلحات العربية في اللغة الاوروبية منذ ذلك العصر، وإن كانت هناك صعوبة فسيولوجية في تحقيق نسبة استعارة هذه الألفاظ لأن بلاد الشام لم تكن وحدها المكان الذي اتصل فيه الغرب الاوروبي بالعرب. كذلك تأثر الفن الحربي وفن بناء الحصون والقلاع عند الاوروبيين بما شاهدوه من نظم ونماذج

---

(٣٨) مرجع سابق، ص ١٢٦٩.

اسلامية زمن الحروب الصليبية، فتقدمت حركات الحصار واستعمال المجانيق والكباش الهادمة، واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم وارسال الرسائل الحربية عن طريق الحمام الزاجل. كذلك عرف الصليبيون كثيرا من فنون التحصين وعمل الاستحكامات عن طريق محاكاة القلاع الاسلامية التي شاهدوها في بلاد الشام ومصر. من ذلك نظام المشربيات الذي عرفته العمارة الاسلامية الحربية فضلاً عن المدنية عند المسلمين. وهذه المشربيات عبارة عن دعائم يتقارب بعضها من بعض وتحمل فوقها حواجز بارزة، وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن أن تصوب منه السهام الى رؤوس المحاصرين الذين يحاولون أن يحفروا تحت جدران الحصن أو يشعلوا النيران فيه. كذلك يمكن من هذه المشربيات أن يصب الماء والزيت المغليان على رؤوس المحاصرين(٣٩).

وسرعان ما اقتبس الصليبيون فكرة المشربيات عن المسلمين ونقلوها الى الغرب الاوروبي، فظهرت في قلاع شاتوجياChateall Gaittarea ونورويتش Norwitch وغيرهما من القلاع. واقتبس الصليبيون مدخل القلعة المتعرج أو على شكل زاوية قائمة حتى لا يتمكن العدو إذا وصل قرب الباب من رؤية الفناء الداخلي للحصن أو يصوب سهامه إلى من فيه. وظهرت هذه الظاهرة بوضوح في قلعة بوماريس Beaumaris في انجلترا وفي قلعة كاركاسون في فرنسا(٤٠).

---

(٣٩) زكي محمد حسن/ فنون الاسلام، ص ٨٦١.
(٤٠) مارتن برجز/ تراث الاسلام، ص ١٣٧-١٤٠ بتصرف.

كما أخذ الغرب ألعاب المبارزة العربية، وتعدى هذا التأثر إلى المزروعات حيث انتقلت نباتات وأشجار من شرق البحر المتوسط إلى غربه مثل: الثوم، والبطيخ، والتوابل الشرقية، كذلك انتشرت في الغرب العقاقير والاصباغ، والارز والليمون، كما كثر استعمال وصناعة الاقمشة التي نسبت إلى بلدان الشرق مثل: الموسلين نسبة الى الموصل، والدمشقي نسبة الى دمشق وغيرها. وكذلك «الناعورة» نقلها الصليبيون من حماة إلى بلادهم؛ فعندما شاهدوا النواعير ترفع المياه من نهر العاصي اعجبوا بها فاقتبسوها بأن نقلوا نماذج منها إلى المانيا.

ولقد اقتبس الفرنجة الذين استقروا في الشرق في اعقاب الحروب الصليبية عدداً كبيراً من عادات جيرانهم المسلمين. فان «بلدوين الرهاوي» ملك بيت المقدس (١١٠٠-١١١٨) بدّل ثيابه الغربية بأخرى شرقية، وأرسل لحيته، وتناول طعامه على بساط متربعاً على الأرض. وبلغ الأمر بتانكرد الانطاكي Tancred of Antiech المتوفى ١١١٢ م، أن سك النقود وعليها صورته في زي عربي[٤١].

وقد أعجب الصليبيون بكثير من عادات العرب في الشام، فأخذوا عنهم فكرة الحمامات واستعمالها، كما حاكوهم في بعض نواحي حياتهم... من ذلك ما يرويه أسامه بن منقذ في القرن الثاني عشر أن رجلاً من رجاله دُعي إلى منزل فارس فرنجي من الصليبيين ببلاد الشام؛ قال الرجل: فأحضروا مائدة حسنة وطعاماً

---

(٤١) زكريا هاشم/ فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم، ص ٢٥٢ بتصرف.

في غاية النظافة والجودة، ورآني متوقفاً عن الأكل فقال: كل طيب النفس، فأنا ما آكل من طعام الافرنج، ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن ولا يدخل داري لحم خنزير!!»[٤٢].

صقلية

وهي معبر هام انتقلت عنه حضارة الاسلام إلى غرب اوروبا حيث صار للثقافة الاسلامية شأن كبير. وكلنا يعرف أن جزيرة صقلية كانت قد خضعت من القرن الخامس إلى الثامن للدولة الرومانية الشرقية، ثم فتحها المسلمون عام ٨٣٠م، وغزاها النورمانديون في سنة ١٠٨٧، وكان من أثر تعاقب غزو الجزيرة أن تأثر سكانها بعادات ولغات الوافدين. كما تأثر الفن بطابع هذه الشعوب. وكان للمسلمين تأثير فني كبير على المباني التي وصفت بأنها عمارة عربية نورماندية، ويظهر الطراز العربي في كنائس النورمانديين الذين دخلوا في الجزيرة بعد العرب، ومنها كنيسة القديس «جيوفاني» في مدينة باليرمو وهي ذات قباب حمراء نصف كروية، كما تظهر الاقواس المدببة والزخارف العربية الدقيقة في قصور الملوك النورمانديين. وفي كاتدرائية شيفالو طراز جديد نشأ من اندماج الطراز العربي والاسلوب النورماندي ويتمثل في الابراج المزخرفة بأقواس صغيرة متشابكة. والناظر لهذه الكنائس يخالها مساجد لطابعها الاسلامي المتميز.

وبانتشار المسلمين في هذه الاصقاع اصبح لديهم كل ما يحتاجون إليه، وخاصة فيما يتعلق بالمواد الأولية الهامة اللازمة لبناء

---

(٤٢) اسامه بن منقذ/ الاعتبار، ص ١٤٠.

السفن. ففي صقلية كميات وفيرة من أخشاب السفن وكذا بعض الحديد، كما كانت جزيرة كريت غنية بخشب الارز والسرو

وحول هذا الاتصال بين الطرفين المتحاربين يقول الدكتور محمود ابراهيم في كتابه «صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني»:

(وعندما زار الرحالة الأندلسي ابن جبير المشرق الاسلامي خلال حكم صلاح الدين، حدثنا حديثه المتعجب المستغرب عن هذا الاتصال. فهو يذكر مثلاً أن سبايا الفرنج كانت تدخل بلاد المسلمين في الوقت الذي كانت فيه قوافل المسلمين التجارية تدخل البلاد التي يسيطر عليها الفرنج. ويتحدث عن دخول أسرى صليبيين أخذوا من نابلس إلى دمشق في عهد صلاح الدين، في حين كانت القافلة التي فيها ابن جبير نفسه تخرج إلى بلاد الفرنج).

(رحلة ابن جبير، ص ٢٧١).

وفي مكان آخر من «رحلته» يشير ابن جبير إلى أنه برغم القتال بين الفرنج والمسلمين فإن سير القوافل من مصر إلى دمشق عبر البلاد التي يحتلها الفرنج كان قائماً... ثم يقول: (وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهم من الامنة على غاية. وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والاتفاق بينهم، والاعتقال في جميع الاحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب!)

(١) زكريا هاشم/ فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم ص ٢٥٣ بتصرف.

(٢) رحلة ابن جبير/ ص ٢٦٠، نقلاً عن كتاب الدكتور محمود

ابـراهـيم، «صـدى الـغـزو الصليبي في شعـر ابن القيسراني»، ص ٩٥-٩٦ بتصرف.

وقد اتصل المسلمون بالنصارى في غير المواقع الحربية غير مرة (لعل من الامور التي تثيرها رحلة ابن القيسراني في منطقة انطاكية أمر الاتصال ما بين الطرفين المتحاربين، ودخول المسلمين الأرض المحتلة وما يقابله من دخول الصليبيين الارض الاسلامية. والذي يبدو أن مثل هذا الاتصال، خاصة في أيام الهدن، كان أمراً مألوفاً). ـ المرجع السابق ـ ★(٤٣).

إن احتكاك الغرب بالشرق كان احتكاكاً مباشراً وغير مباشر. . هذا الجانب يتمثل في اصطدام ثقافتين وديانتين وفلسفتين متباينتين وأسلوبين مختلفين في العيش، وقد وضح هذا الأمر جلياً في عرضنا لكتاب الاعتبار، وكان الصراع طويلاً، وتعددت الأمم المشتبكة وتنـوعت الاجنـاس والقـوميات واللغات والاديان وتعصّبت دول الغرب ضدنا. . كما هي عصبة الأمم او عصابة الأمم في عصرنا الراهن!!

وتقابل الحقد الصليبي الأعمى مع السماحة والعفو الاسلامي، وفشلت القـوة والحمـلات المسلحـة لنشر مبـادىء النصرانية بين المسلمين فاتجهت نحو البعثات التبشيرية لنشر مبادىء النصرانية بالاقناع ـ وما زالت ـ وكانت بدايتها وصول القديس فرانسيس الى مصر سنة ١٢١٩م.

وصل الصليبيون الغلاظ إلى ديارنا ووجدوا انهم أمام حضارة

(٤٣) ★ للمزيد انظر كتاب الاعتبار/ ص ٩٧، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨.

إسلامية عالمية ذات اشعاع حضاري عظيم، ولمسوا التفوق الحضاري والسياسي والاجتماعي والفكري، وتمثل ذلك بهجوم جماعات جاهلة على عالم متحضر متمدن ـ كما يقول أحد الباحثين ـ ونقل علماء النصارى في اسبانيا وصقليه والمستعمرات الصليبية الشيء الكثير من علماء المسلمين ولا سيما في الرياضيات ـ حيث كان للأرقام العربية والجبر الفضل في تيسير الحساب، وفي الطب، حيث يدرس الشرقيون الأمراض على أنها من المظاهر الطبيعية ويعالجونها بالتغذية وحفظ الصحة. وفي التنجيم كان كتاب بطليموس المسمى (المجسطي) Al maget يطالع بشوق ولهفة. وبات النصارى يتعرفون تدريجياً على وجهة النظر العربية القائلة إن المعرفة تأتي بالتجربة والملاحظة، لا بدراسة الدين وحده(٤٤).

واصبحت الملاحة علمًا ميسراً بفضل بوصلة البحارة العرب، وكانت ابرة ممغنطة مرتبطة بقطعة من القش أو بشظية من الخشب عائمة على وجه الماء... وتعلم المسيحيون كيف يحسبون خطوط الطول والعرض باصطرلاب العرب.

وقد ساعدت اكتشافات الصليبيين ودراساتهم للجغرافيه العربية الاوروبيين في استخدام خرائط مفيدة لأول مرة، واصبحت مؤلفات بطليموس والادريسي معروفة لديهم... ناهيك عن أثر العرب والمسلمين في كتاباتهم ومؤلفاتهم الأدبية... ألف ليلة وليلة، والأغاني، ورسالة الغفران.. الخ.

وكان صُنّاع بلاد الشرق من المهارة بحيث أن فردريك الثاني

---

(٤٤) هارولد لامب/ شعلة الاسلام، ص ٦٤٠.

استصحب معه عند عودته عدداً من البنائين والنقاشين وعمال الفسيفساء لزخرفة أبنيته في باليرمو ★.

وظلت تلك الاختراعات مهملة في اوروبة مدة طويلة وكشّرت الكنيسة عن أنيابها لهذه العلوم الجديدة ووصمت اختراعات العرب الميكانيكية بأنها من صنع الشيطان ـ هي والنفط والنار الاغريقية سواء بسواء[٤٥].

ويقول هارولد لامب في كتابه شعلة الاسلام:

(والكلمات العربية التي لا نزال نستعملها في لغتنا تبرهن على الآراء والافكار الجديدة التي جاءتنا من آسية، فنحن نجد امثال هذه الكلمات في كل مجال، مثل أمير البحر: Admiral، والكحول: Alcohol والحلفاء: Alfalfa، والقلوي: Alkali والجبر Algebra وسمت السموت: Azimuth نجدها من الألفياء: Alphabet إلى التعريفه: Tarif).

وحتى الأرقام الانكليزية.. فهي عربية الأصل!

.. وكانت نهضة أوروبا، ونهل هؤلاء حضارتنا حتى النخاع، ★★ وجاء عصر النهضة الاوروبية Renaissance ... وقلب التاريخ الصفحات وكان التحدي العنيف لكيان الامة الحضاري، وهذا ابن القيسراني يرى أن الالتزام بالقديم والاستقاء منه في شعره، صورة من صور الصمود الحضاري أمام التحدي الاجنبي العارم، وشكلاً من اشكال الحفاظ على الشخصية العربية الاسلامية. ولذا، فقد تغنى بانتصارات قومه على الطريقة التي

---

(٤٥) هارولد لامب/ شعلة الاسلام، ص ٦٤١ بتصرف.

تغنى بها الاسلاف، ولم تكن آثار الالتقاء الحضاري - مع الغزاة لتعدو تأثرات سطحية لا تتعدى القشر إلى اللباب. فبقي الشاعر المسلم، يرتد ببصره وعقله وقلبه إلى تراث أمته، يتخذ منه المعين الذي يغترف منه(٤٦).

■ أقوال بعض علماء الغرب في هذه الحضارة الخالدة:

يقول الكاتب الفرنسي رينيه ميليه في كتابه «الاسلام والحضارة الحديثة»: (هذا وإن كانت هناك حقيقة يجب أن نبّينها فهي أنه في هذه الفترة التي تعارف فيها المسلمون والمسيحيون منذ انتهاء الحرب الصليبية إلى فتح القسطنطينية، كان الاسلام هو العنصر المؤثر، والعالم الاوروبي هو العنصر المتأثر. ومن جهة العلوم والآداب فإن اوروبا لبثت ثلاثمائة سنة تقتبسهما من الإسلام، وكانت المدنية

---

(٤٦) د. محمود ابراهيم/ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، ص ٢٣٣.

★ كانت باليرمو وتوليدو والقسطنطينية مراكز الثقافة في العالم النصراني.

★★ انظر الموضوعات التالية من كتاب «فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم».

زكريا هاشم

١. صفات من تاريخ العرب العلمي ص ٣٥٢-٣٧٨.
٢. العلوم العلمية عند العرب ص ٤٠٢-٥٠٠.
٣. لمحات عن جهود المسلمين العلمية وأثرهم في الثقافة الاوروبية ص ٥٠٥-٥١١.
٤. أثر الفكر الاسلامي في الثقافة الغربية ص ٥١١.
٥. الفنون، التحف والاثار ص ٥١٣ التحف.

الغربية تجني ثمارها اليانعة)[٤٧].

وأنا لا احترز لاستعمالي كلمة «صليبيين»... !، وهذه الكلمة لاتوحي الا بما تحمله من معاني وممارسات صارت محفورة في قلب كل انسان مسلم!

وإن نظرة خاطفة لما كتبه الأدباء العرب في تلك الفترة، خصوصاً حين نقابل ذلك بكتابات الاوروبيين عن المسلمين خلال الفترة نفسها هي كتابات حافلة بالتحامل المبني على الجهل والتعصب. أما ألوان الذم للصليبيين التي احتوى عليها الادب العربي فقد تراوحت بين وصفهم بالخشونة والقسوة والغباء والتأخر الحضاري، وبين نعتهم بالغدر ونكث العهود وعدم الالتزام بالمواثيق، ووصفهم بانعدام الغيرة على نسائهم واتهام نسائهم بانعدام الحياء والعفة... ولكنها لا تصل بحال من الاحوال إلى المذابح والقتل الجماعي والارهاب المبرمج!! [٤٨].

يصف «قس» صاحب الحروب الصليبية الاتراك ويقصد بهم المسلمين فيقول: (بعد انهزام الترك ـ أعداء الرب والمسيحية

---

(٤٧) زكريا هاشم/ فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم، ص ٢٣.

(٤٨) محمد بركات أبو علي/ نظرات وآراء، ص ٩٣ اعتمادا على محاضرة للدكتور محمود ابراهيم، صورة الصليبيين في الأدب العربي، وذلك ضمن محاضرات البرنامج الثقافي العام للجامعة الاردنية عام ٧٤/٧٥ بتصرف.

★ انظر: المذبحة، هارولد لامب، شعلة الاسلام، ص ٢١١ـ ٢٢٥.

المقدسة، هزيمة تامة وهروبهم مدة أربعة أيام وأربع ليال سوياً جاء الخبر بأن زعيمهم سليمان بن سليمان الاكبر قد فرّ إلى أزنيق، حيث صادفه عشرة الاف عربي فقالوا له: (أيها الشقي، ويا أتعس الخلق جميعاً، ما الذي حملك على الهروب)؟ فأجابهم سليمان: (حين انهزم الفرنجة من قبل كنت أحسب أنني سآخذهم مكبلين مأسورين، ولما أردت تقييدهم جماعة بعد جماعة، ابصرت وراءهم شعباً كثيف العدد.. ولم نكد نراهم حتى استبدَّ بنا الفزع الشديد وتابعنا المسير، وكدنا أن نلقي أنفسنا بين أيديهم من فزع الخوف وهوله، فإن كنتم مصدقين فيما اقول فارحلوا من ها هنا لساعتكم إذ لو عرفوا خبر قدومكم لما بقي أحد منكم حياً). فلما سمعوا قوله هذا ولوا الادبار وتشعب صدعهم وانسابوا في كل نواحي آسيا الصغرى. أما نحن فلم نكف عن تعقّب اولئك الترك الطغاة الذين كانوا يفرون كل يوم من أمامنا، وكانوا كلما بلغوا بلداً أو مكاناً حصيناً كذبوا على سكانه ومكروا بهم قائلين:

(لقد هزمنا جميع المسيحيين) وكان نصرنا عليهم عظيمًا حتى انه لن يجرؤ أحد ما منهم على الوقوف أمامنا فدعونا ندخل عندكم) (٤٩).

هذه الصور التي بالغ المؤلف في اظهارها، حيث لم يتوان عن سب الاتراك وشتمهم بكلمات نابية، ووصفهم بالسذاجة والكذب... تدل دلالة واضحة على كراهية غير مبررة، وحقد أعمى لهذه الحضارة الخالدة، إنها أخلاقيات رجل دين!! ★

---

(٤٩) اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة د. حسن حبشي، ص ٤٢-٤٣.

وتقابل هذه الصورة البشعة . . صورة مشرقة في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، صورة السماحة والعفو وخلق الاسلام!

يقول غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» :

(سيرى القارىء حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، وأن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث ان انتحلت بعض الشعوب النصرانية الاسلام واتخذ العربية لغة له، فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل لم يكن للناس عهد بمثله، ولما كان عليه الاسلام من الوضوح والسهولة التي لم تعرفها الاديان الاخرى . . والحق أن الامم لم تعرف فاتحين أرحم ولا متسامحين مثل العرب)(٥٠) .

---

(٥٠) محمد فائز القصري / النهضة الأوروبية وأثر الثقافة العربية الإسلامية، ص ٥٨، وهذا النص من ترجمة الاستاذ عادل زعيتر.

حاشية: تناول فريد جحا دراسات وابحاث بعض المستشرقين وعلماء الغرب في كتابه «كتب انصفت حضارتنا»، وهو كتاب لطيف يحسن الرجوع اليه، ومن الكتب الهامة التي تناولها.

١ . تاريخ العرب العام تأليف المستعرب الفرنسي ل. أ. سيديو .

٢ . تاريخ الطب العربي تأليف المستعرب الفرنسي لوسيان لوكلير.

٣ . الفن العربي للعالم الفرنسي بريس دافين .

٤ . حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون .

٥ . تاريخ الأدب العربي للعلاسة بروكلمان .

ويقـول الكـاتب الفرنسي جان بول رو في كتابه «الاسلام في الغـرب»: كان الغـرب في القـرن الثـاني عشر أي أثناء الحروب الصليبية يفتقر إلى أشياء كثيرة ثقافية وإلى اتباع الطريقة العلمية البعيدة عن العصبية. . . وكـانت اوروبـا مقيدة فكرياً بالعصبية الدينية القديمة الجامدة بمعنى أن المعرفة انقسمت إلى شيء اسمه ثقافة نظرية منفصلة عن الثقافة العملية التطبيقية بينما كانت حركة الاسـلام في الشرق تجمـع الفكـر الديني الاسلامي مع التطبيق العملي العلمي، . . . وقد تناولنا هذه الاشكالية فيما سبق.

ولما احتك الصليبيون بالشرق الاسلامي وتعرّف الاوروبيون على العرب عن طريق الاندلس وعن طريق التجار العرب الذين كانـوا يترددون على جنـوب اوروبة: شبه جزيرة البلقان وايطاليا وجنوب فرنسا.

لقـد تطور الفكـر الاوروبي نتيجة تماس العرب أيام الحروب الصليبية وبالتماس أيضاً في جنوب اوروبا. ومما هو جدير بالذكر أن هؤلاء المفكرين ثاروا على العصر الماضي المقيد لحرية الفكر، وكانت ايطاليا بحكم تماسها مع المسلمين رائدة النهضة الأدبية في القرن الرابع عشر[٥١].

وفي العصور التي سبقت الحملات الصليبية قبل القرن الحادي عشر اشتدت الاساطير الدينية في أوروبا وكثرت السيطرة الكهنوتية على الناس بعد ان امتلكت تقريباً الاديرة ورجال الكهنوت من جهة والاملاك الزراعية من جهة أخرى. وامتلكت الطبقات الحاكمة

---

(٥١) المرجع السابق، ص ٧٢.

الاقسام الاخرى. وعن هذا كتب ديورانت في تاريخ الحضارة:

(كان سكان ايطاليا يعتقدون أن كثيراً من الاشياء هي من مخلفات المسيح، تماماً كما حدث قبيل الحروب الصليبية، وقد ادّعت إحدى الكنائس أن لديها قطعة قماش من قماط الطفل يسوع، جلبتها من القدس حين العودة من الحروب الصليبية فتوافد المؤمنون على الكنيسة بعضهم يبكي، وبعضهم يتبرّك[٥٢].

ازاء هذا كله كانت الحضارة العربية الإسلامية نعم المنقذ لهذا الجهل المطبق والظلام الدامس، نعم المنقذ من كنيسة تغتال العلماء وتنصب لهم أعواد المشانق).

(٥٢) المرجع السابق، ص ٧٥ بتصرف كبير.

ذيول الحروب الصليبية الحضارية :

إن ذيول الحروب الصليبية انتهت في القرن الخامس عشر تقريباً لتفصح عن نتائج غريبة متناقضة بالنسبة للشرق العربي والغرب الاوروبي. فإذا كانت هذه الحروب صفحة مثيرة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، فما السر في أنها انتهت بتدهور وركود وانحلال استمر طويلاً عقبها في البلدان العربية، . . . في حين صحبت هذه الحروب وأعقبتها مباشرة نهضة شاملة في الغرب الاوروبي هي أساس نهضته الحديثة؟

وكما يقول الدكتور سعيد عاشور في كتابه «الحركة الصليبية»: الواقع إن هذه الظاهرة تسترعي الانتباه وتستحق منا التفكير العميق. فقد تكون الحروب الصليبية في حد ذاتها مسؤولة عن الانهيار الذي تعرضت له البلدان العربية في أواخر العصور الوسطى بعد أن استنفذت جهود هذه البلدان في الدفاع عن كيانها، وكرست مواردها ونشاطها للقضاء على الاخطبوط الصليبي الذي ثبّت اقدامه في بقعة هي بمثابة القلب من الوطن العربي، وأخذ يسعى من ذلك المركز المتوسط إلى تهديد بقية الشام والعراق ومصر والحجاز فضلاً عن بلدان المغرب العربي[٥٣].

إن بذور النهضة الاوروبية نمت نتيجة الاتصال بالحضارة العربية الاسلامية؛ فهذه الحضارة التي كانت باعتراف جميع الباحثين اعظم حضارة شهدها العالم في الشرق والغرب طوال العصور الوسطى، هي التي غذت بذور النهضة الاوروبية تلك وأمدتها بما كانت تفتقر إليه من علوم وأبحاث ودراسات علمية

---

(٥٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٤-٥.

وعملية. . . ولا مراء في أن هذه الحروب انتهت بنهضة الغرب نهضة كبرى شاملة.

وسواء كان التاريخ يعيد نفسه أو لا يعيد فمن الواضح أن الاوضاع التي تحيط بالعالم العربي في الشرق الادنى اليوم تجعلنا نشعر بأننا في وضع اقرب ما يكون إلى الوضع الذي عاش فيه اجدادنا العرب منذ ثمانية قرون ونصف. . . العدو الصليبي هو الوجه الآخر للعدو الصهيوني، حيث وجد المسلمون أنفسهم في نهاية القرن الحادي عشر أمام دولة غريبة قامت في البقعة نفسها من أرض الشام، وحرص الغرب أيضا على تزويدها بالرجال والسلاح والمساعدات ليضمن لها البقاء والاستمرار.

وإذا كان الكيان الصهيوني يطمع لتأسيس دولة له تمتد من النيل إلى الفرات، فإن الصليبيين في العصور الوسطى لم يكادوا يثبتون اقدامهم في فلسطين حتى شرعوا يتوسعون شرقاً وجنوباً، . . . شرقاً في اقليم الجزيرة والفرات، وجنوباً في اتجاه مصر والنيل، بل لقد ركبوا البحر الاحمر ووصلوا إلى شواطىء الحجاز. . .[٥٤] ألم تقف رئيسة وزراء اسرائيل السابقة غولدا مائير على شاطىء ايلات متجهة صوب الجزيرة العربية. . . أرض الاسلام وموطن الرساله قائلة: انني اشمُّ رائحة اجدادي!!

---

(٥٤) المرجع السابق ص ٦ بتصرف كبير.

التغيرات التي حصلت بعد الحرب:

التغيرات كبيرة تلك التي حصلت عقب الحروب الصليبية في اوروبا، فبعد الاستيلاء على بيت المقدس في القرن الثاني عشر ادعى البابوات حق الزعامة في اوروبه الى ان جاء «أنوسنت الثاني» الذي كان يطمع في اقامة امبراطورية مغلية، فحوّل الحروب الصليبية لخدمة مصالحه الخاصة. ودعت الكنيسة الصليبيين لشن حرب على الهراطقة في بلادهم، وبذلك فقدت التأييد الشعبي الذي جاءها مع الحملات الصليبية الاولى.

وكانت مطالب البابا المستمرة لجمع المال والمساعدات لمواصلة الحروب الصليبية ـ بينما لم يحرز أي نصر في سبيل بيت المقدس، ولم يحرز سوى تخمة في الترف كانت سبباً في أن ينفذ صبر الشعب أخيراً. وبالتدريج تحوّل بيع اجازات «الاعفاء من الجهاد» وهي التي كانت تباع لقاء مبلغ من المال لمن حمل الصليب ولم يشأ الذهاب إلى الحرب ـ إلى بيع صكوك الاعفاء من العقوبات الدينية ـ وهي التي كانت تمنح لمن شارك فعلاً في الحروب الصليبية، فأمست تباع لأناس لم يشاركوا فيها مطلقاً، ثم تحول كلياً إلى بيع «صكوك غفران» كل هذا أدى إلى نفي البابا في أفينون، ثم إلى حركة الاصلاح الديني Refarmation [٥٥].

وضحّت كنيسة روما بمملكة بيت المقدس إذ تخلّت عنها واحتفظت بالأموال الطائلة التي جمعتها باسم الحروب الصليبية.

---

(٥٥) للمزيد انظر: رأي الدكتور ايرنست باركر، لمدى تأثير الحروب الصليبية في البابوية، هارولد لامب، شعلة الاسلام ص ٦٤٣-٦٤٤.

وشمل التغير كذلك غير الكنيسة . . . طبقة النبلاء حيث بذل البارونات جهداً اكثر من طاقتهم في الحروب وعلى كواهلهم اكثر من سواهم ، وقعت الخسائر في الارواح والاموال . وظل نبلاء تلك الطبقة الاقطاعية من امثال كونتات فلاندرز، وبلوا، وشاميني، يرتحلون بانتظام إلى الشرق . وقلما كان لوردات أفسنس أو كوسي أو برين يغيبون عن الحدود . وتوفي نبلاء أسر بكاملها . وفقد الأغلبية منها شبابهم . وعمد كثير من النبلاء الذين التحقوا بالحروب الصليبية إلى فك رقاب عبيدهم واعتاق أرقائهم . ووجد البورجوازيون أنفسهم أعضاء في طبقة وسطى جديدة محترمة في الخارج لأنهم كانوا أرفع شأناً من سكان البلاد الأصليين، برغم كونهم أدنى مرتبة من النبلاء . وصاروا يملكون مساكن ومزارع في الشرق . وأصبح بمقدورهم مقاضاة غيرهم في المحاكم ، وأحرز التجار نجاحاً خلال انتعاش الحركة التجارية وازدهارها فيما وراء البحار، واستفاد الصنّاع من كثرة الطلب على العمال، وتحول كثير من المزارعين المرتبطين بالأرض إلى المدن للعمل في الحرف والصناعة(٥٦) .

ولكن النصارى ربحوا الكثير من هذه الحروب ، فقد ربحوا خبرة ودراية في الحرب والقتال ، وخسروا ارواحاً ضحوا بها ، وثروات استنزفوها .

هؤلاء الصليبيون الأول . . حملة الصليب اضطروا لأكل اللحوم البشرية في اوقات الشدة ولطخوا سيوفهم في مذابح وحشية ، ثم إن

(٥٦) مرجع سابق ص ٦٤٢-٦٤٤ بتصرف .

صفـوفهم امتـلأت فيما بعد بالمغامرين وقطاع الطرق. ويبدو أن اولئـك القوم بدأوا حملتهم ليصبحوا في عداد القديسين. ولكنهم أمسوا في نهايتها مجموعة من القتلة والمجرمين!!

لقـد اختفت، مع أحـلام غودفـري أمـير بوايلون، ومـواعظ القـديس برنـارد، ومـطامـح قلب الأسد، وزحف الأطفال المثير للشفقة، وغيرة سان لويس، وذهب قسم الملك ادوارد ملك انكلترا ادراج الرياح حيث قال: وحق دم المسيح، لأذهبن إلى عكا، حتى لو تخلى عني الجميع، ولم يبق معي سوى (مور) خادمي الخاص!!

وهجرت الكاتدرائيات والكنائس؛ يقول هارولد لامب متحسراً على أمجاد الصليبيين الغابرة في بيت المقدس: (خرجت من اليد تلك الأرض، ولن تعود، وولى ذلك اليوم الذي قام فيه الصليبيون حول كنيسة القيامة فردوسهم الصغير الذي لم يكتمل. وبعد قرن، وعلى مهل، عاد حجاج النصارى فوجدوا آثارهم خرائب وأطلالاً يقوم المسلمون على رعايتها. ونظروا إلى كنائس الصليبيين وحديقة الجثمانية Garden of Gethesemane وشاهدوا الشمس وهي تغرب على برج داوود،ووقفوا على حافة البركة التي جاءها ذات ملاك، فاضـطربت مياههـا، لكنهم في هذه المرة ابصروا الأشياء بعيون تختلف عن عيونهم تلك. ورمموا الأطلال، لكنهم لم يرحموا المدينة التي حلم بها غودفري)[٥٧].

ولكن هل حافظ المسلمون على هذه المقدسات الغالية، وهل ذادوا عن هذا الحمى وهذه التركة؟ وقد عرفنا إحساس هذا المؤرخ

---

(٥٧) هارولد لامب/ شعلة الاسلام، ص ٦٥٣.

وحزنه لطرد أبناء جلدته من بيت المقدس!!

. . . كلا فقد عاد الصليبيون الجدد واليهود الجدد؟؟!

★ ★ ★

وهذا شاعر اوروبي يتأسى على ما آلت إليه الحروب الصليبية من هزيمة وانكسار:

(عندما تبزغ النجوم، ويدخل القمر في المحاق
وتعود المياه فتغمر الأرض الواطئة
يكون رجال الغرب في طريقهم
عائدين لأوطانهم
بعيداً ذهبوا، وبأم أعينهم شاهدوا
قلاع الجبابرة
ومشاعلاً على قمم الجبال
حيث ترتفع الاعلام السود

★ ★ ★

شاهدوا النار الطائرة
والريح العاتية
والأرض التي تميد بمن عليها
والأسوار التي تحطم من يتصدى لها
. . شاهدوا الاحجار القديمة
وشاهدوا المدينة
التي لم يشيدها البشر. . .

★ ★ ★

رجال الغرب عادوا

وسيوفهم مكسورة
في أغمادها موضوعة)(٥٨).

وبعد، . . هذه قصة صراع استمر قرنين من الزمان في منطقة في القلب من بلادنا، وأحسب أن هذا الصراع لم يظهر جلياً في مصر بقدر ما ظهر في بلاد الشام وبيت المقدس خاصة. ومن المؤسف أن الكثير من شبابنا ومثقفينا لايعرف ما يستحق الذكر عن الحروب الصليبية ورجالها وقادتها وأبعادها وذيولها، ويجهل أدعياء الثقافة التضحيات الكبيرة التي بذلها المسلمون في الذود عن ديارهم ومقدساتهم، والألوف المجهولين من العرب والتركمان والاكراد الذين سقطوا في ميدان الشرف، وسقوا بدمائهم الزكية تربة ديار الاسلام(٥٩).

وأحسب أن «ديك الحبش» الذي يذبح في عيد الميلاد ورأس السنة إلا كناية عن ذبح إنسان مسلم، ويطلقون عليه لفظ «تيركي» . . . وليست أغنية الديسكو الذائعة الصيت عند الغربيين «جنكيز خان» إلا نكوصاً وارتكاساً لصراع حضاري ماضٍ في حُلة قشيبة جديدة، حتى في مجال لهوهم وفسقهم!!

والزائر لمكتبة الفاتيكان الان في ايطاليا، يجد الألوف المؤلفة من

---

(٥٨) قصيدة ذكرها المؤرخ هارولد لامب دون الاشارة لصاحبها، ولكنها تعطينا اشارة حية لأسى الغرب إزاء الحروب الصليبية ونهايتها.

(٥٩) انتوني ويست/ الحروب الصليبية، ترجمة شكرى محمود نديم، ص ١٣.

الكتب المخطوطة، وهي كلها من تأليف علماء المسلمين وعيون تراثهم!!.

وقد رأى ابن القيسراني أن الالتزام بالقديم والاستقاء منه في شعره، صورة من صور الصمود الحضاري أمام التحدي الأجنبي ولذا فقد تغنى بانتصارات قومه على الطريقة التي تغنى بها الاسلاف، ولم تكن آثار الالتقاء الحضاري - مع الغزاة لتعدو تأثرات سطحية، لا تتعدى القشر إلى اللباب، فبقي الشاعر المسلم يرتد ببصره وعقله وقلبه إلى تراث أمته، يتخذ منه المعين الذي يغترف منه[٦٠].

وكانت الكلمة المؤثرة سلاحاً للاستثارة والاستنهاض والحشد والتعبئة، وكان الشعراء يصورون العدو صورة بشعة تثير الحماس وتلهب الشعور!!

ولم يكن السبب الرئيسي للسقوط الشنيع للحضارة الاسلامية في الهجوم المقبل من الخارج، ولكنه يكمن في الانحلال البطيء للقوى الداخلية وتماسكها في الفوضى السياسية والأخلاقية التي أحدثها الفساد والعجز، والخمول والترف والخوف، وربما أحدثها كذلك افتقار معين للتحول الطبيعي مع التطور العادي للحضارة. حقاً قد اعترف خان الاكبر بالاسلام كدين للدولة بعد خمسين عاماً من انهيار الامبراطورية.

وكان هذا نصراً أدبياً كبيراً. لكن الامبراطورية الاسلامية بقيت بعد ذلك مصابة في وحدتها إلى الأعماق، نتيجة الظروف التي ذكرتها

---

(٦٠) د. محمود ابراهيم/ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ٢٣٣-٢٣٤.

سابقا!![61].

إن دراسة الحروب الصليبية اكتسبت خطورة عظيمة في عصرنا الراهن، لأن الصليبيين في العصور الوسطى نجحوا في تثبيت اقدامهم في فلسطين وشرعوا في التوسع شرقاً نحو العراق باتجاه الفرات وجنوباً نحو مصر باتجاه النيل ـ كما أسلفنا ـ ووقف العالم الاسلامي يواجه خطراً رهيباً يتمثل في زحف المغول من الشرق، وخطر الصليبيين ومن ورائهم أوروبة كلها من الغرب... وما أشبه الظروف التي نعيش فيها اليوم، والناجمة عن وجود السرطان الاسرائيلي ـ الصهيوني ـ الامريكي في فلسطين ولبنان، وما يهددنا من أخطار الشرق والغرب... اقول ما اشبه الظروف تلك بهذه،... بوضع أسلافنا قبل ثمانية قرون ونصف قرن، وقد خاض أولئك الأسلاف المعركة وجللوا راياتهم بالنصر، وكانوا نعم السلف، ونطمح أن نكون نعم الخلف... ولكن!![62].

وهذه دعوة لدراسة الحروب الصليبية وامكانية توظيفها لخدمة المعركة وهذا الصراع الحضاري، وما طرحته في هذا البحث... كان مجرد مدخلٍ لدراسة الصراع الحضاري في أدب الفترة، وأدعو الله العون لإكمال مسار هذا البحث وخطته.

---

(٦١) مرجع سابق ص ٢٦٨.

(٦٢) انتوني ويست، الحروب الصليبية، ص ١٥ بتصرف كبير.

فهرست المصادر والمراجع

★ القرآن الكريم.

١- أبوشامة: شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، النورية والصلاحية نشر دار الجيل، بيروت، بلا تاريخ.

٢- أبو شامة: شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة، كتاب ذيل الروضتين في اخبار الدولتين، طبعة القاهرة، ١٩٤٧م.

٣- ابن جبير: أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي البلنسي.
رحلة ابن جبير، بيروت، ١٩٥٦.

٤- أسامه بن منقذ: مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري.
كتاب الاعتبار، حرّره فيليب حتى، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، ١٩٣٠.

٥- أسامه يوسف شهاب «وسائل الاتصال الجماهيري في الاسلام» دار المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٢.

٦- انتوني ويست «الحروب الصليبية» ترجمة شكري محمود نديم، ومراجعة.
د. محمود حسين الامين، الناشر شركة النبراس للنشر والتوزيع، بغداد، ١٣٢٢ هـ - ١٩٦٧م.
٧- أنور الرفاعي - النظم الاسلامية، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣.
٨- جوستاف لوبون - بالفرنسية - حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، بلا تاريخ.
٩- جاك س. ويسلر - الحضارة العربية، ترجمة: غنيم عبدون، مراجعة.
د. احمد فؤاد الاهواني - الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
١٠- الدكتور حسن حبشي/ مترجم، ترجمه وقدّم له وعلّق عليه. اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٨.
١١- حبشي: الدكتور حسن حبشي - الحروب الصليبية الاولى، طبعة القاهرة ١٩٤٧.
١٢- زكريا هاشم: فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم. دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، بلا تاريخ.
١٣- زكي محمد حسن: فنون الاسلام «الفن الاسلامي في مصر»، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥ م.
١٤- سير توماس ارنولد: تراث الاسلام، تأليف جمهرة من المستشرقين. عربّه وعلّق حواشيه جرجيس فتح الله المحامي، دار الطليعة، ط

٣، بيروت، ١٩٧٨.
١٥- عاشـور: الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور - الحركة الصليبية، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي. مكتبة الانجلو المصرية، ط ١، القاهرة ١٩٦٣.
١٦- العماد الاصفهاني: أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن محمدبن عبدالله بن علي بن هبة الله الملقب عماد الدين الكاتب الاصفهاني فريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، بتحقيق الدكتور شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، ١٩٥٥-١٩٥٦.
١٧- فريـد جحا: كتب انصفت حضارتنا، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٧٧.
١٨- مارتن برجـز: تراث الاسلام، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت، ١٩٧٨.
١٩- محمـد فائـز القصري: النهضـة الاوروبيـة وأثر الثقافة العربية الاسلامية. مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، بلا تاريخ.
٢٠- الـدكتـور محمـد بركات أبوعلي: نظرات وآراء في اللغة العربية وآدابها، والحضارة الاسلامية، مكتبة الرسالة، عمان، ١٩٧٦.
٢١- الـدكتـور محمد طلعت عيسى: مدخل إلى علم الاجتماع، دار المعارف، بيروت، ط ١ - ١٩٧٥.
٢٢- الهرفي: الدكتور محمد علي الهرفي.
شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠ م.
٢٣- الـدكتـور محمود ابراهيم: «صدى الغزو الصليبي في شعر ابن

القيسراني» نشر المكتب الاسـلامي ـ دمشق، ومكتبـة الاقصى ـ عمان، ١٣٩١ هـ، ١٩٧١م.
٢٤ـ محمد بن محمد القرشي الاصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، طبعة القاهرة، ١٣٢٢ هـ.
٢٥ـ هارولد لامب: شعلة الاسلام «قصة الحروب الصليبية» ترجمة محمود.
عبدالله يعقوب، ومراجعة الدكتور جمال الدين الشيال، مكتبة دار المتنبي، بغداد، ١٩٦٧.
ـ تنويه:
★ ينبغي وضع هذا المصدر بعد الرقم (١٦) وتوثيقه: العماد الاصفهاني: ابوعبدالله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبدالله بن علي بن هبة الله الملقب عماد الدين الكاتب الاصفهاني.
الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح، الدار القومية للنشر، القاهرة، ١٩٦٥.
مراجع متفرقة:
١ـ محاضرة للدكتور محمود ابراهيم، صورة الصليبيين في الادب العربي، وذلك ضمن محاضرات البرنامج الثقافي العام للجامعة الاردنية عام ٧٤/٧٥.
٢ـ محاضرة للدكتور محمود ابراهيم القاها على طلبة الدراسات العليا في مادة «م. خاص في أدب مصر والشام» بتاريخ ١٩٨٣/٣/٨.
٣ـ مجلة العربي، العدد ٢٩١، ١٩٨٣.
٤ـ جريدة الرأي الصادرة بتاريخ ١٩٨٣/٣/١٢.

مؤتمرات في الأدب الإسلامي

- الندوة العالمية للأدب الاسلامي ، لكهنؤ، الهند .
- ندوة الادب الاسلامي ، الجامعة الاسلامية، المدينة المنورة، السعودية .
- اجتماع مكة المكرمة لتأسيس المؤسسة الاسلامية للنشر والتوزيع والانتاج الفني، مكة المكرمة ، السعودية .

أقول كلمة

إن مؤتمرات الأدب الإسلامي هامة، ولا يختلف الرأي حول قيمة هذه المؤتمرات وفعاليتها، ولكن... كم اتمنى أن تنقل توصيات هذه المؤتمرات إلى الواقع العملي، وأن تنطلق هذه المؤتمرات من قراراتها الورقية إلى الساحة العملية الاعلامية. وان لا تبقى قراراتها في السطور تدغدغها العواطف في الصدور، وهذه هي اشكالية الاعلام العربي والاسلامي... بل هي من أهم هنات الواقع الثقافي والسياسي والفكري في عالمنا الاسلامي المعاصر!

وسأعرض في هذا الفصل لثلاثة مؤتمرات:

١ـ الندوة العالمية للأدب الإسلامي، ١١ـ١٣ جمادى الآخرة ١٤٠١ هـ لكنهؤ ـ الهند، دار العلوم ندوة العلماء.

٢ـ ندوة الادب الاسلامي، رجب، ١٤٠٢ هـ ـ الجامعة الاسلامية، المدينة المنورة.

٣ـ اجتماع مكة المكرمة لتأسيس المؤسسة الاسلامية للنشر والتوزيع والانتاج الفني، العاشر من آذار ١٩٨٢ م. الامانة العامة الدائمة للاعلام الاسلامي، مكة المكرمة.

★ توصيات الندوة العالمية للادب الاسلامي:

أولا: في مجال البحث في الادب الاسلامي وتشجيعه بوجه عام.

١ـ دعوة الباحثين إلى ابراز مفهوم الادب الاسلامي ودوره في بناء الفكر والمجتمع.

٢- دعوة الباحثين إلى الكتابة في تاريخ الادب العربي وفق النظرة الاسلامية الصحيحة وابراز المفهوم الاسلامي للنقد.

٣- العمل على تشجيع ذوي الطاقات المبدعة وتنظيم مسابقات في مجالات الانتاج الادبي المختلفة وتقديم حوافز سخية للانتاج الفائز ونشره.

ثانيا: في مجال تعليم الأدب الاسلامي:

١- دعـوة الجـامعـات إلى ادخـال الأدب الاسلامي في مقرراتها الدراسية وانشاء مراكز متخصصة فيها لدراسة هذا الأدب، وتحديد منهجه، ومناقشة قضاياه.

٢- وكـذلـك تدريس آداب الشعوب الاسلامية المقارنة من اجل التعرف على هذه الآداب والتعارف المتبادل بين تلك الشعوب.

ثالثا: في مجال نشر الادب الاسلامي وتنسيق جهود الأدباء:

١- الـدعـوة إلى الاستفـادة من وسـائل الإعلام المختلفة مقروءة ومسموعة ومرئية لنشر الأدب الاسلامي على اختلاف اشكاله الفنية.

٢- نقـل روائـع أدب الاسلام وفكره من العربية إلى سائر لغات الشعوب الاسلامية، ومن هذه اللغات إلى العربية واللغات الحية الأخرى.

٣- اقامة رابطة عالمية للأدباء الاسلاميين لتوثيق أواصرهم وتنسيق جهودهم والارتقاء بمستوى انتاجهم الأدبي.

رابعا: في مجال التربية الاسلامية وأدب الاطفال واليافعين والشباب.

١- اصـدار كتب في العقيدة والشريعة والاخلاق والتاريخ لتلبية

الحاجة وخاصة للمغتربين. وكذلك الافادة من الوسائل الحديثة كاشرطة الكاسيت والفيديو لنشر التوعية الاسلامية والثقافة الدينية.

٢ـ بذل الجهود لانشاء مدارس تشتمل على رياض للاطفال تنشىء ابناء المسلمين تنشئة صحيحة منذ نعومة أظفارهم، وخاصة في مراكز تجمع المسلمين في البلاد غير الاسلامية.

وثمة خطوات مباركة في الأردن حول انشاء مثل هذه الرياض، حيث تم انشاء روضة اسلامية تابعة لجمعية المركز الاسلامي في الزرقاء، وهناك رياض الاطفال التابعة لمدارس الاقصى الاسلامية في عمان، بادارة الأستاذ يوسف العظم.

٣ـ العناية بالأدب الاسلامي الموجه للاطفال واليافعين والشباب في مختلف أشكاله الأدبية من خلال كافة وسائل الاعلام والنشر، وتشجيع الاقلام المبدعة في هذه المجالات.

خامسا: في مجال نشر اللغة العربية وتعليمها:

١ـ تعزيز مكانة اللغة العربية في الدول الاسلامية باعتبارها لغة القرآن الكريم والعمل على نشرها في العالم، وذلك يحتاج إلى تآزر الجهود، حتى تصبح اللغة العربية، هي لغة العلم والأدب والتأليف، ولغة المؤتمرات في البلاد الاسلامية، ولا بد أن تحارب الدعوات الهدامة التي تستهدف العربية الفصحى ـ تلك التي أشرنا اليها في تقديم هذا الكتاب ـ وأن تعود الدول الاسلامية التي تكتب بالحروف اللاتينية، إلى الكتابة بالحروف العربية كسابق عهدها، كالتركية والاندونيسية والسواحلية والملايوية.

٢ـ متابعة الجهود لانشاء المعاهد المتخصصة في تعليم اللغة العربية

لغير الناطقين بها واعداد المعلمين في هذا المجال واقامة جهاز مشترك متخصص من اجل التخطيط لنشر العربية بين المسلمين الذين لا يعرفونها ولا ينطقون بها.

٣ـ اقامة جسور من الزيارات المتبادلة بين الاقليات الاسلامية، وبين البلاد العربية والاسلامية توثيقاً للروابط ودعمًا للجهود، وتعزيزاً للثقة والتعارف والتعاون المثمر، في مجال اللغة العربية والثقافة الاسلامية... مع حسن اختيار المشاركين في تلك الزيارات أو الرحلات ديناً وسلوكاً وثقافة.

ومثل هذه الزيارات والرحلات لا تتم إلا بجهود الدول العربية والاسلامية، وهنا يبرز دور الدول النفطية في دعم مثل هاته الزيارات وتشجيعها.

★ للمزيد انظر نص المقابلة التي أجراها الأستاذ أحمد محمد الصديق مع الشيخ أبي الحسن الندوي، ودور ندوة العلماء/ دار العلوم إحياء الأدب الإسلامي (مجلة الأمة، العدد الثاني عشر، السنة الأولى، ذو الحجة ١٤٠١ هـ).

★ توصيات ندوة الأدبِ الإسلامي التي عقدت في الجامعة الاسلامية:

عقدت في الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة «ندوة حوار حول الأدب الاسلامي» في شهر رجب ١٤٠٢ هـ وهذه هي الندوة الثانية التي عقدتها الجامعة. أما الأولى فكانت في شهر جمادى الآخرة عام ١٤٠١ هـ. وانتهى أعضاء الندوة إلى التوصيات التاليه:

اولا: تبني الأدب الاسلامي والعناية به:

١ـ دعوة الوزارات المختصة والجامعات الى تبني هذا الأدب، والعناية به وتدريسه في المراحل الثانوية والجامعية ليعبر عن الإسلام وتعاليمه ونشر دعوته في الأرض وذلك عن طريق الكلمة الطيبة المؤثرة.

٢ـ ادخال مادة الأدب الاسلامي بصفة عامة وأدب الدعوة بصفة خاصة في اقسام الدعوة والاعلام وفي السنوات التمهيدية من الدراسات العليا وإعداد الرسائل الجامعية التي تبرز هذا الادب وتقعد له وتخرج الباحثين المختصين فيه.

٣ـ دعوة الباحثين من علماء المسلمين عامة وادبائهم ونقادهم خاصة إلى إعداد البحوث في هذا الأدب. ووضع قواعده في النقد. وحض الجامعات على تبني ما يكتب في هذا المجال وطباعته ونشره وبذل المكافآت السخية للكتابة.

٤ـ دعوة الجامعات في الاقطار الاسلامية لانشاء فروع في مكتباتها للآثار الأدبية الاسلامية القديمة والحديثة المكتوبة باللغة العربية ولغات الشعوب الاسلامية وما كتبه المستشرقون في هذا

الموضوع لتكون مراجع لدراسة هذا الأدب.

٥- العمل على ترجمة هذه الآثار من العربية واليها، وذلك للافادة من الطاقات الادبية في العالم الاسلامي، وتفاعل هذه الطاقات ورفد بعضها لبعض والسعي لطباعتها ونشرها بالوسائل المختلفة.

٦- حض الجامعات وغيرها من المؤسسات العلمية والنوادي الادبية على تشجيع ذوي الطاقات الادبية المبدعة، واعداد المسابقات لكتابة القصص والمسرحيات والمسلسلات النابعة من الاسلام وتعاليمه وتوجيهاته ومنح الجوائز السخية لاصحاب الآثار الفائزة. والعمل على نشرها والكتابة عنها، وعن اصحابها في الصحف والمجلات.

٧- وضع منهج متكامل للادب الاسلامي تتفق الجامعات المتناظرة في العالم العربي على تبنيه وتدريسه في المرحلتين العالية والعليا.

٨- انشاء مجلة متخصصة بالأدب الاسلامي عامة وأدب الاطفال واليافعين والشباب خاصة.

٩- ان تعمل المعاهد والكليات التي تدرس المذاهب الادبية من كلاسيكية ورومنسية وواقعية وغيرها على عرض هذه المذاهب وبيان انها كانت نتيجة لفلسفات واتجاهات اجنبية، ثم الاهتمام البالغ بتفنيد وجوه مخالفة هذه المذاهب للاسلام، وتناقضها الشديد مع قيمه وتعاليمه، وان يعهد بتدريس هذه المادة إلى ناقد اسلامي بصير.

١٠- ان تكون الموضوعات والنصوص الادبية التي تدرس في

المعاهد والكليات خالية من كل ما يخالف الاسلام . وان تختار من الآثار الادبية المفعمة بالحض على المثل التي تنبع من الفطرة السليمة وتتفق مع دين الله .

١١- ان تهتم الجامعات اهتماماً كبيراً بالأدب الاسلامي للأطفال وذلك بتدريس هذا الأدب في المرحلتين العالية والعليا واعداد البحوث المتعمقة فيه لنيل درجتي الماجستير والدكتوراه (انظر المقدمة) .

١٢- ان تشتمل كتب الادب والمحفوظات في المراحل الدراسية كلها على نصوص مختارة مؤثرة للشعراء المبدعين من القدماء والمحدثين الذين صوروا نكبة المسلمين في أولى القبلتين وثالث الحرمين . وبكوا ما حل بفلسطين على أيدي الصليبيين واليهود ودعوا إلى تحريرها . كما تشتمل على نصوص تصور فرصة المسلمين باستعادة الديار المقدسة على يدي صلاح الدين ، حيث يبرز دور الكلمة بجانب البندقية!

١٣- ان يكون الادب الاسلامي الذي نقدمه للطلاب في مراحل الدراسة جميعها وثيقة الصلة - مادة ومعنى - بكتاب الله ، وحديث رسول الله وآثار الصحابة والتابعين ومن تبعهم باحسان لما في ذلك من روعة بيانية وعمق ايماني وروح نابضة بالخير وتغذية مستمرة لادبنا الاسلامي المعاصر .

١٤- التنديد بالأعمال الأدبية المكتوبة باللهجات العامية ومناهضة الدعوات للمحافظة على التراث الشعبي «الفولكلور» وبيان ما فيها من خطر على لغة القرآن وقطع لاواصر القربى بين المسلمين عامة والعرب منهم خاصة .

١٥- دعوة القائمين على الجامعة الاسلامية في المدينة المنورة إلى إنشاء فرع الدراسات العليا في الأدب وقواعده في النقد وذلك لتكوين فئة من المختصين بهذا الأدب الداعين إليه عن دراية وتعمق وخبرة.

١٦- دعوة الجامعات إلى اقامة مراكز للأدب الاسلامي تعنى بجمع مصادر هذا الأدب ومراجعة الموضوعات التي كتبت فيه والمقالات التي حضت عليه والرسائل الجامعية التي أعدت فيه.

١٧- تخصيص منح دراسية للأدباء الاسلاميين من عين العرب الناطقين بها، وذلك لتوسيع رقعة الأدب الإسلامي وتبادل الخبرات الأدبية عن طريق الترجمة من العربية وإليها.

١٨- اهتمام العاملين في مجالات الأدب الاسلامي بتأصيل علم الجمال وتوجيهه وجهة اسلامية والافادة منه في الاعمال الادبية الاسلامية ليتآزر الشكل مع المضمون.

١٩- يتوجه اعضاء الندوة بجزيل الشكر إلى الجامعات التي انشأت معاهد ومراكز لتعليم لغة القرآن للمسلمين من غير العرب. ويأملون منها ان تضاعف جهودها في هذا المجال الخيّر، وأن توجه التعليم في هذه المعاهد والمراكز وجهة تعتمد على قراءة القرآن الكريم والتحلي بالحديث الشريف ومعرفة اداء الشعائر على اكمل وجه.

كما يأملون من هذه الجامعات ان تعمل على افتتاح المدارس في تلك البلاد الاسلامية لتعليم الاطفال والناشئين لغة القرآن ودين الاسلام وتثقفهم بالثقافة التي تربطهم بإخوانهم العرب وان تؤلف لهم الكتب الاسلامية التي تلائم مستوياتهم.

ثانيا: رسم بعض الخطوط العريضة للأدب الاسلامي الذي ننشده:

تقترح الندوة لتأصيل هذا الأدب واغنائه ما يلي:

١- تعميق النظرة في مفهوم هذا الأدب على التصور الاسلامي الصحيح، والربط المحكم المتوازن بين قيمه الشعورية والمعنوية وبين قيمه التعبيرية.

٢- دراسة النظريات والمذاهب النقدية عند القدماء والمحدثين من نقادنا الاسلاميين وذلك لاستخلاص السمات التي يجب ان تتوفر في الأدب الاسلامي والوصول إلى مذهب أصيل في الادب الاسلامي ونقده.

٣- العناية بدراسة طائفة من النصوص المختارة من القرآن الكريم والسنة المطهّرة وخطب الراشدين دراسة متعمقة وذلك لاستجلاء مكامن الروعة الفنية فيها، وجعلها موجهاً ومقوماً لانتاج الادباء الاسلاميين.

٤- الاهتمام بوضع القواعد والضوابط للفنون الادبية الحديثة من قصة واقصوصة ومسرحية ومقال وخاطرة وترجمة وغيرها تكون هادية للادباء في انتاج أدب إسلامي سليم متميز.

٥- دراسة منهج القرآن الكريم والحديث الشريف في القصة والحوار والتصوير الفني والتملي من خصائص هذا المنهج ومزاياه للافادة منها في النتاج الادبي الاسلامي.

٦- دراسة فنون الادب الاسلامي في عهودها الأولى وذلك كأدب الدعوة إلى الله، وأدب الغزوات والفتوحات ورصد تطورها

في الخطابة وأدب المواعظ وشعر الجهاد والحماسة الاسلامية.

٧- دراسة الشعراء والادباء الاسلاميين المغمورين من القدماء والمحدثين لتغذية الأدب الاسلامي وتقويته وتنويعه.

٨- العمل الجاد على جمع الأدب الاسلامي الحديث ونقده وذلك لتقويمه وتوجيهه ولفت الانظار إليه.

ثالثا: توصيات عامة:

١- طباعة البحوث التي أعدت لهذه الندوة وتعميم توصياتها وإرسالها إلى سائر الجامعات في البلاد الاسلامية عامة، والعربية منها خاصة مع الدعوة إلى تبني الأدب الإسلامي الذي تبنته جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، وجامعة دار العلوم الإسلامية في الهند، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وغيرها من الجامعات.

٢- أن تعقد هذه الندوة المباركة في بلد من البلدان الاسلامية مرة كل عامين. (انظر: مجلة الوعي الاسلامي، العدد ٢١٤، شوال ١٤٠٢ هـ).

وأرى أن توصيات ندوة الجامعة الاسلامية في الأدب الاسلامي اكثر رحابة وشمولاً من توصيات ندوة دار العلوم في الهند.. على اختصارها وتحديد قنواتها حيث شملت دور الدول الاسلامية والوزارات المختصة والجامعات الاسلامية إضافة إلى الجهود الفردية والمؤسسات العلمية والروابط، وتركيز هذه التوصيات على قضايا جد بالغة، وجد مهمة.. ترجمة الآداب العربية إلى اللغات الأخرى، والاستفادة من نتاج هذه اللغات، والاهتمام بما كتبه المستشرقون في هذا الموضوع مدحاً وقدحاً!!، والدعوة لانشاء فرع

الـدراسات العليا في الأدب الاسلامي وقواعده في النقد، وذلك لتكوين فئة من المختصين بهذا الأدب الداعين إليه عن دراية وتعمق وخـبرة. والتنـديد بالأعـمال الأدبية المكتـوبـة باللهجـات العامية وخطرها على الناشئة، إضافة إلى وصل الأدب مع القرآن والسنة المطهرة.

★ اجتماع مكة المكرمة لتأسيس المؤسسة الاسلامية للنشر والتوزيع والانتاج الفني

بناء على دعوة الامانة العامة الدائمة للاعلام الاسلامي تم تأسيس المؤسسة الاسلامية للنشر والتوزيع والانتاج الفني ومركزها مكة المكرمة، وهذه خطوة رائدة في مجالات التوزيع والنشر. وتم هذا الاجتماع في العاشر من شهر آذار /١٩٨٢، ١٤٠٢ هـ، وذلك لوضع الخطوط العريضة والدراسات لانشاء شركة مساهمة اسلامية للتوزيع على أسس بما يعزز الصحوة الاسلامية الخيرة في اقطار العالم الاسلامي الكبير.

والتصورات التي وضعها المؤتمر لايجاد مؤسسة تهتم في مختلف أنواع المطبوعات الاسلامية من كتب ومجلات وصحف، وأفلام وأشرطة كاسيت وفيديو، ونشرات اقتصادية وفقاً للأبحاث المقدمة في مؤتمر جاكرتا الأول للاعلام الاسلامي في الفترة ٢١-٢٣ شوال من عام ١٤٠٠هـ، وتقديم هذه المطبوعات إلى مختلف المؤسسات والمنظمات ومعاهد التعليم ونوادي الثقافة ودور رعاية الشباب المسلم في مختلف أنحاء العالم الاسلامي لغرض بناء الانسان المسلم القوي السليم عقيدة وفكراً ومعرفة وعطاء وسلوكاً سوياً وأداءً ناجحاً في دينه ودنياه. وكان من قرارات هذا الاجتماع :

١- تسمى الشركة المطروحة المؤسسة الاسلامية للنشر والتوزيع والانتاج الفني ومركزها الرئيسي مكة المكرمة.

٢- تغطي المؤسسة بنشاطها مجالات الانتاج والتسويق في العالم

الاسلامي كله في طريق الاعلام الاسلامي، حيث عقد عدد من ممثلي دور النشر والمكتبات وأصحاب المطابع ومن مختلف الدول العربية والاسلامية اجتماعاً أولياً لمباحثة ودراسة هذا الموضوع.

٣ـ تقدم انتاجها بأكثر من لغة وتهتم باخراج الكتاب وكتب التراث وطباعتها، وترجمة المؤلفات الاسلامية الجيدة إلى اللغات العالمية وتوزيعها في جميع أنحاء العالم بالإضافة إلى ترجمة المفيد من روائع الفكر العالمي إلى اللغة العربية مع اعداد فهارس للمؤلفات العلمية والثقافية والادبية والفنية الاسلامية وتوزيعها على الجهات المعنية بشكل دوري يضمن للعلماء والباحثين المسلمين متابعة حركة التأليف والنشر في مختلف مجالات المعرفة الانسانية في يسر ودقة كما أنها تعمل على دعم الكتاب الاسلامي للتعريف به وترويجه عن طريق عرضه في المراكز الثقافية ودور الكتب الوطنية وأماكن رعاية الشباب.

٤ـ لتحقيق هذا الهدف سيكون للمؤسسة مراكز توزيع في مختلف العواصم مكونة من شبكة توزيع وقواعد الانتاج المنشودة وتحدد المقومات والصلاحيات لكل مركز وفرع حسب وضعه وقدراته، والامكانات المتاحة من موقعه انتاجاً وتوزيعاً، على أن تنشأ المراكز والفروع من المؤسسة كاملة أو يعهد بالوكالة إلى من تختاره المؤسسة في هذه الناحية أو تلك.

٥ـ ان يكون الشكل القانوني لهذه المؤسسة هو مؤسسة اسلامية اقتصادية عالمية، مساهمة، اسلامية بمعنى أنها صاحبة رسالة تبتغي بعملها وجه الله وخدمة الامة الاسلامية ونشر الرسالة المحمدية. واقتصادية هدفها الربح الحلال الذي ينمو به رأس المال

ويعين على تحقيق أهدافها.

وعالمية: ان تتجاوز مسؤولياتها وأنشطتها حدود البلد الواحد او المنطقة الواحدة.

٦- سيكون رأس المال للشركة المبدئي مبلغ (١٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ريال سعودي توزع على مائة وحدة سهمية قيمة كل وحدة ألف ريال سعودي وتتلخص اهداف هذه المؤسسة في الآتي:

١- ان مؤسسة كهذه دعت إلى إنشائها رابطة العالم الاسلامي، وانطلقت من مكة المكرمة ومن جوار البيت الحرام. لا هدف لها إلا خدمة الاسلام، ونشر تعاليمه السمحة على الصعيد الاسلامي، ودعم المؤسسات الاسلامية التي تعمل في حقل الاعلام الاسلامي، مستفيدة من كل الوسائل العلمية والعصرية.

٢- لا تدخل المؤسسة في مجال المنافسة أو المزاحمة للمؤسسات الاسلامية القائمة حالياً وانما تأخذ في اعتبارها التعاون مع هذه المؤسسات واحتضانها وتسديد مسارها باعتبارها روافد سبقت بالخبرة والتجربة.

٣- التصدي لكل ما يسيء الى الاسلام وتحذير المسلمين منه وتصحيح المفاهيم الاسلامية.

★ الهدف الاول (التوزيع): ويقصد به ايصال ونشر الاعمال الفكرية والفنية الجيدة التي تخدم الاسلام والمسلمين بكل الوسائل الممكنة والحديثة إلى العالم الاسلامي من كتب ومجلات ووسائل الاعلام المرئية والمسموعة.

★ الهدف الثاني (النشر): ويهدف إلى نشر الاعمال الجيدة التي تطرد الاعمال الرديئة وتسد فراغات المكتبة الاسلامية ومجالاته: التأليف

والتحقق والترجمة والطباعة.

★ الهدف الثالث (الانتاج الفني): ويهدف إلى توفير الاشرطة السينمائية الروائية والتسجيلية واشرطة (الفيديو) للمسلسلات التلفزيونية واشرطة (الكاسيت) الصوتية واللوحات والخطوط الفنية الاسلامية المصورة عن المعالم الاسلامية.

وأكد البيان الختامي على أن المؤسسة مطالبة وملزمة بالأمور التالية:

١ـ استقبال انتاج المؤلفين ومحققي التراث والمترجمين، مع العناية بثقافة الطفل.

٢ـ ان تدعو المؤسسة المختصة إلى الكتابة في مشروعات النشر الاسلامية الكبيرة كإصدار الموسوعات والمراجع العلمية التي تفتقر اليها المكتبة الاسلامية بمختلف اللغات.

٣ـ ان تدعو إلى ان يكون هدف التأليف اضافة الجديد المتفق مع الاسلام نصاً وروحاً.

٤ـ ترجمة الكتب الاسلامية من وإلى اللغات التي ينطق بها أبناء الامة الاسلامية.

٥ـ حماية حقوق المؤلفين والمحققين والمترجمين.

٦ـ السعي لايجاد جهاز طباعي على أحدث ما في العصر.

ان هذا المشروع الاسلامي العالمي للتوزيع والذي يستهدف ايصال مختلف أنواع المطبوعات الاسلامية بأحدث الاساليب

---

(١) جريدة اللواء الادرنية الصادرة بتاريخ ١٩٨٢/٣/٢٤م. بتصرف.

وانجع الوسائل، ويفضي بمختلف نشاطاته العالم الاسلامي اجمع . . . هو مشروع عملي في ميدان الإعلام الإسلامي ندعو الله له بالتوفيق والنجاح . . . وأن يأتي اليوم الذي يرسل به الكاتب المسلم انتاجه إلى هذه المؤسسة . . وما هي إلا أشهر معدودة حتى يستلم كتابه مشرقاً جميلاً بهياً، وإني على ثقة بأن معظم الكتّاب الاسلاميين لا هدف لهم سوى نشر الكتاب بين أبناء هذه الأمة حاملة الرسالة وقائدة العالم!!

وحول تعدد هذه المؤتمرات وتنوعها يقول الدكتور حسن عبدالظاهر في مقالة له بعنوان (وجه للثقافة الاسلامية المعاصرة من خلال رؤية علمية وحضارية للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية):

تعددت ظاهرة قيام المؤتمرات في عصرنا الحاضر، وتكاثرت وتنوعت بصورة تكاد تكون سمة من سمات العصر ما يمكن أن نصفه معها بعصر المؤتمرات!

وبين الحين والحين ينعقد مؤتمر هنا وهناك تحت راية اسلامية . . مرة للدعوة، وأخرى للاقتصاد، وثالثة للمسجد، ورابعة للفقه، وخامسة للفكر الاسلامي، وسادسه للاعلام، وسابعة للأدب . . وهي في مجموعها ظاهرة صحية تدل على اليقظة الواعية التي تدب في أوصال العالم الاسلامي، واحساسه بالحاجة إلى إقامة السنن،

---

(١) المذكرة التي أرفقت ببطاقات الدعوة إلى هذا الاجتماع الاعلامي / الأمين العام للأمانة الدائمة للإعلام الإسلامي.

سنن الشورى والاخاء والتعارف ثم إحياء سنة الاجتهاد التي هي شعار الأصالة والتجدد والثبات والتطور في شريعة الإسلام.

. . . حتى ان هذه المؤتمرات قد اتخذت طابعاً انسانياً وعالمياً تتلاقى فيها العقول، وتتلاقى فيها الثقافات ويتقارب فيها بنو الانسان أو يتباعدون. . ومهما تكن هذه المؤتمرات فلا يمكن أن نغفل اموراً فيها هي دوافع وهي ثمرات: منها هذا اللقاء الانساني الذي يقرب ولا يباعد ويؤلف بين الانسان وأخيه الانسان مع اختلاف اللون واللسان والثقافة. ومنها هذا اللقاء الفكري الذي يتعاون على مواجهة المشكلات وحلها في اطار من التفاهم لا التخاصم، والتعاون لا التناحر. ومنها تبادل الخبرات والمنافع في أسلوب تكاملي يحقق معنى هذا التعاون، ومن هذه الثمرات كذلك. . . هذا الاضطراد في دفع حركة الحياة وعجلتها مما ينمي روح الحضارة والتقدم. (انظر مجلة الدوحة القطرية، العدد ٤٨، محرم ١٤٠٠ هـ، بتصرف واضح).

والمؤتمرات الاسلامية مؤتمرات عملية فاعلة، وتحضرني هنا مؤتمرات أو لقاءات رسول الله ﷺ الفاعلية في المسجد حيث يعتبر المسجد من أهم وسائل الاتصال الجماهيري في الاسلام (انظر: كتابي آنف الذكر ص ٥٦-٦٦). . بل إن الإسلام يدعو إلى اللقاءات اليومية والاسبوعية، في الصلوات، ويوم الجمعة، وفي الأعياد الاسلامية، وفي مؤتمر الحج السنوي وفي حلقات الدرس وزيارات العلماء، حيث كان العالم المسلم يرتحل على ظهر بعيره من آسيا إلى افريقيا دون جوازات سفر أو تأشيرات مرور. وكانت جنسية المسلم عقيدته!!!

مُطارحات في الأدب الإسلامي

★ توطئة

★ نحن ومذاهب الأدب الغربي / الدكتور عبدالباسط بدر.

★ الدراسات الأدبية واحدة من أخطر وسائل تشويه التاريخ الإسلامي / الدكتور عبدالعظيم الديب.

★ على هامش الحوار حول الأدب الاسلامي / الأستاذ محمد بريغش.

★ الأدب الإسلامي ومصادر القوة الصامدة/ الدكتور نجيب الكيلاني.

★ الوجه الحضاري للأدب الإسلامي / الدكتور نجيب الكيلاني.

توطئة

كنت بصدد كتابة دراسة موثقة حول هذه المطارحات التي أرجو أن أكون موفقاً في اختيارها، وكتبت عدة جزازات تتناول هذا المقال أو ذاك، . . . إلى أن وصلتني رسالة مجلة الأمة المرفقة والتي تسمح لي باقتباس هذه المقالات؛ فانثنيت عن مشروعي الأول، وقدّمت خمس مطارحات لأربعة مؤلفين لهم باعهم الطويل في هذا الموضوع الرحب، وحرصت على اختيار هذه المقالات وراعيت تنوع طرحها وجدة أفكارها وطريقة تناولها هذا الأدب الخالد!

وثمة تمايز واضح في هذه المطارحات ـ قد نتفق معهم أو نختلف ـ ولكني ارتأيت كتابة ما أراده الباحث دون تحريف أو تصرف، ذلك أن لي تجربة سابقة في هذا الموضوع، حيث تناول أحد الأخوة الكتّاب مقالاً لي كنت قد نشرته. . «الحصار الإعلامي الموجه لهذه الرسالة الخالدة»، وعلى حسن نيته ـ وهو صديق ـ فقد تقوّل عليَّ ما لم أقله، وزحزح الكلم عن مواضعه!!

وكان كتاب الأستاذ أنور الجندي «خصائص الأدب العربي. . . في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث» أحد مراجع هذه المقالات، عرج فيه المؤلف إلى فساد هذه النظريات الوافدة، وأبرز دور الفكر الإسلامي الذي تشكل الأدب في إطاره، ومكانة الأدب في دائرة الفكر، وخطأ نظرية التجديد المفرغة من الأصالة. .

ولم يبتعد الدكتور عبدالباسط بدر في مقاله عن هذا الطرح حين قال: لم يعرف الأدب العربي في تاريخه الطويل رياحاً تقتحم منافذه كالتي هبّت عليه في هذا القرن، فقد تأثر أدباؤنا بألوان شتى من الأدبين الشرقي والغربي، وتلّون انتاجهم بكل لون، حتى الشعر ـ ديوان العرب الأكبر وأعرق أجناسهم الأدبية ـ أحاطت به العواصف وتركت بصماتها على كل قطعة من جسده!

ومنذ أن اقتحمت مذاهب الأدب الغربي ساحتنا تباينت ردود الفعل بين مرحب ومتردد ومستنكر، وكان معظمها عصبياً في قبوله أو رفضه، ينطلق من أحكام متعجلة أو من خوف صادق يحول دون التصرف بروية، أو من تردد يتجاوزه الزمن. وكانت كلمات الدكتور عبدالباسط بدر في مقاله «نحن ومذاهب الأدب الغربي» موجزة حذرة، حيث أشار إلى خطر هذه المذاهب الوافدة ودور الكتّاب المسلمين إزاء هذه الهجمات المسعورة التي تستهدف الدين قبل الأدب!!؟

ومن الحقائق المقررة التي تأخذ صورة البدهيات التي لا تقبل المناقشة ـ أن الأدب صورة ومرآة للمجتمع وللبيئة التي ينشأ فيها. ومن هنا صار معدوداً من أهم مصادر التاريخ. ولكن هذا القول ليس على اطلاقه.. فليس الأدب صورة تسجيلية للبيئة والمجتمع ـ وإنما هو فن يلتقط بعض القطاعات من المجتمع، فيصورها الأديب من داخل نفسه، أي متأثراً بانفعالاته وعواطفه تجاه ما يصور، ومن هنا نجد المادح والقادح في نفس الوقت، لنفس العمل ولنفس التصرف.

وعلى ذلك فالمؤرخ الذي يجعل الأدب (أياً كان الفن الأدبي

الذي يلجأ اليه) مصدرا من مصادره يجب عليه أن يكون في منتهى اليقظة والحذر. فعندما يستشف سمات العصر من الأعمال الأدبية فعليه أن يحيط بكل الأعمال إحاطة شاملة، ثم عليه أن يفسرها في ضوء تمثله واستبطانه لحياة رجال ذلك العصر، والروح التي توجههم وتسيطر عليهم، ولا ينسى طبعاً باقي المصادر التاريخية الأخرى.

ويقول الدكتور عبدالعظيم الديب في موقع آخر: بعض كتّاب الأدب يعرضون ما يريدون، ويحجبون أفضل ما في التاريخ الإسلامي، .. يمارسون عملية التشويه بالبتر والاجتزاء والتجهيل.

وكان مقاله «الدراسات الأدبية واحدة من اخطر وسائل تشويه التاريخ الاسلامي» متميزاً، وكانت افكاره عميقة راسخة جريئة، وكلنا يعلم تشويهات طه حسين، والعقاد، وجورجي زيدان، وحسين مروه، وغيرهم وغيرهم من أبناء هذه الأمة العربية الاسلامية، وكانت حصوننا مهددة من داخلها، ولعمري أن خطر هؤلاء لأعظم بألف مرة من خطر المستشرقين والمستغربين من أبناء هذا الوطن!! وهذا ما دعا الاستاذ الدكتور عبدالعظيم الديب إلى القول: ما بالنا في عصر الوطنية نقع في يد قرامطة الفكر وتتار الثقافة!!؟

.. وتميّز هذا المقال بكونه نقداً تطبيقياً لأحد مناهج التربية والتعليم، «كتاب الأدب والنصوص الأدبية». لمرحلة ثانوية!!

واخترت كذلك مقال الأستاذ محمد حسن بريغش (على هامش الحوار حول الأدب الاسلامي)، ويعتبر تعليقاً على توصيات ندوة الأدب الاسلامي التي عقدت في الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة.

.. لم تعد قضية الأدب الاسلامي مجهولة عند الدارسين والمختصين، لاسيما بعد أن كثر المهتمون به ـ على تشتتهم ـ والأدب الاسلامي ليس جديداً، بل هو قديم قدم الرسالات السماوية، ولكنه تأصل وبرز بوضوح مع انبثاق فجر الاسلام العظيم. ومن أقوال الأستاذ محمد بريغش: الأدب مرتبط ارتباطاً قوياً بالعقيدة التي يصدر عنها صاحب الأدب، وبالعاطفة والمشاعر التي يكنها في أعماقه.

ـ إن أثراً أدبياً واحداً يستطيع أن يؤدي دوراً في مجال الأدب الاسلامي، قد لاتستطيعه الدراسات الكثيرة.

ـ من الخطير حقاً، أن يكون الأديب المسلم فقيراً في معرفته لعقيدته ودينه وتاريخه، ومن الخطير كذلك أن يكون الناقد متخماً بالثقافة الغربية، بحيث لم يعد في مقدوره أن يعود إلى أصوله ويحتكم إليها.. إن مثل هؤلاء لايتأتى لهم أن يصنعوا أدباً إسلامياً أو يتحدثوا عنه!... بالرغم من تقدير الجامعات لهم، وتفضيلهم على خريجي القاهرة والأزهر!!

★ ★ ★

واشار الأستاذ بريغش إلى قضية هامة وهي التغطية الإعلامية على أدب الشباب المسلم حيث قال: الادباء الاسلاميون، والكتّاب والناشئة من شبابنا بحاجة إلى من يعمل على إبرازهم من خلال إنتاجهم، والتعريف بهم وتشجيعهم ودراسة آثارهم وتقديمها كما يفعل أعداء الإسلام.. بعضهم لبعض، حتى يصنعوا من أبنائهم ابطالاً.. وقد لايكونون كذلك!!

والتغطية الإعلامية تبدأ بتجهيل أبناء المسلمين وابعادهم عن

هموم العالم الاسلامي، وتنتهي بحملات الغزو الثقافي والتبشيري، . . . وأشرت إلى هذا الغزو والحملات الصليبية في معرض بحثي «مدخل لدراسة أدب الحروب الصليبية».

كما اخترت مقالين للدكتور نجيب الكيلاني أولهما: «الأدب الاسلامي ومصادر القوة الصامدة» حيث قال فيه:

- مما لاشك فيه أن القوة ينبوع من ينابيع التعبير والجمال والتأثير، لكن أية قوة تلك التي تستحوذ على الألباب والمشاعر، وتحظى بالتقدير والتبجيل؟! فالقويُّ الذي يحطّم قواعد الظلم والفساد والرذيلة، يختلف تمام الاختلاف عن القوي الذي يقطع الطريق، ويسلب الابرياء حقوقهم وأموالهم وأعراضهم، ويسحق دعاة الحب والخير والحرية، وشتان بين هذين الانموذجين، ومن هنا كانت دعوة القرآن الكريم: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم. . . ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فتوظيف القوة يكون لمهمة مقدسة، لتدمير جموع الشر والفساد والانحراف، وأعداء الله هم جنود الشيطان واحباؤه، يجابهون كل فضيلة، وينتصرون لأهوائهم وقيمهم التي تلفعت بالفساد والمنفعة العاجلة.

. . والاسلام يحتوي على عناصر قادرة، لها من القوة بحيث تفعل في كل حين، حتى في اوقات تخلّف المسلمين وضعفهم.

. . انه استعلاء الايمان. قال تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون إن كنتم مؤمنين﴾. . . وهذا الاستعلاء ليس في المعركة فحسب بل هو موقف عام يشمل كل حالة، وهذا الاستعلاء ليس بالغرور أو التكبر وإنما هو استعلاء العقيدة، واستعلاء النفس

المؤمنة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإن نزلت هذه الآية الكـريمـة في معركة أحد!... وألم المسلم غير ألم الكافر، ويصرخ أحدهم: يوم أحد بيوم بدر، وردّت عليه العقيدة: (قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار)!!

والمسلم يستمد قوته من الله، ويستمد معنوياته من هذا المصدر الذي لاينضب، والجنة ثمنها الدماء وتعبر إليها عن طريق الآلام - إن صح التعبير - ولا بد للشهد من ابر النحل؛ لذا استشهد خيار صحابة رسول الله ﷺ في المعارك والغزوات.

وهذا الاستعلاء له وجهان: وجه متعلق بالفكرة ذاتها ﴿وكذلك جعلنـاكم أمـة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾، والثقـة بالاســلام العـظيم وطبيعـة التصـور الاسلامي للحياة.

إنها ثقة الاسلام التي يمنحها كل مؤمن وكل مدافع عن ثغرة من ثُغره. والانتصار النفسي أعظم من الانتصار المادي.. لأن الأول يحرك الثاني ويقوّيه... وهذه الثقة من نفس المنهج لا من خارجه، وهذه الثقة ليست مكرهة أو مجبرة أو مدفوعة الثمن!!

★★★

وكما قال الدكتور الكيلاني: الاديب المسلم الملتزم مطالب بفتح النوافذ على الأخوة الذين يشاركوننا في المعاناة والجهاد والمصير، كما هو مطالب بضرب العنصرية والاقليمية والشعوبية، التي لا تثمر إلا الفرقة والتمزق والجفاء.

إن رصيد الأديب المسلم رصيد هائل، لكنه اشبه «بالمادة الخام» يحتاج إلى الأيدي الماهرة التي تدرك قيمتها، وتحسن تشكيلها وتجيد

توظيفها لخدمة الغاية النبيلة التي رسمتها لنا القدرة الالهية.

والكاتب المسلم هو حارس من حراس العقيدة فيجب أن لايؤتى من قبله!

ويبدو لنا أن المقال مقطوعٌ، وأنه اطول من صورته التي نشرته بها مجلة الأمة!

أما مقال الدكتور نجيب الكيلاني الثاني «الوجه الحضاري للأدب الاسلامي» فقد عرضت لجزء من الصراع الحضاري في أدب الحروب الصليبية ـ كنموذج ـ وفي معارضتي لفصل الدين عن الأدب.. وما جاء به القاضي الجرجاني الأديب الناقد!!

واتفق مع مقولة الأستاذ نجيب الكيلاني إلى حد بعيد.. إن الفن والايديولوجية يشكلان قضية تبدو معقدة، لأن النظرة السطحية تتوهم ـ تنافراً أو تضاداً بينهما، انطلاقاً من المفهوم السائد لدى البعض، حين يقولون: إن الفن حرية والعقيدة التزام. والعلاقة بين الحرية والالتزام حسبما يتوهمون، علاقة بين قطبين متنافرين، والواقع أن الذين روجوا لهذا التصور السقيم وقعوا في خطأ التجزئة، وخرجوا عن صميم التجربة الحية، والممارسة التاريخية وتناسوا أن روائع الفن ارتبطت بما تحمله من مضمون فكري رائد، أو عقيدة مؤثرة، وشاركت بايجابية في تطوير نمط الحياة والسلوك وساهمت في إثراء الحضارة الانسانية بمظاهرها المتعددة.

وكان الأدب العربي الاسلامي يعكس بالضرورة حضارة هذه الامة وروائعها، والحضارة العربية الاسلامية التي تمثل الأصالة الحقيقية للأمة الإسلامية هي من الأصول التي استمد الأدب

الاسلامي وجوده منها.

وهذا الأدب مرتبط بتراث السلف الصالح.. فهم الجذور التي نبتت عليها أغصاننا وأورقت، وهذا التراث ليس جامداً - كما يتوهم البعض - بل هو تراث متطور متحرك فاعل متفاعل!!

ونحن نريد الأدب العربي المسلم الذي يعكس هذه الحضارة الاسلامية الرائدة لا الأدب الذي يعكس حضارة الغرب، وقيم الغرب، وإباحية الغرب!!

.. إن محاكمة الأدب العربي وفق نظريات النقد الغربي إجحاف وظلم لهذه اللغة الجميلة وهذا الأدب الاسلامي الرفيع،... إنها نظرية تغريب الأدب المسلم وإلباسه غير حلله.. فهل وعى النقاد المحدثون هذه المقولة؟

نحن ومذاهب الأدب الغربي

بقلم : د. عبدالباسط بدر

لم يعرف الادب العربي في تاريخه الطويل، رياحاً تقتحم منافذه كالتي هبت عليه في هذا القرن؟ فقد تأثر أدباؤنا بالوان شتى من الادبين الشرقي والغربي، وتلون انتاجهم بكل لون، حتى الشعر- ديوان العرب الاكبر وأعرق أجناسهم الأدبية - أحاطت به العواصف وتركت بصماتها على كل قطعة من جسده.

ومنذ أن اقتحمت مذاهب الادب الغربي ساحتنا، تباينت ردود الفعل بين مرحب ومتردد ومستنكر، وكان معظمها عصبياً في قبوله أو رفضه، ينطلق من أحكام متعجلة أو من خوف صادق يحول دون التصرف بروية، أو من تردد يتجاوزه الزمن.

والان وبعد مرور عقود كثيرة هدأت فيها العواصف، وتحول الأمر من ردود فعل إلى مبادرات لها مسوغاتها، يحسن بنا أن ندعو إلى رؤية إسلامية لمذاهب الأدب العربي، تأخذ في اعتبارها اصولنا العقيدية التي لا يصح أن نتزحزح عنها، وضرورة تعاملنا مع معطيات العصر الانسانية من موقف كريم. .

وقد يقال - وقد قيل كثيراً من قبل - إن مذاهب الادب الغربي صناعة غير إسلامية أساساً. . . فلماذا الرؤية الاسلامية؟!

وهل ستكون شيئاً غير الرفض؟

من التسرع أن نستسلم لمثل هذه المجابهة، فالقضية واسعة ومتشابكة لا يصح فيها التعميم، وليس من طبيعة الاسلام أن

يحكم على ظواهـر الحياة - المادية او المعنوية - بتعسف وتسرع، والادب إحدى ظواهر الحياة الانسانية يعايشها وينتجها المسلم وغير المسلم، وتنتقـل آثـارهـا من مجتمع إلى آخر - كما تنتقل أي من العـادات الاجتماعية أو الازياء أو الاطعمة - باحتكاك الجماعات البشرية وبفعل عوامل التأثير والتأثر الاخرى.

ثم إن الأدب مستودع شعوري هائل لامة، يحمل خصائصها وتصـوراتها وعقائدها وتاريخها، ويحمل في الوقت نفسه قدراً من التجارب الانسانية العامة التي تتخطى الحدود، ولا تعبأ بفوارق الاجناس واللغات. ومن الخطأ الفاحش أن نتجاهل هذه الحقيقة. خاصة وأننا في عصر يهيء للظواهر الانسانية فرص الانتقال بين المجتمعات وينمي الاتجاه نحو أدب عالمي.

لذا ينبغي أن ننظر إلى القضية بأناة، آخذين في حسابنا جوانب كثيرة هامة منها:

أولا: خاصية الانسياب في الأدب، وقدرته الفائقة على الانتقال من أمة إلى أخرى دون اعتبار لطبيعة العلاقات بينهما، فهو ينتقل بينهما في حالة وجود علاقات طبيعية وجوار حسن. كما هي الحال في أمم كثيرة متجاورة، ويستطيع الدارس أن يجد أمثلة كثيرة منها: التأثير والتأثر المتبادل في هذا العصر بين الادبين الانكليزي والفرنسي، والالماني والايطالي. والهندي والصيني.. إلخ.

وينتقـل أيضا في حالة وجود علاقات متوترة وحرب مستمرة، فعندما جهزت اوروبا الحملات الصليبية إلى الشرق الاسلامي، وشحنتهـا بمشـاعر الحقد والغضب هيأت من حيث لا تدري، فرصة لانتقال آثار كبيرة من الأدب الاسلامي إلى آداب الشعوب

الاوروبية. وعندما كانت جيوش انكلترا وفرنسا تحتل معظم البلاد العربية، وتواجه ثورات العرب بالنار والحديد، كان الادبان الانكليزي والفرنسي يتسللان إلى بيوت المثقفين ويلونان الانتاج الادبي العربي بألوان من الرومانتيكيتين الانكليزية والفرنسية.

وينتقل من الامة القوية إلى الامة الضعيفة، أي من الغازية إلى المغزوة، فقد انتقلت آثار الآداب الاوروبية إلى آداب الشعوب الاسلامية كافة ابان الاحتلال الاوروبي للبلاد الاسلامية. ولكن القوة ليست فيصلاً حاسماً في هذه القضية، فهو ينتقل أيضاً من الامة الضعيفة المغزوة إلى الأمة القوية الغازية، إذا كان في الأمة الغازية فراغ حضاري، أو كان أدبها دون أدب الامة المغزوة على نحو ما حدث بين اليونان والرومان، ففي الوقت الذي تحولت فيه الممالك اليونانية إلى مستعمرات رومانية، تسلق الادب اليوناني اندية الرومان، وادهشهم بتفوقه الحضاري، فاقبلوا عليه وتتلمذوا على يديه.

ثانياً: ان الادب بطبيعته ملتصق بالأمة التي تنتجه، يحمل خصائصها وعقائدها، وعندما ينتقل من مكان الى مكان آخر ينقل معه كل ما يحمله من خصائص وعقائد. وإذا استوطن في مجتمع جديد اسكنها معه في نفوس متذوقيه والمعجبين به، فالشعر الرومانتيكي الفرنسي - مثلاً - بنية فنية وفكرية، تمتزج فيها كل مواصفات الشاعر الفرنسي وكل العوامل التي صادفت رومانتيكيته، فهو حصيلة ظروف القهر والالم والتمرد على المادية الطاغية والغيبية القاصرة، وعندما ندخل في نسيج شاعر عربي، فسوف يلون شعره - لا محالة - بالظروف والمواقف العقيدية السابقة.

ثالثاً : إن الاسلام الذي ندين به، يمد ظلاله إلى ظواهر الحياة كلها، ولا يعرف الفصل بين الدين والسلوك، أو الدين والعواطف، أو الدين والسياسة . . إلخ . وكل شيء في حياة المسلم ينضوي تحت أحد الاحكام الرئيسية الثلاثة :

فرض ـ مباح ـ حرام .

فكل ما هو ضروري لحياته وعقيدته الاساسية فرض، عليه أن يعمل به، وكل ما يتنافى مع فطرته ويؤذي كيانه الفردي أو الجماعي محرم، وعليه أن يحذره، وما هو بين هذا وذاك مباح، له أن يأخذ به أو يتركه . . ولا يأثم .

وبذلك يفتح الاسلام نوافذ كثيرة للتعامل مع ما حولنا، ويقدم لنا مقاييس بسيطة وفعالة تحكم تعاملنا: إن كان في هذا الذي سنتعامل معه ما يؤذي حياتنا وعقيدتنا أعرضنا عنه أياً كانت المغريات وإن لم يكن فيه مايخدش حياتنا وعقيدتنا فنحن في خيار «المباح» وما أوسعه وأغناه .

رابعاً: انا في حياتنا اليومية نقف مواقف اختيار من ظواهر الحياة الجديدة: نحكم مقاييسنا الخاصة فيها، فعندما يقدم لنا لون من الطعام لم نطعمه من قبل، نتذوقه ونحكم عليه بقدر ما يرضى عنه ذوقنا، وعندما نقابل زياً جديداً نوافق عليه أن نرفضه حسب ما قرَّ في نفوسنا من مواصفات للزي المرضى، وعندما نوضع في موقف علينا أن نطبق فيه تقليداً اجتماعياً لم نعهده من قبل نستجيب لهذا التقليد بقدر ما نجده منسجماً مع مواصفاتنا، وبقدر قابليتنا للتوافق معه، وقد نطبقه بحكم ضغط معين أو واجب مفروض، لكننا في أعماقنا لا نستسيغه .

ولكن عندما نكون اصحاب موقف عقيدي ملتزم، فإننا سنعطي مقاييسنا العقيدية اكبر مساحة في كفة الميزان، فنرفض الطعام الجديد ـ وإن كان مذاقه طيباً ـ إذا عرفنا أن فيه لحمًا حراماً، وننكر الزي الجديد إذا رأيناه يكشف ما أمر الله أن يستر، ونأبى التقليد الاجتماعي إذا وجدنا في عقيدتنا ما لا يرضاه.. نفعل ذلك كله بداهة ودون تردد، بدافع فطري نمته العقيدة.

فإذا كنا نقر بأن الادب ظاهرة مهمة من ظواهر الحياة الانسانية، وأنه ذو طاقة انسيابية هائلة، وأنه في انتقاله إلينا سوف يحمل معه خصائص فكرية وعقيدية بقدر ما يحمل من قضايا فنية جديدة.

وإذا كنا لا نستطيع أن نغلق نوافذنا في وجه آداب الاخرين، وليس من الحكمة أن نفعل ذلك حتى لو استطعنا، وإذا كنا لا نقبل أن تختلط عقائدنا وتصوراتنا بأمشاج غريبة تؤذي فطرتنا.

إذن...

فلا بد لنا من نظرة هادئة فيما يفد إلينا، ويدخل في عقول أدبائنا وقلوب جماهيرنا، نظرة تحكمنا فيها عقيدة راسخة من جهة، ورغبة أكيدة في الاستفادة من التجارب الانسانية الفنية من جهة اخرى.

فلا نختنق بضيق الافق، ولا نضطرب بعواصف الاخرين، بل نستفيد من تجاربهم دون أن تتقصف أغصاننا بل جذورنا.

والاسلام يدعونا إلى ذلك، بل يأمرنا، لان الحكمة ضالة المؤمن، وإغناء التجربة الشخصية بتجارب الاخرين قوة معنوية ليس من الحكمة أن نغفل عنها، ونحن محكومون بعقيدتنا أولاً وبواقع العصر ثانياً ـ أن نتعامل مع الآداب الاخرى، فإما أن نتعامل معها على بصيرة، ونقف أمامها مزودين بحكمة الاسلام

وآفاقه الواسعة، نأخذ ما نريد ونعرض عما لا نريد. وإما أن ندفن رؤوسنا في الرمال، نرفض كالأطفال، أو نترك الامور تجري على هواهـا ايا كانت النتـائـج والعواقب، والحالتان لاتتفقان والوعي الاسلامي المطلوب.

المـرجع: مجلة الأمة، العدد الثالث والعشرون، السنة الثانية، ذو القعدة ١٤٠٢ هـ، أيلول ١٩٨٢م، قطر.

«الدراسات الأدبية واحدة من أخطر وسائل تشويه التاريخ الإسلامي»

بقلم الدكتور: عبد العظيم الديب

اذا كان هذا واجباً عند اعتماد الأدب مصدراً من مصادر التاريخ، فهو أيضاً واجب عند الدراسات الأدبية البحتة - وعند تفسير الظواهر الأدبية المختلفة - فقد تكون الدراسة الأدبية دراسة فنية بحتة، ولكنها في نفس الوقت تؤكد حقائق تاريخية بصورة غير مباشرة، وفي هذه الحالة تكون أكثر تأثيراً وابعد خطراً.

ومن هنا كانت الدراسات الأدبية في حاجة إلى يقظة تامة ووعي كامل بهذه الآثار التي تترتب عليها أو تفهم منها. والدراسة التي نقدمها اليوم هي (كتاب الأدب والنصوص الأدبية) للصف الأول الثانوي وبادىء ذي بدء نقول: إننا لا نتهّم واضعي المنهج ولا مؤلفي الكتاب في دين ولا صدق نية، ولا في الغيرة على الامجاد والأجداد، فهم جميعاً فوق الشبهات، بل هم أيضا ضحايا لذلك الفكر الخبيث الذى تسلل إلى أعماق ثقافتنا. وأصبح من البدهيات المسلم بها، بل إن وقوع هؤلاء في هذه الوهدة وهم من أصحاب الثقافة العربية والاسلامية والقائمون على أمر اللغة العربية، والدين، دليل على خطورة هذا السم الذى تسلل إلى الدماء، حتى صار جزءاً من تكويننا الفكري، نؤمن به ونردده ونداقع عنه.

فلنستعرض معاً ذلك الكتاب

يدرس هذا الكتاب فترات ثلاث من تاريخ الأدب العربي أو عصوراً ثلاثة هي: العصر الجاهلي، وعصر صدر الاسلام،

والعصر الأموي، وهو يعرض نماذج من أدب هذه العصور يدرسها ويحللها ويحفظ منها التلاميذ نحواً من نصفها، فكيف عالج الكتاب كل عصر من هذه العصور.؟ وبأي روح؟

العصر الجاهلي:

حين ننظر في أدب هذا العصر نجد: مآثر عربية - فروسية - دعوة إلى السلام - فخراً واعتزازاً بالنصر على الفرس - قيماً خلقية - في الحفاظ على الكرامة - من صور الكرم - قيادة حكيمة - طريق السيادة والشرف - اكرام الحجيج - وصية أم لابنتها.

هذه هي القسمات البارزة أو الملامح العامة للعصر الجاهلي، ويزيدها الشرح وضوحاً وتأكيداً فتقرأ في شرح النص الثاني (مآثر عربية): انهم أسبق الناس إلى المكرمات، وان غيرهم لا يلحق بهم.. وإن الشرف صفة أصيلة فيهم.. إنهم أهل جد وخشونة، وأهل كرم وبذل، وأهل عزة ومنعة.

وفي ص ٤٤ يقدم الكتاب لأبيات المثقف العبدى بقوله: وقد كان للمجتمع الجاهلي مآثر ومفاخر يتغنى بها، ويتطلع إليها وأنت في الأبيات أمام بعض من هذه التجارب والخصال الطيبة ثم يسمعنا صوت شاعر الجاهلية قائلاً:

لا تقولن إذا ما لم ترد
ان تتم الوعد في شيء نعم

حسن قول (نعم) من بعد (لا)
وقبيح قول (لا) بعد (نعم)

لا تراني راتعاً في مجلس
في لحوم الناس كالسبع الضرم

ويعلق على النص بقوله ص ٤٥ : (والأبيات ـ كما ترى ـ تدور حول تمجيد الشاعر للوفاء بالوعد والحرص على تنفيذه، والترفع عما يعيب وينقص من الكرامة).

وفي ص ٤٨ يقدم لأبيات أخر، بقوله (وقدر العربي أن هذا الموقف الذى يتعرض له غيره قد يتعرض له هو، ولهذا بذل الطعام للضيف، واحتفى به ونحر له الابل ـ وكان الكرم من الفضائل الأصيلة التي اعتز بها العرب وتغنى بها شعراؤهم).

وفي ص ٥٨ نراه يعلق على أبيات الشنفرى قائلا (في الأبيات ثورة على الظلم ودعوة إلى التحول عن عواطفه، وإلى احتمال الآلام في سبيل الابقاء على عزة النفس والحفاظ على الكرامة) ويستمر التعليق إلى أن يقول: (عرف الشنفرى بأنه من الشعراء الصعاليك، وكثيراً ما يتبادر إلى الذهن أن الصعلكة صغر في النفس وفي التصرف، ولكن الأبيات تلقي لك ضوءاً على شخصية الشنفرى وحفاظه على كرامته، ومنها ومن تاريخ هؤلاء الصعاليك يظهر أنها اختلاف في وجهات النظر إلى الحياة) هذا دفاع وتبرير للصعلكة ـ بل مدح لها!!.

ونقرأ في ص ٧١ تعليقاً على أبيات للأعشى يمدح فيها قيس ابن معد يكرب يقول التعليق: (عرض علينا الشاعر في أبياته صورة للقيادة الحكيمة متمثلة في شخص ممدوحه، فهو رجل جواد سمح الخلق.. وهي صفات إنسانية خالدة لا تتغير بتغير العصور).

وفي ص ٧٩ يعرض علينا الكتاب (طريق السيادة والشرف) يرسمها لنا الحكيم الجاهلي في وصيته بالسماحة والكرم ولين الجانب

والايثار والتضحية والنجدة.

وننتقل إلى ص ٨١ فنرى صورة الاكرام للحجيج، يدعو إليه هاشم بن عبد مناف ويستحلف قومه بحرمة الكعبة أن يكرموا الحجاج، وأن يعينوهم على ذلك. في ص ٨٣ يعلق على الخطبة تعليقا جاء فيه (وهو يقدر قداسة الموقف فيلح عليهم ألا يقدموا لضيوف الله مالا يرضاه من مال خبيث لا خير فيه).

وفي ص ٨٥ ترى أمّاً توصى ابنتها عند زفافها (بنصائح تساعدها على أن تنجح في حياتها الزوجية) وتصور هذه الوصية جوانب واضحة من شخصية (أمامه) بعقلها واتزانها وخبرتها بنفس الرجل في المجتمع الذي تعيش فيه.. وتعتمد على الاقناع العقلي أكثر مما تعتمد على الاثارة العاطفية، والسائد فيها توضيح الفكرة والتعليل لها).

وفي ص ٨٩ نرى هانىء بن قبيصة الشيباني يعبىء العرب لمعركة النصر ضد الفرس. وفي ص ٩٢ نرى صورة من (السفارة بين القبائل تتسمع لعبد المطلب بن هاشم يهنىء سيف بن ذي يزن بنجاحه في تطهير أرض اليمن من الاعداء، وتتحدث عن سعادة الجزيرة العربية بذلك).

وعند الحديث عن (خصائص الأدب الجاهلي) وفنون هذا الأدب وأغراضه نرى التعاطف مع هؤلاء الجاهليين واضحاً جلياً، فتفسير الظاهرات الأدبية ينطوي على تمجيدهم وتعظيمهم، فالمدح يمتاز (بايثار الصدق وعدم المبالغة أو الغناء في الممدوح، ويدفع إليه العرفان بالجميل أو الرغبة في الكسب).

وأمـا الفخـر (فـالعربي مقتصد في فخره غير نزاع إلى المغالاة المسرفـة) وأمـا رثاء الجاهلي فيتمين) برهافة الحس وصدق العاطفة والبعد عن التهويل). وأما الاعتذار فقليل في الشعر الجاهلي (لأنه لا يتفق مع اباء العربي واعتداده بنفسه).

وأمـا الحكم فقـد ساقها الشعراء صدى لصفاء فطرتهم وكثرة تجاربهم وقـدرتهم على استخلاص وجه العبرة مما يمر بهم.. وقد اجتمعت للعربي سلامة الفطرة وصفاء البصيرة ودقة الملاحظة ولهذا أجاد في حكمه.

وهكذا في هذا الجزء من الكتاب نجد المؤلفين ـ بعد أن أفرغوا جهدهم في الاختيار والانتقاء ـ يجردون أقلامهم ويشرعون أسنتها في جانب الدفاع والذود عن الجاهلية والجاهليين والمجتمع الجاهلي وتجلية صورته وابرازها في أروع إطار ـ وان كنا نقول ذلك استنتاجاً منطقياً مما رأيناه من مقدمات فقد قاله المؤلفون صراحة حين أكدوا أنهم لا يفعلون ذلك اتفاقا أو مصادفة بل هم يأخذون هذا الموقف عن وعي وقصد، اذ يقولون في مقدمة الكتاب ص ٣ (ومن بين النصـوص التي أثـرنـاهـا بالاختيار ما يصحح النظرة إلى الأدب الجاهلي وإلى ما فيه من قيم اجتماعية وانسانية خالدة تجاوز النظرة الحسية والفردية التي طالما زعم الزاعمون أن أدب ذلك العصر يدور في نطاقها).

هذا ما رايناه من ملامـح العصر الجاهلي وما رأيناه من اتجاه الكتاب وهدفه.

فماذا عن العصر الاسلامي والاموي؟؟

عندما يتناول المؤلفون هذا القسم من الكتاب تتبدل الأحوال،

وتختلف الأهداف، ويغيب الوعي بقيمة العصر الاسلامي وتغيب ملامحه وقسماته - بل تشوه وتحرف عن طريق الاجتزاء والتجهيل - فحين ننظر إلى أدب الاسلام وبني أمية نرى:

- تهديد ووعيد.
- علي يستنفر أصحابه لقتال معاوية.
- الكميت يمدح الهاشميين.
- عبدالله بن قيس الرقيات يأسى لتفرق قريش ويمدح الزبيريين.
- قطري بن الفَجاءة يحمس الخوارج لقتال الشيعة والأمويين معاً.
- الفرزدق يهجو جريراً.
- جرير يرد على الفرزدق.
- الأخطل يمدح عبد الملك.
- أبو حمزة الشاري يدافع عن أصحابه.
- الحجاج يهدد أهل البصرة.
- غزل لعمر بن أبي ربيعه.
- غزل لابن الدمينة.
- غزل لجميل.
- زفرة شاعر يتطلع إلى الجهاد.

وتقرأ في الشرح والتعليق والتقديم لهذه النصوص بأقلام السادة المؤلفين ما يؤكد مضمون هذه النصوص، ويبرز ملامحها واشاراتها التاريخية ونعرض نماذج بما يلي:

يطالعنا في ص ١٠٧ عنوان (الفتوح الاسلامية وأثرها) وتحت هذا العنوان نقرأ (ما كاد العرب يتوحدون في الراية الاسلامية ويقيمون دعائم دولتهم الناشئة حتى اتجهت أنظارهم الى فتح

الأقـطار المجـاورة لهم لداعي الجهـاد في سبيل نشر الـرسـالـة الاسلامية) كذا ـ وكان الاسلام لم ينتشر الا بهذه الفتوحات.

ثم نقرأ في نفس الصفحة (وقد كانت قوة العرب الحربية تستنفد من قبل في قتال القبائل بعضها بعضاً، فلما وحدهم الاسلام، وجمع كلمتهم، تجلت مقدرتهم الحربية الرائعة، فلا هم في سرعة لانظير لها في تاريخ الحروب يكتسحون الأقطار المجاورة لهم)، ثم يقول في نفس الصفحة أيضا (كان لحركة الفتوح أثرها في حياة العرب الاقتصادية والاجتماعية فقد كثرت موارد الدولة).

وهكذا يحدد أهداف الجهاد، ويفسر أسباب هذا الصراع بين الاسلام والكفر بأنه لصرف القبائل عن النزاع بين بعضها بعضاً ولنهب موارد وثروات البلاد المفتوحة ولنشر الاسلام.

ويطالعنـا في رأس الصفحة ١٠٩ عنوان (الأحزاب السياسية والعصبية القبلية) وتحت هذا العنوان نقرأ (في عهد الرسول العربي توحدت القبائل في دولة واحدة، كانت العصبية القبلية تفتت هذه الوحدة، ولذلك وجه الاسلام همه إلى محاربتها. لكن لم يكن من الميسـور القضاء عليها تاماً. وأطلت العصبية القبلية برأسها في الخلاف بين المهاجرين والانصار على الخلافة بعد موت الرسول عليه السلام.. وظهرت ثانية في الصراع السياسي، وفي التنافس على الخلافة بين الاسرتين الهاشمية والأموية بعد مقتل عثمان عام ٣٥ هـ وتولى علي بن ابي طالب الخلافة.. وخرجت عليه الطائفة من أنصاره عرفوا بالخوارج.. وقتل علي بيد أحدهم عام ٤٠ هـ وبـذلك تم الأمر لمعاوية وال بيته وقد استطاع معاوية بدهائه أن

يجعل الخلافة وراثية في آل بيته . . ولكن الأمر لم يصف لهم طوال مدة حكمهم، بل كثرت في عهدهم الثورات والاضطرابات ـ ومرد ذلـك إلى أمرين بارزين: العصبية القبلية، والأحزاب السياسية وكان ابرز هذه الأحزاب: حزب بني أمية وحزب الشيعة وحزب الخوارج، وانصار عبد الله بن الزبير . . وكان لكل حزب شعراؤه وخطباؤه الناطقون بلسانه).

تلك هي الخطوط البارزة في الحياة العامة لهذا العصر وسنقف على أثرها الجلي فيما نقدمه لك من نصوص العصر الاسلامي شعراً ونثراً.

انـظر: تلك هي الخطوط البارزة في الحياة العامة لهذا العصر نزاع بين المهاجرين والأنصار، ورده الى القبلية، وحزبية متصارعة وقتـل لخلفـاء الـرسـول ودهـاء ومكر من معاوية، وافساد لنظام الحكم، وما على المؤلفين بعد ذلك الا حفر هذه الخطوط وتعميقها في وجدان أبنائنا اليافعين، وفي أذهانهم عن طريق اختيار النصوص الأدبية التي تصور ذلك ودراستها وتحليلها وحفظها.

ولنقلب بعضـاً من صفحات هذا الكتاب لنعرض نماذج تبين الروح التي كتب بها الكتاب، وعن الأثر الذى يتركه في تلاميذنا.

في ص ١٣٣ نرى الأخطل يمدح عبد الملك بن مروان ويشيد ببني أمية، فانـظر كيف قدم الكتـاب لأبيات الأخطل (منذ ولى الأمويون شؤون الخلافة عملوا على اجتذاب الشعراء إليهم، لكي يكـونـوا ألسنة للدولة الأموية، يؤيدون حكمها، ويدفعون عنها خصومها السياسيين الطامحين إلى تولي الخلافة).

وقد استجاب لهم كثير من كبار الشعراء في هذا العصر .(فراحوا

يمجدون الدولة الأموية ويدعون لها، ويهاجمون خصومها، والمناوئين لسياستها. وكان الاخطل من أبرز الشعراء الذين وقفوا إلى جانب الأمويين يهاجم خصومهم في عنف وحدة) - واسمع ايها التلميذ العزيز كيف بدأ شراء الاقلام والألسنة عند اجدادك منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً. . ويعلق على نفس الأبيات بقوله في ص ١٢٧ (وهذا النص يصور لك جانباً من جوانب الحياة السياسية في عصر بني أمية. ولوناً من ألوان النضال السياسي بينهم وبين منافسيهم على تولي الخلافة).

وحين يعرض لقصيدة عبد الله بن قيس الرقيات يقول مقدماً لها في ص ١٢٩ (أوصى معاوية بأن تكون الخلافة بعده لابنه يزيد، فلم يرض ذلك طائفة من أشراف قريش، فلما مات معاوية، وولى الخلافة يزيد امتنع عبد الله بن الزبير بمكة أن يبايعه وأنكر على الأمويين استئثارهم بالخلافة وشايعه أهل الحجاز وقوى حزبه، وكان بينه وبين الأمويين تنافس شديد).

وفي ص ١٣٢ (نرى الكميت بن زيد يمدح الهاشميين) ويقدم المؤلفون للأبيات بقولهم (كان بين الأمويين وغيرهم من الأحزاب السياسية التي ترى أنها أحق من بني أمية بالخلافة صراع، وكان من أقوى هذه الأحزاب بنو هاشم، الذين ناضلوا الأمويين نضالا شديداً، واشتبكوا معهم في صراع سياسي، وكان الكميت أحد الشعراء الذين خاضوا المعركة السياسية مع بني هاشم منتصراً لهم مؤيداً حقهم في طلب الخلافة غير مبال بما يناله من عسف الأمويين وأذاهم، بل إنه ليحتسب كل ما يناله من أذى أجراً عند الله. . والأبيات من قصيدة طويلة، تعد من خير قصائد الكميت وأروعها

في نصرة الهاشميين) انظروا أيها الأبناء: معركة سياسية وأحزاب وعسف وايذاء واستبداد!!! هذا تاريخكم!!!

وفي ص ١٣٧ يزيد هذه الفكرة وضوحاً وتأكيداً حين يعلق على القصيدة بقوله (تصور القصيدة جانباً من الحياة السياسية في عصر بني أمية، ومن الصراع على الخلافة وتدلك على شيء من الحجج والبراهين التي يستند إليها الأمويون والهاشميون).

وفي ص ١٣٩ نرى قطري بن الفجاءة يدعو الخوارج للثبات والتضحية بالنفس في سبيل القضاء على الأمويين والشيعة.. ويقدم الكتاب للأبيات بقوله (انقسم الخوارج فرقاً متعددة، وكان الأزارقة من أشد الفرق استبسالا في قتال أعدائهم، وتطرفاً في مذاهبهم وقوى أمرهم بعد موت يزيد بن معاوية) فيضيف هنا خطأ آخر إلى ملامح المجتمع السابقة.

وعندما يعرض لأبيات الفرزدق التي يسب فيها جريرا ص ١٤٣ - نراه يقدم لها بقوله (من الظواهر الأدبية التي وضحت في عصر بني أمية المعركة الهجائية التي نشبت بين الشعراء، وشغل بها الناس وعلماء اللغة، وكان من أهم دوافع هذه المعركة التنافس الشخصي والقبلي، والانتماء الى الأحزاب السياسية المتصارعة، وكان من أكثر الشعراء الذين خاضوا هذه المعركة الأخطل والفرزدق وجرير) ثم يعلق على القصيدة مبيناً عوامل ظهور النقائض فيقول في ص ١٤٥ (وغض بنو أمية أبصارهم عن مثل هذا الهجاء حتى شاع هذا اللون من الشعر في العصر الأموى شيوعاً لا نجد له نظيراً في سائر عصور الأدب العربي، ولم يعد الهجاء بيتين أو أبياتاً قليلة كما كان في الجاهلية، بل أصبح قصائد طويلة، تحتاج الى ثقافة واسعة

بتاريخ القبائل العربية في الجاهلية) كذا!! (ازدهر الهجاء في أيام الإسلام ولم يكن في الجاهلية الا أبياتا قليلة وكيف غض بنو أمية أبصارهم عن مثل هذا الهجاء، أي شجعوا ذلك الهجاء للعامة حتى يخلو بينهما وبين دنياهم).

وفي ص ١٧٥ نرى الإمام علياً يستنفر اصحابه لقتال معاوية وانظروا التقديم للخطبة (حدث في اعقاب مقتل عثمان خلاف بين علي ومعاوية بن أبي سفيان على الخلافة، وكان معاوية يتطلع لها، وكان له قوة تؤيده وتناصره).

ولا ينسى الكتاب أن يسمعنا نذير الحجاج ووعيده في خطبته بالبصرة ص ١٧٨ (أني انذر ثم لا انظر واحذر ثم لا أعفو، والله لا آمر احدكم ان يخرج من باب من أبواب المسجد، فيخرج من الباب الذي يليه الا ضربت عنقه) وانظر تقديمه للخطبة (ولي أمر العراق الحجاج بن يوسف الثقفي وكان والياً صارماً فيه حزم ولكن في عنف وصلابة رأى ان القوم يتباطؤون في امداد المهلب بن أبي صفرة في قتاله الخوارج. الذين كانوا قد اقضوا مضاجع بني امية تقدم الكوفة عام ٧٥ هـ وخطب خطبة هدد فيها وبطش بنفر من اهلها. فأيقن القوم انه جاد في وعيده فتسارعوا الى نصرة المهلب. ثم قدم البصرة فخطب فيها أيضاً خطبة مماثلة ملأها بالتهديد والوعيد).

ولا ينسى أيضا أن يسمعنا صوت أبي حمزة الشاري يصف أصحابه، ويفخر بهم على الأحزاب الأخرى، وانظر كيف قدم للخطبة ص ١٨٠ حيث يقول (قوى أمر الخوارج في اواخر عصر بني أمية، وظهر من رؤسائهم خارجين عظم أمره، وقدم مكة على

رأس جيش من الخوارج سنة ١٢٩هـ كان أصحابه يرفعون العمائم السود على رؤوس الرماح، فأفزعوا الناس، وكره والي مكة من قبل الأمـويين قتالهم في مكة لحرمتها فاخلاها لهم ودخلوا بغير قتال، وخطب فيها أبو حمزة خطبته وكان قد بلغه أن أهل مكة ينتقصون اصحابه، ويعيبون عليهم. . .) ولك أن تتصور معي عقل تلميذنا الناشىء عندما يقرأ ذلك (عمائم سود مرفوعة على رؤوس الرماح) وأين؟ في مكة المكرمة. في بلد الله الحرام ومدينة تخلى للغزاة من غير قتال فزعاً ورهبة، وأين؟ وأية مدينة؟ ومتى كان؟ سنة ١٢٩ هـ والاسلام غض لما يزل صوت النبوة في الآذان.

وحينما أراد أن يمجد شجاعة الغزاة الناشئين (على ما في ذلك) وجـدنـا (الفـارس الـذى يتطلع للجهاد (ص ١٢١) من فرسان الجاهلية وادراكه الاسلام. ويحدثنا الكتاب عنه بأنه سكير لم يرتدع عن الخمر بأمر الدين، ولا بأمر الخليفة، فيلجأ الخليفة إلى نفيه حتى لايفسد في الارض، ويهرب من منفاه، ويحبسه قائد الجيش ويسجل ذلك في شعره ولا نجد (من شعر المغازي والفتوح) غير أبيات أبي محجن (فارس الجاهلية والاسلام الذي لا يفيق من الخمر).

وليقل تلميذنا وهو إذن على حق: لا يصح لنا أن نلوم أحداً على ما يفعل، وعلى ما يأتي من سلوك ما دام يؤدي عمله الرسمي كما ينبغي.

ألم يقع السادة المؤلفون على مجاهد يرى الجهاد فريضة؟ ويقول: إنه لا يبغي من جهاده غنماً ولا منزلة، وانه يجاهد حماية للدين من أعدائه؟

ثم ننتقل الى غرض آخر من اغراض الشعر قد يبدو أنه بعيد عن مثل ذلك الخبث المسموم، وأعني بذلك (الغزل) ولكن هنا عجباً يختار ثلاثة نصوص من الأربع عشرة من فن الغزل، أليس في هذا ما يوحي بقيمة الغزل وبأنه كان شغل القوم الشاغل؟؟

هذا من حيث الشكل والكم، أما من حيث الموضوع والمحتوى فاسمع ما اختاره لعمر بن أبي ربيعة ص ١٤٨ حيث يصور قصة غزلية من أشهر قصصه في ذلك كما يقول الكتاب - جاء في هذه القصة الغزلية أن الفتيات الجميلات أرسلن إلى عمر من يحتال في إحضاره وجمعه بهن وعمر لا يعرف فلما كان ما كان صارحنه بأنهن أرسلن إليه ودبرن هذا اللقاء، يقول ابن أبي ربيعة:

فلما تنازعنا الحديث وقلن لي
اخفت علينا أن نفرَّ ونخدعا

فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً
إليك. وبيّنا له الشأن اجمعا

فما جئتنا إلا على وفق موعد
على ملأ منا خرجنا له معا

وقلنا: كريم نال وصل كرائم
فحق له في اليوم أن يتمتعا

ومن عجب عجاب أن يخلو الكتاب من انموذج واحد للغزل في الجاهلية على ما كان في العصر الجاهلي من غزل، ويعترف المؤلفون أنفسهم عندما يتحدثون عن أغراض الشعر بشيوع الغزل، ولكن لا يأتون منه بانموذج واحد، بينما يأتون بثلاثة نماذج من أربعة عشر في الادب الاسلامي.

وهل شعر ابن أبي ربيعة هذا الذى رأيناه غزل أم مغامرة فجور وفحش؟؟ ولتلميذنا المراهق ابن الخمسة عشر ربيعاً أن يقول في نفسه أو جهرا (ما بالكم أيها الآباء والمعلمون تعيبون عصرنا؟ ما بال الناس يجزعون الآن حين يسمعون أن البنات يعاكسن البنين؟ لم يفزعون ويستغفرون ويحوقلون . ؟ ويستعيذون؟ ألم يكن ذلك في الارض المقدسة؟ ولما تزل ريح النبوة تملأ بطاحها؟ ألم يحدث ذلك بين ظهراني الصحابة والتابعين؟) .

ومما يتصل بالغزل وهو من أعجب العجب أيضا أنهم يقولون عندما يتحدثون عن الغزل وشيوعه في العصر الجاهلي : (إن دواعي شيوعه ان العربي الجاهلي ذو حس رقيق يدرك الجمال) أما في العصر الاسلامي فقد شاع الغزل في الحجاز، لأن اهله غلبوا على أمرهم في السياسة، فأغرقوا فشلهم في الغناء والغزل، وهيأ لهم بنو أمية ذلك فأمدوهم بالمال حتى الثراء كي يشغلوهم عن منازعتهم .

أنضحك أم نبكي؟؟ يتغزل الجاهلي فيقال : ذو حس مرهف وذواقة للجمال، ويتغزل المسلم فيقال : يغرق همه، وينسى فشله أو يغرر به، ويصرف عن معالي الأمور إلى سفافها .

هكذا . في كتاب واحد بمنهجين ومبدأين، ولكن : هدف واحد تمجيد للجاهلية وتشويه للاسلام فهو شيء واحد . فكلما كانت الجاهلية أكثر نوراً وطهارة، كلما بدأ أثر الاسلام حائلا زائلا .

ومما يلفت النظر حماسة المؤلفين الواضحة التي تظهر على أطراف اقلامهم، فلا يكتفون بالمحتوى والمضمون، بل من آن لآخر تند منهم كلمة تكشف عن تحمسهم وإخلاصهم لهدفهم . ففي ص ٩٣ يتحدث الكتاب عن التطور الذي أصاب أغراض الشعر

السياسي (ولم يكن الجاهليون يعرفون هذا اللون من الشعر وذلك لارتبـاطه بنظام الدولة وقيام الأحزاب السياسية بين ظهراني هذه الـدولـة واصـطراعهـا العنيف في سبيل الحكم فكان لكل حزب سياسي شعراؤه الناطقون بلسانه).

انظر، هكذا!! اصطراعها العنيف في سبيل الحكم، لا يكفي ان يقـول تنـافس، ولا ترضيه (صراع) ولا حتى تصـارع، بل (اصـطراع)، ولا يشبعـه ذلـك بل يقـول مؤكـداً: (اصـطراعها العنيف) ولا يترك موضـوع الصراع بل يجبه به القارىء ويسجله عليهم (في سبيل الحكم) واسمعوا يا أبناء تاريخ أمتكم واعتزوا به!!!

ولا يقولن أحد: انني التقط هذه الصور من بين ما في الكتاب وهـو كثير قد يغطي على ذلك، أي أنه صور العصر بما له، وهو كثير، وبما عليه وهو قليل. لا يقولن أحد ذلك فحاشا أن أصنع مثل صنيعهم.

إن عدد النـماذج في الشعـر الاسلامي في الكتاب ثلاثة عشر نموذجاً لم نترك منها إلا ثلاثة: قصة كرم للحطيئة، وفيها حديث عن سوء خلق الحطيئة وسوء بطل القصة، وفقر وجوع وإن صورت الكرم. وقصيدة لحسان بن ثابت رضي الله عنه، وفيها أيضا صراع ونضال.. وهكذا على طول قرن ونصف تقريباً من يوم البعثة إلى يوم ذهب بنو أمية لا نرى إلا حروبا وصراعاً، وفتحاً وغزواً، ونزاعاً وفـرقاً، واتهاماً ودفاعاً من يصدق هذا؟ من يقول هذا؟ مرة ثانية نصرخ: أتدبير هذا أم مصادفة؟؟ أهى مصادفة أن نجلو تاريخ الجـاهلية ونـظهـره، ونقـدمـه لأبنائنا، ثم نشوه تاريخ الاسلام

بالاجتزاء والتجهيل، ونجرعه لتلاميذنا، إنه تدبير أحكمت حلقاته من قبل، ووقع فيه قادة الرأي والبحث والثقافة في بلادنا، إلا من رحم ربك.

إن في شعر الجاهلية ما تحمّر له الوجوه خجلا، وفي فحش أدبها ما لا يمكن أن يقرأ أو ينطق به، وفي حكمها وأمثالها ما يدل على لؤم الطبع وخسة النفس (والأمثلة كثيرة وحاضرة في الذهن ولا نثقل بايرادها) ونعف عن ذكرها فلماذا يضرب عن ذلك صفحاً؟ ولم ينسى هذا أم يتناسى؟ بحجة أن من حق أجدادنا عرب الجاهلية ان نرفع صورتهم في اطار من البهاء والجمال، ليزداد اعتزاز الابناء بهم (وقد لا نعترض على هذا المنهج) ولكن ما يصيبنا بالدوار أنه يطبق على العصر الجاهلي وحده!!!

أما عن العصر الاسلامي فتدركهم روح العلم، والامانة العلمية، والمنهج أو قل المنهش[1]، فلابد أن يعرف التلاميذ كل شيء، ويا ليتهم يكونون أوفياء للمنهج، بل يحجبون عن التلميذ أفضل ما في التاريخ الاسلامي، ويعرضون عليه ما يريدون، فهي عملية تشويه بالبتر، والحجب، والاجتزاء والتجهيل.

ولقائل أن يقول: وما ذنب واضعي المنهج ومؤلفي الكتاب؟ أو ليست هذه حقائق؟ اتنكر صحة هذه النصوص؟ اتنكر نسبتها إلى اصحابها اتنكر مدلولها التاريخي؟ انضع رأسنا في الرمال؟

وحينئذ نرد سائلين: أهذه كل الحقائق: أهذه كل الوقائع؟ بل أهذا هو التفسير الوحيد لهذه الاحداث؟ أليست آراء في هذه

---

(١) اذكر أن أول من استخدم هذه الكلمة متهكمًا (بالمنهج) الظالم المتحكم المنحاز، هو عملاق العربية: عباس محمود العقاد.

المواقف؟ ثم أهذه هي السن المناسبة لعرض هذه الحقائق؟

وبفرض أن هذا تاريخ!! فما شأنكم أنتم يا دارسي الأدب ومدرسيه؟ أهذه وحدها هي النصوص الأدبية لهذا العصر!! اننا جمعنا كل أدب ذلك العصر لانجد إلا هذه النصوص؟؟ أو إلا هذه الأغراض؟؟

أمامي الآن كتب مما كان يدرس في مدارسنا منذ مطلع القرن العشرين، ومنها هذه القطع بعينها ولكن - وبكل أسف - فيها نصوص أخرى تحمل ملامح، وخطوطاً، غير نصوص هذا العصر المتهم.

فاذا قلنا: إن تلك الكتب كانت من عصر (دنلوب) الأصيل أو الدنالبة الأتباع؟ فما بالنا في عصر (الوطنية الصحيحة) نقع على مثل هذه النصوص دون غيرها؟ أم اننا بعد أن فككنا أسرنا من قبضة (دنلوب) وقعنا في يد قرامطة الفكر وتتار الثقافة؟؟

إنها مؤامرة نسجت خيوطها وأحكمت منذ كتب الله على عالم المسلمين أن يتولى أمر ثقافته وتعاليمه تلامذة المستشرقين والمستعمرين. وحين بدا لنا أننا خرجنا من قيودهم كنا قد وقعنا في يد هؤلاء القرامطة الذين مدوا الف ذراع وذراع مطبقين على منابر الثقافة ومنابع الفكر.

المرجع: مجلة الامة
العدد السابع، السنة الأولى
رجب ١٤٠١هـ، أيار ١٩٨١م.
قطر

على هامش الحوار حول الأدب الإسلامي

بقلم الأستاذ: محمد حسن بريغش

الأدباء الاسلاميون، والكتاب، والناشئة من شبابنا بحاجة إلى من يعمـــل على إبـــرازهم من خلال إنتـــاجهم والتعـــريف بهم وتشجيعهم ودراســة آثارهم وتقديمها كما يفعل اعداء الاسلام. بعضهم لبعض، حتى يصنعوا من أبنائهم أبطالا . . وقد لايكونون كذلك ! ! .

■ لم تعــد قضية الأدب الإســـلامي مجهـولـة عنـد الـدارسـين والمختصــين، ولاسيما بعـد أن كثر المهتمون به، وازداد العاملون لإنشائه أو إحيائه من جديد ليواكب الصحوة الإسلامية العامة.

والأدب الإسلامي ليس جديداً، بل هو قديم قدم الرسالات السماوية . . ولكنه تأصل وبرز بوضوح مع انبثاق فجر الإسلام العظيم.

وإذا كان من دواعي الغبـــطة والأمـــل أن يتـــداعى الادبـاء والدارسون والنقاد الإسلاميون لعقد ندوات، ومؤتمرات يتدارسون فيها قضايا هذا الأدب ويرسمون قواعده، ويحددون معالمه.

إذا كان هذا الأمر ـ كما قلت ـ يدعو إلى الغبطة والأمل، فإن مهمةِ أخرى ذات بُعد ودلالة، تقع على عاتق هؤلاء المهتمين، إذ لابـدَ من ترجمـة التوصيات والقرارات إلى أعمال ، والانتقال من

الآمال والرغبات، الى الدراسات والنتاج.

ومن خلال الحوار الجاد، الذي كان يدور بين الأساتذة المشتركين في الحوار بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة - برزت عدة قضايا ذات أهمية بالغة - وأكتفي هنا بالاشارة إليها باقتضاب.

١- إن اللقاءات العملية، والمناقشات الموضوعية التي تدور بين المهتمين، بالأدب الإسلامي هي التي تتيح لهم تحديد مساره، وتوضيح معالمه، حتى لا يكون مفهوم الأدب الإسلامي مفهوماً غائماً عاطفياً يختلط فيه الفكر والأدب، والفقه، والاجتماع والتاريخ، رغم ما بين هذه الفروع من صلة، لكن الأدباء الإسلاميين بحاجة إلى تحديد إطار واضح، ومفهوم محدد للأدب الذي ينشدون، ليكون أدباً متميزاً واضحاً، يعبر عن التصور الإسلامي بالكلمة الموحية، والعبارة المشرقة، وليستطيعوا تقديم هذا المفهوم للناس إزاء المفاهيم الأخرى للآداب المختلفة، ولا يكفي ابداً أن ننادي بالأدب الإسلامي، وننشد الاهتمام به، دون تحديد لمفهومه ومعالمه، وتصوراته.

لقد بدا لي من خلال ما كنت اسمع من نقاش، أو موضوعات، ومن خلال ما أقرأ، أن مفهوم الأدب الإسلامي ما يزال غامضاً في أذهان الكثيرين، بل إن عدداً من المشتغلين بالأدب، تدفعهم العاطفة أحياناً والمصلحة حيناً آخر إلى التحدث عن الأدب الإسلامي حديثاً لا أصالة فيه ولا عمق، ولا يدل على ايمان به أو معرفة له، لأن الأدب مرتبط ارتباطاً قوياً بالعقيدة التي يصدر عنها صاحب الأدب. وبالعاطفة والمشاعر التي يكنها في اعماقه.

فهل يكون الأدب إسلامياً إذا استشهد صاحبه بآية أو حديث،

أو اشار إلى حادثة تاريخية، أو قضية اخلاقية؟

لا أظن أن (ماركسياً)، أو غربياً يؤمن بـ (الرأسمالية) يقبل أدباً لا ينبثق من (الفكر الماركسي)، أو (الفكر الحر الرأسمالي)، أو يعده من هذا اللون أو ذلك؟

فلماذا نبيح في أدبنا أن ندخل كل لون تحت هذا الاسم، لأن صاحبه جاء بصورة أو اقترب بفكرة من الإسلام؟

الأدب الإسلامي لا يصدر إلا عن أديب مسلم يحمل الإسلام عقيدة، ويؤمن بالإسلام منهج حياة، ويلتزم به سلوكاً وعملاً.

وقد يلتقي مع هذا الأدب ألوان أخرى لا تصدر عن أدباء إسلاميين ولكنها تتفق بالتصور مع الأدب الإسلامي، فتقدر هذه الألوان والآثار بمقدارها، ولكنها لا تكون أدباً إسلامياً بالمفهوم الواضح المتميز لهذا الأدب.

وهذا الأمر مهم جداً ولا سيما في مرحلة التأسيس والبناء للأدب الإسلامي المعاصر، فإذا كانت هذه المرحلة غائمة، يتخللها الخلط والغش والضعف أضحى البناء مهلهلاً ومهدداً بالانهيار بأسرع ما يمكن.

وربما كانت من ثمرات الحوار أن تطرح قضية الأدب الإسلامي من أبنائه ومن الذين يحملونه كما يحملون العقيدة، المتكاملة الشاملة للحياة في ظل الإسلام، فاذا بالذين كان الأدب عندهم عاطفة وأملاً يرون لأول مرة أن قضية الأدب الإسلامي قضية جادة ومحددة، ولكنها تحتاج إلى جهد وعناء وصدق حتى تبرز وتأخذ دورها الصحيح.

وكذلك كان بالنسبة للذين تدفعهم إلى المشاركة في الحوار

مصلحـة، وتربطهم به مهنة تدفعهم للاسهام في كل مجال، فإن هؤلاء وجدوا ـ وربما لأول مرة ـ أن شجرة جديدة بدأت تعلو وسط الفيافي، لها ظلال وأنداء، لها عطر وثمار، وأنها بدأت تشتد وتقوى، تتفرع وتتكاثر، ولابد لهم من موقف.

وهذا الأمر بالذات، وهذه المواقف التي كانت من ثمرة الحوار مهمة في مسيرة الأدب الإسلامي ومستقبله.

٢ـ وإنه من المهم في مجال الأدب الإسلامي أن لا تظل القضايا المطروحة قضايا نظرية، إن اثراً أدبياً واحداً يستطيع أن يؤدي - في هذا الأمر ـ ما لا تستطيعه الدراسات الكثيرة.

ولهـــذا فإن المهتمـــين بالأدب الإســـلامي: من أدبـاء ونقـاد ودارسـين، مدعـوون إلى إعـطاء هذا الأمـر حقه من الاهتمام، فيسهمـون في النتـاج الأدبي الإسلامي من شعر وقصة ومسرحية ومقالة، وبحث . . . الخ.

وليس المطلوب أن نصعد مباشرة إلى القمة، ولكن لابد من الإنتاج الذي يحمل تصورنا للحياة، ويعتمد على مواهب ناضجة، وأسس فنية واضحة، وكذلك لابد من التعريف بالأدب الإسلامي والاهتمام به، لأن كثيراً من الدارسين والنقاد لا يعيرون هذا الأمر أي اهتمام.

فكم من شعراء ـ وكم من قصاص ـ وكم من كتاب إسلاميين لا يطمعون بواحد يكتب عنهم، ويتناول آثارهم بالدراسة والنقد، ولا يعرّف بهم القراء.

إن الذين أصبحوا من مشاهير الأدباء وجدوا من يأخذ بيدهم، أو يتناول أدبهم بالتقويم والدراسة.

وإن اعداء الإسلام يدفعون بشبابهم لاقتحام شتى المجالات، ويبرزونهم بالتعـريف والتشجيع والدراسة والتقويم حتى يصنعوا منهم أبطالاً، وقد ينجحون أو يفشلون.

فلماذا لا نهتم بأدبـائنا، وكتابنا، والناشئة من شبابنا الذين لا يجدون من يتعهدهم بكلمة تشجيع، أو بنصيحة مجرب صدوق.

وأعجب من الـذين يريدون أن يبحثوا عن الأدب الإسلامي عنـد هذا القصـاص أو ذاك، وعنـد هذا الشاعر أو ذلك، ممن يرفضون أصلاً أن يقال عنهم وعن أدبهم إنه أدب إسلامي، وممن أصبحت لهم تصـوراتهم الخاصة التي تبتعد كثيراً عن الإسلام، وتناقضه في عديد من الأمور والأصول!!!

فلماذا لا يبذلون الجهد، في دراسة أدب إسلامي متميز، نذر أصحابه أنفسهم لله، وأنتجوا آثاراً أدبية أصيلة وجميلة؟

وهل يفيدنا في كثير أو قليل أن نبرز مثلاً إسلامية نجيب محفوظ او توفيق الحكيم او غيرهم؟ وهل الاسلامية هي القضية البارزة في أدبهم أم ان قضايا أخرى بعيدة عن التصور الإسلامي هي التي أخذت اهتمامهم، واستنفدت مواهبهم؟

ولماذا لم نتناول ـ مثلاً ـ باكثير، وهو واضح في إسلاميته، ومظلوم من النقاد والدارسين لهذا السبب بالذات؟

ولماذا لانهتم إلا بالمشاهير فقط من شعراء وقصاص؟ ألا يوجد في هذا الجيل من يستحق الاهتمام، ولعله يفوق أولئك إذا وجد الرعاية والتشجيع والنقد الصحيح؟

إن هذه القضية أمـر مطروح تحتاج إلى إبراز عملي في الانتاج والـدراسة، بل وفي عرض مثل هذه النماذج المتميزة في المؤتمرات

والحوار لينتقل الحديث عن الأدب الإسلامي إلى مرحلة عملية تطبيقية.

٣- ولعل أمراً خطيراً برز لي من خلال الحوار، وأخشى أن يسقط من أجله الكثيرون، أو نضيع الطريق إلى الأدب الإسلامي المنشود - لا سمح الله - إن لم نحسب له حساباً.

وهذا الأمر يتعلق بمدى معرفتنا لأصول عقيدتنا، ومبادىء ديننا، والأمور المهمة في شريعتنا.

وعندما يتحدث النقاد والأدباء عن مهماتهم وواجباتهم - كأدباء ونقاد - يشترطون أن يكون الناقد مثقفاً، واسع الثقافة، غزير المعرفة، شامل الاطلاع على فروع المعرفة وفلسفات العصر، وكذلك بالنسبة للأديب الناجح.

ومن الخطير أن يكون الأديب المسلم فقيراً في معرفته لعقيدته ودينه وتاريخه، يريد أن ينتج أدباً إسلامياً وهو لايدرك معنى الحلال والحرام، معنى الفريضة والواجب.

والأخطر من ذلك أن يكون الناقد أيضا متورماً من غزارة الثقافة الغربية بحيث لم يعد في مقدوره أن يعود إلى أصوله، لأن ذلك قديم يكتفي منه بما عرف في المدرسة، وما قرأه من أقوال المستشرقين، وما مر به دون عناء.

فهل يستطيع مثل هؤلاء أن يصيغوا أدباً إسلامياً؟!

إن اصحاب المذاهب الوضعية يرفضون مثل هؤلاء في مذاهبهم، بل يعدونهم من المتطفلين، أو الجاهلين، فلماذا نسكت نحن عن أمثال هذه الصور؟ ولماذا لا نأخذ الأمر جداً وجهاداً حتى

نرتفع إلى مستوى الأمانة؟!!

كيف نقبل من أديب مسلم، أن لا يميز في انتاجه بين الحلال والحرام في أمور لا يجوز أن يجهلها مثله، لأنها قد تكون من المعلوم في الدين بالضرورة؟!!

كيف نقبل من أديب مسلم أن يستسلم للعصر فيتخذ الأعراف والعادات الغربية سلوكاً وديناً مع دينه؟!!

وحري بنا، أن نعطي هذا الجانب أهميته الحقيقية، لأننا نلاحظ أن النقاد يعودون إلى فلسفة فلان، وأفكار آخر، ومبادىء هذه المدرسة، وتصورات تلك من الشرق والغرب عندما يقوّمون أديباً أو يدرسون نصاً أو يكتبون عن قضية، فكيف نقبل من مسلم ينادي بالإسلام عقيدة ومنهجاً أن لا يفهم إسلامه فهمًا عميقاً وعملياً قبل أن يفهم أي أمر آخر، وأن تكون ثقافته الإسلامية موازية لدوره ومهمته؟

إن العصرية تضخمت كثيراً حتى باتت تشل حركتنا، وتقيدنا عن بناء الطريق الصحيح، وبأسس قوية بعيداً عن كل المؤثرات الأخرى.

٤ـ وهناك أمر آخر يتعلق بما تقدم من أمور، ويتعلق بالنواحي الفنية للأدب الإسلامي، ولقد لاحظت أن كثيراً من المهتمين بالأدب الإسلامي يسيرون دون قصد للأخذ بالأطر الفنية الغربية في الشعر والقصة وبقية فروع الأدب، بل ويرون أن هذه القضية مسلم بها، ما دام الغرب قد تقدم علينا في هذا الأمر وغيره، وأن هذه الأطرف أضحت عالمية، ولو قلنا جدلاً إن هذا صحيح... إلا أنه لا يكفي، لأن الأطر الفنية لم تأت طفرة، وانما سارت عبر تطور

مستمـر حتى أصبحت في شكلهـا المعاصر، وتأثرت بالمضامين، والتصورات والمجتمعات الغربية، وكانت انعكاساً لها في جوانب كثيرة، فهل من المحتم أن تكون هذه الأطر هي المناسبة للأدب الإسلامي؟

إن الاستفادة منها بأكبر مجال أمر لا يرفضه إلا جاهل، ولكن التسليم بانها الشروط الكافية والصحيحة، فهذا غير صحيح، بل وإن تحكيم هذه القواعد بأدبنا أمر يحبط مساعينا للارتقاء، فلماذا لا ندع للأديب المسلم الحرية في اختيار ما يريد، وابتكار الأسلوب والصورة التي تعبر عن نفسه ومجتمعه.

مثلاً: الخطابة، التقرير، الوعظ والإرشاد، الأسلوب المباشر. وغير ذلك من الأمور مما يُعد أساليب مذمومة في مفهوم النقاد الحديثين.

في مفهوم الإسلام هي أساليب ناجعة وعملية، والواقع يؤيد ذلـك، والبيئـة تقبـل هذه الاسـاليب أكثـر من قبـولها لأساليب غامضة، بعيدة قلقة، ومع هذا أكثر كتّابنا يكرّر المقت الذي بثّه الحاقدون على إسلامنا، فرأوا بالوعظ والإرشاد أسلوباً رجعياً ذميمًا، وعجزاً وكسلاً وظلمًا، فكيف نردد أقوالهم، ونحمل آراءهم، ونذم أمراً دعانا إليه الكتاب الكريم والحديث؟

نخلص من هذا أننـا بحاجة إلى التحرر من المدارس النقدية الغـربية، نستفيد منها ولا نتقيد بها، نأخذ ما يصلح منها، ولا نتبناها، ونترك الحرية لأنفسنا في اكتشاف الأطر لأدبنا ومجتمعنا، وحينها نعود إلى كتاب الله عز وجل سنجد أساليب شتى، وصوراً عديدة تهدينا سواء السبيل.

وكـذلـك في حديث رسول الله ﷺ ما يثري أدبنا بالأساليب والأطـر والصور الرائعة فهل أعطيناها بعض ما نعطي وسوسات الشياطين من أصحاب المدارس الغربية من اهتمام ودراسة؟

وبانتظار خطوات أخرى في درب الأدب الإسلامي نتمنى أن تكلل خطوات العاملين المخلصين بالنجاح، وأن يهدينا ربنا سواء السبيل.

المرجع: مجلة الأمة
العدد الثلاثون، السنة الثالثة،
جمادى الآخرة ١٤٠٣ هـ آذار ١٩٨٣م
قطـــر

الأدب الإسلامي ومصادر القوة الصامدة

بقلم الدكتور: نجيب الكيلاني

● الأديب المسلم الملتزم، مطالب بفتح النوافذ على الاخوة الذين يشاركوننا في المعاناة والجهاد والمصير، كما هو مطالب بضرب العنصرية والاقليمية والشعوبية، التي لاتثمر إلا الفرقة والتمزق والجفاء.

مما لاشك فيه أن القوة ينبوع من ينابيع التعبير والجمال والتأثير، لكن أية قوة تلك التي تستحوذ على الألباب والمشاعر، وتحظى بالتقدير والتبجيل؟! فالقويّ الذي يحطم قواعد الظلم والفساد والرذيلة، يختلف تمام الاختلاف عن القوي يقطع الطريق، ويسلب الأبرياء حقوقهم واموالهم وأعراضهم، ويسحق دعاة الحب والخير والحرية، وشتان بين هذين الأنموذجين، ومن هنا كانت دعوة القرآن الكريم ﴿وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرهِبونَ به عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فتوظيف القوة يكون لمهمة مقدسة، لتدمير جموع الشر والفساد والانحراف، وأعداء الله هم جنود الشيطان وأحباؤه، يجابهون كل فضيلة، وينتصرون لأهوائهم وقيمهم التي تلفعت بالفساد والمنفعة العاجلة.

وقد يتساءل البعض: ما الذي نعنيه «بالقوة الصامدة»؟..

لقد حاول الأستاذ عباس العقاد ـ رحمه الله ـ في كتابه «الاسلام في القرن العشرين» أن يفسر سر بقاء الرسالة الاسلامية وخلودها

وهيمنتها، واتساع رقعتها على توالي الأزمان والأحقاب، فعزا ذلك إلى «القـوة الغـالبة» و«القوة الصامدة»، وأوضح أنه يقصد بالقوة الغالبة، تلك القوة التي تميزت بها عصور الاسلام لتحرر الغازية الفـاتحة، حيث تتفوق جيوشهم عسكرياً ومعنوياً، مثال ذلك ما حدث يوم أن زحف طلائع الاسلام لتحرر الشعوب المستعبدة في فارس والروم، ثم انطلاقهم شرقاً وغرباً، رافعين راية الحق والقوة والروم، ثم انتقل رحمه الله إلى تفسير «القوة الصامدة». وأوضح أنها تلك القوة الكامنة في الاسلام، على الرغم من تدني إمكاناته المادية والعسكرية. بل وفي الأوقات التي استطاع الأعداء أن يغزوا ديار الاسـلام ويستعمـروهـا، وينشروا فيهـا الانحـلال والانحـراف والاستغـلال، وضرب مثلاً لذلك بقيام أكبر بلدين إسلاميين في العصر الحديث هما أندونيسيا وباكستان، في الوقت الذي كانت زحـوف المستعمـرين - عسكرياً وفكرياً - تتغلغل في أعماق الأمة الاسـلامية في خبث ودهاء.. ومن ثم كان التفسير لهذه الظاهرة الفريدة الغربية هو احتواء الاسلام حتى في أوقات تخلف المسلمين وضعفهم - على عناصر قاهرة قادرة القوة، تفعل فعلها في كل حين، ولاتسري عليهـا قوانـين التخلف أو التقهقـر، ولايحجبها طغيان الخصوم، أو دسائس الحاقدين.

تلك هي «القـوة الصـامـدة» التي لم تزعزعها عواصف الغدر والارهاب. لم تنل منها مخططات الفناء التي رسمتها ودبرتها القوى العالمية المعادية الشريرة، ونحن هنا لا ننكر أن المسلمين قد خسروا بعض المعـارك، واقـتـنصت بعض أراضيهم لكن المحصلة النهائية، تغني أن الرقعة الكلية تتسع. وأن الذين يدخلون في دين

الله يتزايدون حتى في معاقل المدنية الحديثة في الشرق والغرب.

ما المطلوب من الأديب المسلم؟

والأديب المسلم مطالب بأن يعي هذه الحقائق جيداً، ويحاول الغوص وراء أسرارها ورموزها، ويبحث عن النماذج الانسانية، والتحركات الجماعية التي تؤكدها وتبلورها، وتنطلق في موكبها التاريخي الدائب في مسيرته نحو الخير والكمال والجمال، واذا ما حاول الأديب المسلم أن يتعمق تلك القضية الهامة والأساسية، فإنه سيجدها تكمن في عديد من القيم والسلوك، سيرى ان المسلم الحق قوي.. نعم قوي لأن منهاج حياته منضبط بوضوء وصلاة وصوم، وبصدق وعدالة وتعاون مع الآخرين، وبواجبات كثيرة متنوعة نحو نفسه ونحو الآخرين، وكذلك نحو المجتمع الذي يعيش فيه، إنه يعرف معنى التوحيد والاستشهاد والزكاة والحلال والحرام، والدنيا والآخرة والصبر والابتلاء، ويعيش دائما على أمل ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وتبدو مظاهر القوة الصامدة، في أنماطه السلوكية المتنوعة، فهو قوي أمام إغراء المال، فلا يسرق أو يختلس، وهو قوي أمام فتنة الشهوة وتحريض الجنس، فلا يقع في الحرام، أو ينزلق إلى الرذيلة، وهو صامد أمام بطش السلطة وإرهابها، فلا يحني رأسه أمام الفساد والظلم وشراء الذمم، وهو قوي في فقره حيث يخرج إلى الحياة متحملاً أعباءها ومشاقها في طلب الرزق الحلال، هذه النماذج الاسلامية الحية الصامدة نجدها في كل زمان ومكان، برغم تفشي الانحلال والزيف والخرق في حياتنا المعاصرة، ونستطيع أن نقول

بأسلوب آخر، إن هذا السلوك هو الذي بلور «القدوة الحسنة»، فكانت أقوى جيش في أوقات الضعف والخمول، فاستطاع ذلك الجيش الخفي، أن ينشر الاسلام في ربوع آسيا وافريقيا وأوروبا وأمريكا وكندا وغيرها، وأن يمهد الطريق لبزوغ نجم أكبر بلدين إسلاميين في العصر الحديث هما أندونيسيا وباكستان . .

وعلى الرغم من الضربات التي تكال للأمة الإسلامية، إلاَّ أن صوت الاسلام لم يزل عالياً، وراياته تخفق في كل مكان، وقوافل الأبطال والشهداء تدق بأقدامها القوية أرض التعاسة والظلم، باذلة النفس والنفيس من أجل إحقاق الحق، وتحرير الانسان، ونشر العدل والصدق والخير. . .

حقول الابداع والعطاء

إنَّ أمام الأدب الإسلامي حقولاً خصبة للابداع والعطاء، وخاصة في مجال القوة الذاتية التي تحفظ الاسلام وقيمه في نفوس الشرفاء المؤمنين جيلاً بعد جيل، ومن أعظم الأشياء أن ديننا دين الأمل، حيث لاتموت الأماني، أو يتطرق اليأس إلى النفوس في أحلك الأوقات وأحرجها، ولايقع المسلم فريسة الخوف إذا ما قارن قوة أعدائه المادية بقوته، المهم أن يمضي في مسيرته الخالدة، مهما كانت التضحيات (إنْ لَمْ يَكُنْ بك غَضبٌ عَلَيَّ فَلاَ أبَالي)، وهذا يجعل مقاييس النصر والهزيمة، ومقاييس القوة والضعف. تختلف وجهة نظر المسلم إزاءها عن وجهة نظر الآخرين، وذلك واقع إسلامي معاش، يختلف عن الواقع الزائف الذي يسقط بين براثنه الحمقى من الأدباء والشعراء والفنانين، وواقع المسلم يمتد أحقاباً طويلة، ويتمثل تجارب عديدة في الماضي والحاضر، ويستشرف

آفـاق المستقبـل الـذي يأتي كنتـاج طبيعي متطور ومنطقي للنور الإسلامي الشامل.

إننا لا نطلب من الأديب المسلم أن يغفل «المحليات»، لانها جزء من كل، ولأنها جزء من تجاربه وحياته، ولكننا نلفت النظر إلى الـرقعة المتسعة لعالمنا الاسلامي الكبير. الذي يحفل بالعديد من القضـايا، ويخـوض المعارك المريرة في كل موقع، ونذكر بالعروة الـوثقى التي تجمـع تلك الشعـوب المسلمة، وتربطها بحبل الله المتـين، ومن هنـا كانت أهمية فتـح النـوافـذ على الإخـوة الذين يشاركوننا في العناء والجهاد والمصير، ولذلك فإن من واجبنا ضرب العنصرية والاقليمية والشعـوبية، تلك التي لاتثمـر إلاَّ الفـرقـة والتمزق والجفاء، ولن يستطيع القيام بهذا الدور البناء إلاَّ الفنان المسلم الملتزم.

لقد حفلت كتب الأدباء الاسلاميين بالكثير عن «القوة الغالبة» في الاسلام، لكنها لم تحو إلاَّ النزر اليسير عن «القوة الصامدة»، ظناً منهم أن عصور الاستسلام والضعف والهوان، لا تستحق سوى البكاء والرثاء والحسرة، والواقع أن حملة رايات «القوة الصامدة»، هم الحراس الحقيقيون على ثغور الاسلام وحرماته، يقضون ليل النكبة الطويل وهم يعملون ويجاهدون ويفكرون ويزحفون تحت جنـح الظلام، متسلحين بقوة الوعي والضمير والأمل وينشرون الكلمات المضيئـة، ويضربـون المثل الأعلى، معبرين عن القدوة الحسنة، إنهم تجسيد للقوة المعنوية والفكرية، ولهذا استعصى على الاعداء قهرهم أو القضاء عليهم، وهل استطاعت قوة في الأرض مهـما عظمت أن تطفىء نور الشمس، أو تحول اتجـاه الـرياح

والعـواصـف، أو تمنع هطول المطر؟ القوة الصامدة فطرة إسلامية أزلية لا تزول ولا تحول. . والأدباء الاسلاميون يجب أن يكونوا على يقـين تام بذلك، ورسوخ هذا اليقين سوف يحرك أقلام الشعراء والكتاب إلى الابداع والابتكار، ومن ثم تعطى الفرصة من جديد «للقـوة الغـالبة» أن تبرز وتهيمن، وتؤدي دورها الفعَّال في إعادة الـركب التائه إلى الجادة، وتلزمه بالمنهج، وتغير وجه الحياة الذي لطخته المباذل والمهازل، وانحرفت به الأوهام أو التخيلات المريضة. .

والأديب المسلم يجب أن يتبين طريقه عبر تلك الترهات الضاربة التي أورثت حياتنا العتمة والتخبط، ولا يمكن أن نزيح ذلك الركام الهـائل من المعايير المعتلة والملفقة، إلَّا بالوعي والالتزام، فهناك العديد من القضايا الحاسمة التي تحتاج إلى مواقف محددة، وإلى مقاييس إسلامية صحيحة، وهيهات أن نبلغ غاية، أو نحقق هدفاً إلَّا من خلال هذه القنـوات الـطبيعية، ولـذا فإن العبء كبير، والجهـد الـذي نتـطلبه ضخم، (والعظائم ـ كما يقولون ـ كفؤها العـظماء). وأدبنا الاسلامي لايستطيع أن يؤدي رسالته في ابراج عاجية، ولابد من التزامه بالوصول إلى القاعدة والقمة معاً، ولن يتم ذلـك إلَّا إذا أحسن استخدام الوسائل الفعالة أدبياً، شكلاً ومضموناً، حتى نحرك العقل والوجدان معاً، وذلك بداية التأثير والتغيير الحقيقيين. .

رصيد الأديب المسلم. .

إن رصيد الأديب المسلم ـ قديمًا وحديثاً. محلياً وعالمياً ـ رصيد هائـل، لكنه أشبه «بالمادة الخام»، يحتاج إلى الايدي الماهرة التي

تدرك قيمتها، وتحسن تشكيلها، وتجيد إلى توظيفها لخدمة الغاية النبيلة التي رسمتها لنا يد القدرة الإلهية، وهي في الواقع رسالة مقدسة، ومسيرة مباركة، لايصح أن نبخل عليها بالجهد والعرق، والنفس والنفيس.

الأديب المسلم مسافر دائمًا. . إنه يقصد أرضاً جديدة، مترعة بالآمال، وينشد فيها «المدينة الفاضلة»، حيث الحب والإخاء، وحيث الخير والصفاء، والعدل والفضيلة، ذلك حلم المتعبين المكدودين والصابرين، الذين طال بهم العسف، وأضنتهم المظالم، وأرهقهم الحرمان والذل، ولاشك أن الصمت - أو التكاسل - جريمة لا تغتفر، عندئذ نستطيع أن نقول: إن الأديب المسلم قادر على ري الظامئين، وسد جوعة الجائعين، وإن حداءه يبعث القوة والأمل والانتعاش في قلوب السائرين على الدرب الطويل، حيث القيظ الحارق، والعواطف الرعناء، والأشواك المتناثرة هنا وهناك.

القوة الصامدة إذا هي سر بقاء الإسلام والمسلمين، فلنرفع راياتها خفاقة، ولنجعلها شعلة تضيء ظلمات المعارك الطاحنة، التي كتب الله علينا أن نخوضها عبر العصور والأجيال، وعلى الأدباء الاسلاميين الحذر من أولئك النقاد. الذين يجعلون من الفن متعة مجردة، أو هدفاً للتسلية فحسب، أو بضاعة تزجى للترفيه وملء الفراغ، لأن الفن الحقيقي - في ضوء المعايير الاسلامية - وسيلة للبناء، والسمو والتقدم، وحافزٌ للروح والمادة، ومشكلٌ للفكر والوجدان، وباعث للحيوية والقوة والايجابية في حركة الحياة

الشاملة، وممهدٌ لطريق السعادة والنقاء، وحارسٌ لراية التوحيد . . رمز العزة والحرية والعدالة . .

المرجع : مجلة الأمـة
العدد الرابع والعشرون ـ السنة الثانية ،
ذو الحجة، ١٤٠٢ ، تشرين الأول ١٩٨٢ .
قطــر

وانـظر مقـالـة الـدكتور عباس محجوب «واقع الأدب الإسلامي والالتزام».

مجلة الأمة ، العدد الحادي والخمسون ،
السنة الخامسة ، ربيع الأول، ١٤٠٥هـ، كانون الأول، ١٩٨٤ .

الوَجه الحَضاري للأدب الإسلامي

بقلم: د. نجيب الكيلاني

والأدب الاسلامي كلون بارز من ألوان الفنون. ينظر الى الكون ومفرداته، أو الى الحياة وحركتها، وإلى المخلوقات وصراعاتها، نظرة يحكمها التصور الاسلامي. والالتزام العقائدي، ويحلل بصدق همسات النفس، وأشواق الروح، وتفاعل الفكر، وتوهجات السمو الانساني، وتدنيات اليأس والألم والحيرة، وينتصر لقيم الحق والخير والجمال، في الاطار الفني الناجح، وفي نسيج من الصدق، ويجعل من الفن والالتزام كياناً واحداً، لا انفصام فيه ولاتمزق أو تضاد.

وانطلاقاً من هذا الفهم، تدفقت ينابيع الأدب الاسلامي، حافلة بالصور الحضارية المتماسكة، تلك الصور التي تتفاعل مع الواقع والتاريخ، في كل عصر وصقع.

لقد توهم البعض من أصحاب النوايا الحسنة، أن الأدب الاسلامي يحفل أساسا برصد البطولات الفردية وحدها، ونيران المعارك الحربية، وتدمير قوى الكفر ومعاقل الطغيان، وقد يكون لهذا الجانب اهميته، لكن الأدب الاسلامي الصحيح يركز اساساً على ما يمكن أن نسميه «قيم الحضارة الإسلامية إنها مفهوم أعم واشمل، وهو في نفس الوقت تمثل «عميق» وشاسع، إنه يتناول صور الحياة الجديدة المثالية التي ترعرعت في جنباتها قيم الحرية الحقيقية، والشموخ العلمي الباهر، والسمو التشريعي المذهل،

والتجـربة الصادقة الحية، والانفتاح الواعي على تراث الانسانية والعصـور، والفهم الصحيح للعـلائق التي تربط «النمـوذج» الاسلامي بغيره من التجمعات البشرية والاحداث، ولم يكن من قبيل الصـدفـة، أن يهتم مفكرونا الأقدمون بالاطلاع على تراث الاغريق والرومان والفرس والهند، ويدرسوه بامعان، بل ويترجموه إلى العربية، ويستفيدوا من بعض مصطلحاته وكلماته، دونما عقد نفسية، أو موانـع عصبية، لأنهم ببسـاطـة أرادوا أن يثروا العالم بفكرهم وعلمهم، فكان ولابد أن تبدأ المحاولات الجادة لفهم ذلك العـالم وتراثه، حتى يحسنوا التعامل معه، ويعرفوا كيف يدخلون إليه، ويعدون وسائل الاقناع العقلي، لانه لوكان الامر مجابهات عسكرية أو حربية، لما كانت تلك الحضارة الاسلامية، ولما كانت تلك «الشخصية» المميزة للانسـان المسلم، رمـز المعرفة والعقيدة والقوة والكمال التاريخي، إن صح التعبير وإن من يقلب صفحات الشعـر والنثـر في تراثنـا القـديم. يجدهـا نابضـة بتلك الملامح الحضارية، ويجدها أيضا في محاورات الفلاسفة، ونفحات الزهاد، وقصص الـوعـاظ، وبحـوث العلماء. وروايات المؤرخين، ودقة المحـدثـين، وتصانيف الفقهاء والمجتهدين، وعبقرية الرياضيين والاطبـاء، وقـد نجد ذلك كله متجمعاً بنسب متفاوتة في بعض عمالقـة الفكـر الاسـلامي، تلك حقيقـة لايصح ان يماري فيها منصف، ولايصـح أن ينـال أحد من ذلك التأكيد، لمجرد بروز نغـمات نشـاز في عالم الشعـر والفكـر، لأن وجـود مثـل تلك «الاستثناءات»، هو دليل إثبات، أكثر مما هو دليل نفي، تماماً مثل اقامة الحدود على بعض الافراد الخاطئين لايعني أن المجتمع بكامله

قد ساده الفساد، وانحرف به الجنوح والضلال.

واذا حاولنا أن نمعن النظر في النماذج المعاصرة للادب الاسلامي، سوف نجد ـ للأسف ـ غالبيتها، تهتم بابراز البطولات الفردية، والمعارك القديمة الطاحنة، وروعة التضحية والفداء وإن عدداً قليلاً من كتاب العصر الاسلاميين، يحاولون جاهدين إزالة الغبار عن القيم الحضارية للعقيدة، من خلال احداث وانماط بشرية وحوارات مقنعة، أو بمعنى ادق من خلال أشكال فنية عصرية تشمل القصة والقصيدة والمسرحية والتمثيلية والرواية السينمائية غيرها.

إن السر الأكبر في انتصار العقيدة، وهيمنتها بصورة معجزة، لم يكن بسبب الزحوف العسكرية الكاسحة وحدها، وكانت هذه الزحوف تتحرك أساساً من منطلق عقائدي، هذا المنطلق هو الذي صنع نماذج الرجال الأقوياء، وهو الذي زعزع أركان العدو، وهو الذي أقام حضارة جديدة، ومكن لنمط جديد من السلوك، وأبان عن حقيقة العلاقات التي تحكم حركة المجتمع والافراد، واوضح الصلة بين القوى المختلفة، والسلطات القائمة، وحدد هدفا لمسيرة الحياة والاحياء، ومن هذا المنطلق ايضا حاول الأدباء المحدثون الاسلاميون، أن يتناولوا أحداث زماننا، والهزات العنيفة التي تقتحم ديارنا، تناولا صحيحا من خلال المنظور الاسلامي.

إن الفكر الاسلامي ـ وكذلك الأدب ـ ليس انعزاليا بفطرته. وهؤلاء الذين يجسدون تلك العزلة، إنما يقعون في خطأ كبير. مهما كانت الدوافع، ومهما حسنت النوايا، وبديهي أن الأدب الحي لابد وأن يتفاعل . . نعم . . يتفاعل مع أحداث العصر، ومنجزات

العلم، ومع التغيرات الاجتماعية والبيئية، ويرصدها بوعي، ويقف معها في مواجهتها، أي يحدد موقفه منها على ضوء المعطيات الحضارية الاسلامية، لأن الموقف الانعزالي موت، والذوبان في خضم الغزو الثقافي فناء، واللامبالاة بما يجري ضياع وإهدار لفعالية العقيدة، ذلك الضوء الكاشف الذي يمدنا بالقدرة على الرؤية الصحيحة، والتحليل الناجح، والذي يمدنا بالروافد الضرورية لتحديد المواقف.

واذا كانت البطولات الحربية وحدها دليلا على صدق الدعوة، فسوف نجد أنفسنا امام احداث مشابهة في كل زمان ومكان، ورحم الله أمير الشعراء إذ يقول:

إن الشجاعة في القلوب كثيرة
ووجدت شجعان العقول قليلاً

ولا أريد في هذه العجالة أن أتناول النماذج الساذجة من الأدب الاسلامي المعاصر، وما في ذلك النتاج من شخصيات مسطحة، ليس لها أبعاد نفسية أو اجتماعية أو فكرية، ومافيه ايضا من إهدار للقيم الفنية، واستخفاف بعقول المتلقين، فهذه كلها أمور تفصيلية يستطيع النقاد أن يتناولوها بمقاييس عادلة دقيقة، في تأنٍ وتمهل.

ثم. إلى متى يظل الأدب الاسلامي - في غالبيته - محصورا في الواقع التاريخي؟ هل يفهم من ذلك أن القيم الحضارية للأدب كانت مرهونة بفترات النصر والغلبة؟

إن انحسار المد الاسلامي لايعني ذهاب القيم، لأن تلك القيم في واقع الأمر ليست تراثا، بل حياة دائمة، مرتبطة بالافراد والجماعات، يحملها الانسان المنتصر والمهزوم ويلتزم بها في وطنه ومهجره،

ويحيا عليها إبان فترات القوة والضعف ولعلها في وقت الانتكاسات الزم واوجب، ويستطيع الأديب المسلم أن يتغنى بها شعراً ونثراً، ويحلم بصورها المثالية، ويرسمها بريشته العبقرية حتى تظل أملا نسعى إليه، ونجاهد من أجله، وفي حياتنا المعاصرة، نجد في كل أرض نماذج مجسمة لتلك القيم العريقة، تتألق في روعة بدور العلم والابحاث، وعلى سفوح الجبال وشطآن البحار والأنهار، وفي الحقول والمصانع والغابات، وفي لهيب المعارك الضارية، وفي أروقة السياسة والاقتصاد والفلسفة، وإنهم في كل مكان في مدن أمريكا وأوربا وآسيا واستراليا. . وعلى الأقلام المقيدة أن تحطم القيود، وتنطلق الى تلك الآفاق الرحبة، وتعبر بصدق وقوة وأمانة عن رجل التوحيد. . وعن أمة التوحيد، وعن الآمال التي تخفق في قلب ألف مليون مسلم، مازالت غالبيتهم تنهل من الينابيع الصافية التي تتدفق عبر الزمان بالخير والعطاء، والذين يتنكرون لهذه الحقائق من المؤرخين والنقاد والمحللين السياسيين إنما يتورطون في خطأ تاريخي فادح، ويجافون العدل، ويظلمون الواقع.

وإذا كانت الحضارة فكراً وممارسة، أوعقيدة وعملاً والتزاماً، فإن مسؤولية الأديب المسلم أخطر بكثير مما يتصور البعض، وإذا كنا قد قررنا في البداية أن الفصل بين الفن والأيديولوجية خطأ جسيم، وخروج عن منطق الممارسة والعلم، فاننا نقول أيضا إن الأدب الاسلامي الصحيح جزء لايتجزأ عن الواقع وحركة الحياة والعمل الدائب ﴿كَبر مَقْتاً عنْد الله أن تَقُولوا مالا تَفْعلُونَ﴾ [الصف ٣].

والواقع المرير أن محترفي النقد في أمتنا، لم يعطوا هذا الجانب حقه من الاهتمام والمتابعة والدراسة، فضلا عن أن صفحات

المجلات والصحف لاتفسح صدرها إلا للقليل جداً، وعلى الرغم من الملايين التي ترصد في مسابقات نجوم السينما والمسرح والفنون التي تتسم بالتبعية والمروق، إلا أن الأدب الاسلامي المعاصر يعاني من الاهمال والتجافي والعزلة، ولايكاد يظفر التقييم الصحيح، والتشجيع الذي يستحقه، بالاضافة الى أن الادوات التي يملكها الكاتب المسلم لا تستطيع أن تنهض به للمستوى المنشود، وأعتقد أنه قد بات لزاما على الغيورين على الأدب الاسلامي أن يبدؤوا منذ اليوم بعمل الآتي:

أولا: رصد جوائز سنوية للادب الاسلامي في فروع:

- القصة القصيرة.
- المسرحية.
- الرواية.
- الشعر.
- تاريخ الأدب الاسلامي.
- نقد الأدب الاسلامي.
- القصة التمثيلية أو السينمائية.

ثانياً: عقد مؤتمر دولي سنوي للأدب الاسلامي.

ثالثاً: وضع مواصفات معينة لمادة الأدب الاسلامي في مناهج المدارس.

رابعاً: إنشاء أقسام متخصصة للأدب الاسلامي في الجامعات.

خامساً: إنشاء دار نشر عالمية لتأليف وترجمة الأدب الاسلامي.

قد يكون ذلك منطلقاً جديداً، لتحديد ماهية الادب الاسلامي، وارتباطه أساساً بقيم الحضارة الاسلامية، مع مراعاة

الأشكال الفنية المعاصرة التي لاغنى عنها في أي عمل أدبي ناجح ، ولاشك أن ترجمة الآمال إلى خطوات عملية قابلة للتنفيذ، يعتبر بحق مؤشراً من مؤشرات النجاح المرتقب.

★ المرجع : مجلة الأمة
العدد الثامن عشر، السنة الثانية
جمادي الآخرة، ١٤٠٢هـ نيسان ١٩٨٢م
قطـــر

الخاتمة

ثمة تعتيم إعلامي واضح على الأدب الاسلامي، . . . والمجلات والصحف العربية والاسلامية هي مدُانة إزاء هذا التعتيم وهذا الاهمال!

★ ★ ★

. . . كتب محرر صفحة أدبية ملتزم عن رأيه في هذا التعتيم على الأدب الاسلامي فقال: هذا الأدب الذي قلما نجد نماذج منه على صفحات الصحف أو المجلات يقع عبؤه على جهتين:

الجهة الأولى: الأدباء أنفسهم . . فترى الواحد منهم لايهتم بنشر انتاجه الأدبي. وينسى أنه بنشر هذا الانتاج يساهم في دعم الحركة الأدبية الاسلامية التي نرجو لها جميعاً التقدم والازدهار.

الجهة الثانية: وتتعلق بالقائمين على الصفحات الأدبية في الصحف أو المجلات الثقافية. . ذلك أن بعض هؤلاء ذو ميول لاتتفق والاسلام، ويرى العالم من منظاره الخاص ـ المظلم ـ فتراه لايهتم بأي قصيدة أو قصة من الأدب الاسلامي، ويبرز أي عمل أدبي يتفق مع أفكاره!! والمشرف الأدبي في أي مجلة أو صحيفة موجودة بحكم الوظيفة لا بحكم الانتماء العقائدي. . إنه حر في انتمائه، لكنه ليس حراً في رفض الأعمال الأدبية الاسلامية الجيدة المضمون والمستوى الفني!!

اذن ثمة غياب ـ أو شبه غياب ـ للأدب الاسلامي والصحافة الاسلامية الموجهة، بل ثمة غياب لوسائل الاعلام الاسلامية تلك

التي تحدثنا عنها وعن دورها الاعلامي الهام في نشر الدعوة والرسالة الاسلامية! . . . وفقد الاعلامي المسلم دوره الكبير كداعية للاسلام، وربما صار داعية لهدمه ودماره ومن هنا تكمن الخطورة!

واطلعت على كتاب لطيف للكاتبة منى حداد يكن (ابناؤنا بين وسائل الإعلام وأخلاق الاسلام)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ.

حيث تناولت أثر الاعلام على الأخلاق. كما تحدثت عن أخلاق النبوة، وواقع الأمر أني ما إن أعددت هذه المقالات إلا وقد انثالت عليّ الموضوعات وازدحمت الأفكار والآراء والطروحات، وادعو الله العون لاكمال مجالات البحث والدراسة، وأن ينبري لهذا الأدب أهله. . كما انبريت!



إن الأديب لايكتب لنفسه وعن نفسه، وانما هاجسه الأوحد هو الأمة الاسلامية، ومحركه هو أحداث هذه الساحة، . . إنه الهم الجماعي الذي يواجهه في ظل الصحوة الاسلامية الراهنة!

والأديب المسلم ـ كذلك ـ لايكتب للخاصة دون العامة فهو موجه في أدبه وكتاباته للشارع المسلم قبل أن يكون موجهاً للطبقة المثقفة! وما نريده. . . كُتّاب الداخل لا كُتّاب الخارج، كُتّاب واقع الأمة الاسلامية وحاضرها وهمومها وأحداثها، . . . لا كُتّاب الشكليات المزخرفة!!

والأديب المسلم لايستطيع إلا أن يلتفت إلى مجتمعه، ويتفاعل معه، فيحس آلامه، ويشخّص داءه، ويصف له أدواءه. ولا بد له

أن يجره ايمانه إلى موقف الداعية الشفيق العطوف، الذي يجد من فكـرة وايمانه ودعوته ما تبين له الدواء ـ كما يذهب الأستاذ عادل صلاحي ـ فيروح ـ يبيّنـه لأهله وقـومـه، في مودة الأخ المحب، واشفـاق الأب الحاني، ورحمة الأم الرؤوم. (مجلة المجلة، العدد ١٧٧، تموز ١٩٨٣، الأديب المسلم وقارئه).

★★★

وبعد... فقد تناولت في تقديمي جملة من القضايا في الأدب الخـالـد، تغـريب الأدب الاسلامي، مناكفة فصل الدين عن الأدب، آفاق جديدة في الأدب الاسلامي، أدب الطفل المسلم، تبسيط التراث للناشئة وصلتهم به، نحو نظرية جديدة في الأدب الاسلامي، دور الكتاب المسلم في نشر الاسلام، الى غير ذلك من الموضوعات الهامة وذلك لفتح الآفاق أمام الأدباء والكتّاب المسلمين.

وعـرضت لأدب القـرآن وطفت في ظلالـه، صدق القرآن، القـرآن رسـالـة إعـلامية فريدة، اعجـاز القرآن، أدب القرآن، مسـارب وقنوات لدراسة الأدب الاسلامي، تحليل لنصوص من القرآن الكريم، دور القرآن في حفظ الأدب العربي، عناصر الفكر والفن في الكتاب العربي المبين وتحليلّ الأستاذ محمد المبارك، رأي الدكتور عماد الدين خليل في وظيفة الأديب المسلم، عرض موجز لعدد من رسائل الماجستير والدكتوراة في أدب القرآن ولغته، الفكر الذي تشكل الأدب العربي في إطاره ورأي للأستاذ أنور الجندي.

★★★

نحن إزاء عدة عمليات فصل موجهة للأدب والفكر الاسلامي

. . . فصل العصور، فصل الدين عن الفكر والأدب، فصل الأخلاق عن الأدب، فصل التاريخ الموضوعي عن الاسلام، . . . الفصل بين المناهج التعليمية والدينية، . . . وذلك بغرض فصل الناشئة عن حضارتهم وتراثهم ودينهم!

يقول الأستاذ أنور الجندي في مقال له بعنوان «من أساليب الغزو الفكري الفصل بين المناهج التعليمية والدينية»: مدارسنا ماتزال تدرس تاريخنا بمفهوم قومي أو اقليمي أو بتفسير مادي للتاريخ، ونحن في ذلك خاضعون للمناهج الغربية، . . . ومازلنا نحاكم أدبنا العربي ولغتنا العربية وثقافتنا وتراثنا إلى مقاييس موضوعة للغرب، الذي يصدر في أدبه وثقافته وتراثه عن المسيحية واليهودية في الدين، من ناحية، وعن اليونانية والرومانية في الحضارة من ناحية أخرى. (جريدة الدستور، ٩/٧/١٩٨٣).

لقد تكالبت علينا الأمم وتداعت، وكُنّا فريسة سهلة لابتعادنا عن حقيقة هذا الدين، وعقيدة هذا الدين، وخلق هذا الدين.

- إنني ابارك من أعماقي اولئك الذين قاموا بالعملية ضد بسام الشكعة.

- لقد سررت جداً بأنباء «صبرا وشاتيلا» لأنها ارادة الاله في الانتقام.

علينا أن نسن تشريعاً لطرد كل العرب من أرض اسرائيل أو أن يظلوا عبيداً ونحن أسيادهم!

- ارض اسرائيل من النيل الى الفرات وسنحررها في يوم ما !!!

. . . هذه أقوال الحاخام «مئير كاهانا»، مؤسس رابطة الدفاع اليهودي في الولايات المتحدة، ومؤسس حركة «كاخ» العنصرية في

اسرائيل، وهو من المخططين للاعتداءات المتكررة على المسجد الأقصى!!

وقد شوّهت اسرائيل مناهج التعليم في الارض المحتلة ضمن حملاتها الواعية، وصادرت مجموعة من الدواوين والقصص القصيرة والأعمال الأدبية المتميزة من الأكشاك والمكتبات العامة والخاصة، وهي تناهض كل فكر اسلامي، وكل حركة إسلامية فاعلة!!

وفي مكتبة الكونغرس الامريكية قسم خاص للدراسات الشرقية والاسلاميات، وقسم لمتابعة كل ما يصدر من دراسات هامة، ومتابعة نشاطات الحركات الاسلامية في الشرق الأوسط، والعالم اجمع، وما من رئيس امريكي في بيته الأبيض إلا حفل بهذا الخطر القادم وهذا المارد الذي بدأ يتململ!!

ووقفت عند الأدب النبوي، أدب الرسالة: المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، التوصيات، تعريف السيرة النبوية، تعريف السنة النبوية، اشهر الكتابات حول الأدب النبوي: الأستاذ أحمد حسن الباقوري، الأستاذ بكري شيخ أمين حيث عرضت لأربعة تحليلات له هي: تعريف المسلم وشريعة الفطرة وبناء الشخصية والتضامن والتعاون في صفحات متفرقة، صفات النبي محمد (ﷺ)، كما كتب الأستاذ أحمد العناني مقالاً لطيفاً في مجلة حضارة الاسلام «حول الأدب النبوى» عرضت لنماذج من تحليلاته الواعية، واستطردت في سرد من كتب حول أدب رسول (ﷺ)، نص خطبة حجة الوداع، وقفة تأمل.



وحاورت رأي الاسلام في الشعر، منزلة الشعر عند العرب،

رأي القرآن، الحديث النبوى، عرض لكتابي الدكتور سامي مكي العاني: «دراسات في الأدب الاسلامي» و«الاسلام والشعر»، وقد اقتطفت دعوى ضعف الشعر الاسلامي، من الكتاب الاخير، اذاعة الكويت والاسلام والشعر، قصص في الشعر الاسلامي، ولولا طبيعة هذه المقالات المحددة الهدف لعرضت لنماذج من الشعر الاسلامي الملتزم.

واقتطفت مقالي «الاتصال واللغة» من كتاب «وسائل الاتصال الجماهيري في الاسلام»، منشورات دار المعرفة، عمان، ١٩٨٢.

وكان بحثي «مدخل لدراسة أدب الحروب الصليبية»، هو دراسة حضارية لأدب هذا العصر وصراع هذا العصر، وقد قدمته ابان دراستي العليا في مادة أدب مصر والشام للدكتور محمود ابراهيم، عميد كلية الآداب في الجامعة الاردنية، ونال استحسانه وتقديره.

وتتبعت ثلاثة مؤتمرات في الأدب الاسلامي هي:

١- الندوة العالمية للأدب الاسلامي، لكهنؤ، الهند.

٢- ندوة الأدب الاسلامي في الجامعة الاسلامية، المدينة المنورة.

٣- اجتماع مكة المكرمة لتأسيس المؤسسة الاسلامية للنشر والتوزيع والانتاج الفني، مكة المكرمة.

وكان فصل «مطارحات في الأدب الاسلامي» من الفصول الهامة ومجلة الأمة مشكورة على سماحها باقتباس هذه المقالات، وقد قدّمتها في توطئة مناسبة، أما المطارحات فهي للدكتور عبد الباسط

بدر، والدكتور عبد العظيم الديب، والأستاذ محمد حسن بريغش، والدكتور نجيب الكيلاني، وقد رتبتها حسب الحروف الهجائية للمؤلفين.

أما الخاتمة.. فلم اجعلها خاتمة تقليدية؛ بل أثرت فيها عدة موضوعات قابلة للنقاش والحوار الهادىء البناء ـ كما ترى ـ وكان أحد أهدافي من هذا الكتاب هو فتح الباب على مصراعيه لدراسة هذا الأدب والعيش معه!... وهذه دعوة للكُتّاب المسلمين، والمؤسسات الثقافية والعلمية، وهي دعوة موجهة كذلك لمحرري الصفحات الثقافية... أن ادعموا الأدب الاسلامي، والكتاب الاسلامي، والفكر الاسلامي... هذا النبع الصافي العذب الفرات!!

إن أدباءَ الاسلام يودون نشر انتاجهم الادبي والفكري ولكن المثبطات كثيرة وكبيرة، وهم بحاجة للدعم والتأييد الرسمي والشعبي،.. الرسمي بوزارات الثقافة، والأوقاف والشؤون والمقدسات الاسلامية، والتربية والتعليم، والجامعات، وهي بحاجة للشارع المسلم كذلك، ولنشر الوعي بين عامة المسلمين.. حول قيمة الكتاب الاسلامي!!

والادباء عازفون عن الكتابة والنشر ازاء هذه المثبطات.. ـ إلا من رحم ربي وقدِّر له الدعم ـ وثمة ملحظ ثالث وهو عدم وجود دور النشر الاسلامية بصورة مقبولة قياساً إلى دور النشر والتوزيع الأخرى التي تهتم بنشر ما هب ودب!!!

وأحسب أن وجود دار النشر الوطنية أمر هام.. لنشر الكتاب الاسلامي وتوزيعه بصورة فضلى وسعر معقول، وهذه الدار مناطة

بوزارات الثقافة كما هي مناطة بوزارات الأوقاف في أجزاء الوطن العربي الكبير، اقول هذا مع وجود بعض المحاولات الجادة لسد ثغرة هذه الدار المنشودة مثال ذلك سلسلة عالم المعرفة التي يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب في الكويت، وسلسلة كتاب «الأمة» الذي تصدره رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر.

على أن السلسلة الأولى تتسم بالتنوع في شتى ضروب المعرفة والعلوم والثقافة والآداب. وثمة كتب أخرى مشابهة تصدر في القاهرة سلسلة كتاب اليوم، وكتاب الجيب، وسلسلة «اقرأ» - على تنوع موضوعاتها - والموسوعة الصغيرة وغيرها التي تصدر عن دار الجاحظ في بغداد.

وهذا العرض الموجز لهذه - الكتب المعرفية الثقافية التي تدعمها بعض الدول العربية وتتولى نشرها وتوزيعها بأثمان ميسورة. . ليس شاملاً، ويقصد به ابراز دور الدعم الرسمي للأدب الاسلامي، . . حيث يتضاءل دور الأفراد قياساً لدور الدول والساسة.



إن ابراز الأدب الاسلامي يقع على عاتق وزارات التربية والتعليم فهي نقطة البدء التي يتكون من خلالها شخصية الطالب ومفاهيمه وأفكاره.

وعلى هذا يقول الدكتور محمد محمد حسين في كتابه «حصوننا مهددة من داخلها»، لاشك أن وزارات التربية والتعليم هي أهم معاقل الدين واللغة والحصون الساهرة على أمن الشعوب وكيانها،

لأنها هي المؤتمنة على أثمن ما تملكه الأمة من كنوز، وهي الثروة البشرية بما تنطوي عليه من قوى مادية ومن ملكات عقلية وخلقية، ممثلة في رجال الغد الذين تشرف على تربيتهم.

وهناك مؤسسات خطيرة بين ظهرانينا تتولى تدمير أطفالنا ـ وفق خططها المتنوعة ـ منها مؤسسة روكفلر:

Rockfeller Brother's Fund

ومؤسسة فرانكلين حيث أصدرت هذه المؤسسة فيما أصدرته من مطبوعات سلسلة عنوانها (كيف نفهم الأطفال ـ سلسلة دراسات سيكـولوجية)، والكتب التي تخرجها هذه المؤسسة جميعها لمؤلفين أمريكيين، وهي مختارة اختياراً خاصاً يبرر انفاق ما ينفق عليها من المال الامريكي.

.. خاصـة اذا علمنـا أن مؤسس الأولى هو نلسـون روكفلر يهودي يتستر تحت النصرانية فهو عضو مؤسس في اللجنة القومية المسيحية التي وحدّت صفوف اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، والتي تسـاهم بالنصيب الأكبر في جمع النفقات التي تساعد اليهود على الهجرة من أوربا إلى فلسطين، وجد هذه الأسرة الأول هو جوهان روكفلر اليهودي الألماني الذي نزح إلى أمريكا في أوائل القرن الثامن عشر. وقد أنفق ابنه جون روكفلر ملايين الدولارات في تأسيس الجمعيات والمنـظمات اليهودية المختلفة في أمريكا (انظر: أمريكا مستعمرة صهيونية ص ١١، ١٢)، (والمرجع السابق ص ٣٨، ٣٩).

ويطرح الأستـاذ محمد محمد حسين سؤالا هاماً: ما هو النفع الذي يعود على هذه المؤسسات، والذي يدفعها إلى بذل ما تبذله

من جهد ومن مال؟ ويجيب على سؤاله حين يقول: من الأهداف الواضحة التي لاتخفى أن مثل هذه المشروعات تحقق أول ما تحقق توثيق الصلات بنفر من ذوي النفوذ وكسب ودهم وولائهم بالبذل السخي الذي يقدم في صورة مهذبة مؤدبة جداً!!

وهدف آخر من هذه الأهداف الواضحة هو السيطرة على توجيه المجتمع، عن طريق هؤلاء الأصدقاء من أصحاب النفوذ وعن طريق المخدوعين بأسمائهم ممن يقرؤون ما ينشرون!

إنهم يسعون إلى تدمير أطفالنا خلقياً، واجتماعياً، وبالتالي فانهم يسعون إلى تدمير هؤلاء الأبناء دينياً. وأبيت أن أكتب ما جاء به صاحبنا من أسئلة بعنوان (الطفل والأمور الجنسية) ضمن السلسلة التي تحدثنا عنها ومؤسسة فرانكلين!... ففيها دعوة واضحة الى الاباحية والعري والاختلاط وكشف العورات أمام الأطفال، ومصاحبة الفتيات للفتيان، ويسميها مؤلف الكتاب.. الأخلاق الحديثة وكأن في الخلق قديمًا موروثاً جاءت به الأديان، وجديداً يخالف ما تواضعت عليه الأديان والمجتمع في تقرير الخطأ والصواب. ويدعو إلى تدريس مادة الجنس هذه ضمن المواد الاجتماعية في المعاهد والكليات الجامعية،.. بل في مراحل التعليم المختلفة، ويضع تحت كل برنامج من هذه البرامج ما يرى أنه خليق بالدراسة!!

(انظر: الدكتور محمد محمد حسين/ حصوننا مهددة من داخلها، من ٤٠ ـ ٥٣).

وازاء هذه الهجمات المسعورة العاتية المخططة الخبيثة ألا يستدعي هذا وزارات التربية والتعليم الاهتمام بأدب الطفل المسلم

وخلق الطفل المسلم؟ . . أقول ارفعوا ايديكم عن أطفالنا!!؟

يقول المربي عبد الغني عبد الهادي: إن أدب الاطفال يشكل الفعالية الأكيدة في الوصول بالطفولة إلى بر الأمان. وبالتالي تحقيق العملية التربوية، لأنه يسهم في بناء شخصيتها التي هي شخصية المجتمع الجديد. ومن هنا فإن أدب الطفل أداة فنية هامة من أدوات التنشئة الاجتماعية. . تنشئة الطفولة علينا أن نلم بها ونشحذها لتؤتي أكلها أولاً بأول، ورغم ما لأدب الطفل من أهمية وجدوى في بناء الطفل والطفولة، إلا أن أدباً عربياً للأطفال لم يتبلور بعد - كما يرى الأستاذ عبدالهادي.

يضاف إلى ذلك أن بحوثا ميدانية لم تجر حتى اليوم في الوقت الذي تتلاحق فيه البحوث والدراسات عن الأطفال في بلدان العالم المتقدمة بل أدخل أدب الاطفال كمادة منهجية في كثير من كليات الاعلام والآداب ومعاهد التربية واعداد المعلمين، لا في البلدان المتقدمة وحدها، بل في كثير من بلدان العالم النامية أيضاً! (جريدة الرأي الاردنية الصادرة بتاريخ ٨/٢/١٩٨٠، بين الأدب والتربية).

وهذا لا يعني جمود حال الاسلام بل تطوره ومرونته الصالحة لكل زمان ومكان، والحديث هنا ليس بمتيح لنا عرض عناية الاسلام بالطفل، وقدوتنا في ذلك رسول الله ﷺ. . فهي تحتاج إلى ابحاث وأبحاث، حيث أن غاية الاسلام بالطفل جدُّ عظيمة، وهي تركز

«انظر مقالة عيسى أمين صبري: نحو أدب إسلامي للأطفال، مجلة الأمة، العدد التاسع والثلاثون، السنة الرابعة، ربيع الأول، ٤٠٤هـ».

على تنشئة الطفل منذ ولادته على الاسلام . . كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه! . . كيف لا وقد تم ابن فاطمة ركوبته على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد لله!!!

إن التماس منهج الاسلام لا يعنى رجعية ولا تخلفاً ولا التماساً للقديم، ولا ولعاً بالتراث؛ فالاسلام ليس تراثاً وليس قديماً على النحو الذي يفهم به القديم والتراث في الغرب، بل هو المنهج الرباني الأصيل الذي وضعه الحق تبارك وتعالى للبشرية إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وجعله صالحاً لكل العصور والبيئات، بما فيه من مرونة وسعة أفق، أما الايديولوجيات الحديثة فهي تتضارب ولا تستطيع متابعة متغيرات الكون والمجتمع لانها تقوم على نظرة محدودة من خلال قطر أو عصر ولذلك فهي تحتاج إلى التطوير بالاضافة والحذف، وليس كذلك الاسلام. . . كما يقول الأستاذ أنور الجندي .



لقد عرضت لبعض الكتب المسلسلة في العالم العربي، ولكن كما رأيت أن طابع هذه الكتب يغلب عليه الطابع الثقافي المعرفي، ما عدا كتاب مجلة الامة القطرية حيث نعرف توجهها الاسلامي المتقدم!

كما عرضت لبعض الكتب المسلسلة المضادة . . . سلسلة مؤسسة روكفلر، ومؤسسة فرانكلين، ومؤسسة سيجما . . . الخ . وغصّت الساحة بهذه الكتب المدمرة!!

وكانت هذه الدراسات التي قامت حول الأدب الاسلامي

دراسات نظرية في معظمها، ولدي أمل عريض واسع في اكمال مسارها لنتعدى النظرية إلى التطبيق على نماذج من الأدب الاسلامي المعاصر، حيث اعدُّ دراسة نقدية حول أدب الأستاذ المربي يوسف العظم. . أضمّها إلى دراسات أخرى آمل نشرها.

وقد تحدثنا في موقع سابق عن التعتيم الإعلامي على الأدب الاسلامي . . . ومع هذا التعتيم المقصود على أدب الاسلام، وضآلة هذا الادب عن الفنون الأدبية الأخرى من ناحية ثانية، أقول مع هذا التعتيم وهذه الضآلة تلوح في الصحف والمجلات وبعض المجاميع الشعرية والقصصية أسماء لامعة لها دورها البارز في إحياء الأدب الاسلامي، حيث نقرأ شعر عمر بهاءالدين الأميري (المغرب)، وقصص وأدب يوسف العظم (الأردن)، وكتابات اقبال (الباكستان). . . كأمثلة على واقع الأدب الاسلامي، ولكن هذا لا يعني عدم ظهور أسماء أخرى. إلا أن أعمالها الأدبية وكتاباتها تنحصر في نشر قصص وقصائد اسلامية متفرقة في الصحف والمجلات، ويكدُّ المرء في بحثه عن نماذج أدبية متميزة للدراسة والتحليل أو بغرض تطبيق النظرية الاسلامية في النقد، أو ما أميل إلى تسميته النظرية النقدية الإسلامية؛ ومن هذه الأسماء عبدالحميد جوده السحّار (مصر)، وقصص أمينة قطب (مصر).

كما ينبغي أن يتعدى الأدب الاسلامي إلى دور الاذاعة والتلفزة العربية والاسلامية، كما يتعدى إلى الصحف والمجلات في نشره، وإذاعة حلقات مسلسلة في الأدب الاسلامي: معناه ومفهومه، أصوله وفروعه. شكله ومضمونه، فنونه وضروبه، أسسه

ومنطلقاته، غاياته وأهدافه . . . ثم اذاعة قصص قصيرة مختارة، وقصائد إسلامية ذات طابع حديث متطور تراعي الجدة كما الاسلام! والاهتمام بالبرامج التراثية الفكرية كذلك، حيث بث التلفزيون الاردني عدة حلقات رائعة بعنوان «من عيون التراث» و«كتب ومؤلفون»، ولكنها حلقات ميسورة قياساً إلى برامج التلفزة الأخرى، وهي متقطّعة!!

وأخيرا ارجو أن أكون في اعداد هذه المقالات قد دخلت إلى الأدب الاسلامي مدخل صدق، وأن أكون قد خرجت مخرج صدق ولله الأمر من قبل ومن بعد.

المؤلف

١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥م

الفهرس